أحمد خيري العُمَري

قُربان آل يونس

رواية

عصير الكتب



قربان آل يونس





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان: قربان آل يونس ●

● تأليف: أحمد خيري العمري

● تدقيق لغوي: شيماء أحمد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: يناير 2025م

● رقم الإيداع: 2024/27285م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-450-2



تنبيه

كل الشخصيات المعاصرة الواردة في هذه الرواية هي من صنع خيال المؤلف.

كل الأحداث العامة التي ترويها الرواية هي حقيقية وموثقة.

إهداء

إلى المدن العابرة للتاريخ والجغرافيا،
العصيَّة على الانتهاء والاندثار.
المدن التي تبقى لمعةً في عيون الأحفاد..
بعد ثلاثة أجيال من مغادرة أجدادهم لها.

العلاقة بين الموصل ونينوى مثل العلاقة
بين دائرتين متداخلتين، أحيانًا تكبر واحدة منهما
فتحوي الأخرى، وأحيانًا تلعب الأخرى هذا الدور.

في البدء كانت نينوى عاصمة الإمبراطورية الأشورية
التي سيطرت على العالم لفترة ما، ثم خربت ودرست وصارت
مجرد أطلال. نمت على مقربةٍ منها مدينة الموصل، ثم ما لبثت
أن حوَت نينوى القديمة.

اليوم، الموصل المدينة تضم آثار نينوى القديمة، واسم نينوى
هو اسم المحافظة التي مركزها الموصل.

صهيب

كنت قد نمت للتو بعد محاولات طويلة عندما أيقظتني أليكسا بصوتها المعهود الذي يشبه صوت معلمة الصف الأول الابتدائي وهي تقول بهدوء مستفز: «لديك تسع مكالمات فائتة من والدتك».

حدث شيء غريب في إعداداتها منذ أن وصلت إلى الموصل. حاولت تغيير إعدادات الوقت وربطها ببرنامج آخر للذكاء الاصطناعي، لكن خطأً قاد إلى آخر ووجدت نفسي داخل خللٍ تقنيٍّ يجعل أليكسا تتصرف تقريبًا كما يحلو لها.

- أليكسا، لا داعي لإخباري بعدد المكالمات الفائتة من أمي.
- حسنًا. لديك عدة مكالمات فائتة من أمك.
- أليكسا، أغلقي نفسك الآن ودعيني أنام.
- آسفة، لا يمكنني فعل ذلك.

وضعت رأسي تحت المخدة. في الليالي السابقة نمت بهذا الوضع للتخلص من صوت مولدة الفندق. الليلة الكهرباء (الوطنية) -كما يسمونها هنا- متوفرة، ولكن أليكسا تبلي بلاءً حسنًا بدلًا من المولدة. الليلة تقوم بمهمة ضميري الذي يؤنبني لأني أحاول تجنب الرد على مكالمات أمي.

صمتت لثوانٍ.

- آسفة، لم أفهم ما قلت. هل تريد مني أن أتصل بأمك؟
- لا، لا، أرجوكِ، سأتصل بها لاحقًا. يجب أن أنام. لديَّ عمل مهم في الغد.

قالت بالهدوء المستفز نفسه: «حسنًا، سأتصل بأمك».

كنت على وشك أن أصرخ بها ثم قررت أن أستسلم.

رنتان فقط وجاء صوت أمي.

***

الصمت يقول أشياءَ كثيرةً، أحيانًا أقوى وأكثر من كل الكلمات.

أو على الأقل، هذا ما يقوله صمت أمي لي.

وعندما يمتزج الصمت بنظرات معينة منها، فإن كلامها الصامت يصبح مصحوبًا بموسيقى تصويرية تشبه تلك التي تُستَخدَم في أفلام الرعب، في لحظاتِ ما قبل ارتكاب الجريمة.

هذه المرة لم تكن هناك موسيقى تصويرية، فقد كان الصمت عاليًا عبر اتصال هاتفي.

كان هذا أول اتصال هاتفيٍّ مع أمي منذ أن وصلت إلى الموصل منذ ثلاثة أيام. خلال ذلك كانت هناك الكثير من الرسائل الصوتية المتبادلة، سريعة وللاطمئنان فقط، لا تكفي للإجابة عن تساؤلاتها التي تتطلب الكثير من التفاصيل في الردود.

مع (عسر التكيف) الناتج عن فرق التوقيت بين الساحل الشرقي للولايات المتحدة والموصل، قضيت أيامي الأولى وأنا مصاب بما يشبه الدوار الذي كان يصيبني أحيانًا صباح الأحد بعد سهرة السبت. لم أكن أعرف أن ذلك يمكن أن يحدث دون كحول، بل لم أكن أعرف أن (عسر التكيف) حقيقة أصلًا. كنت أعتقد أنه مجرد مبالغة، ثم اكتشفت أنه

أصعب بكثير. كنت أحضر الاجتماعات كما لو كنت واحدًا من قبيلة الزومبي وجد نفسه بين أشخاص لا يعرفهم يرتدون بدلات رسميةً وربطات عنق ويتحدثون بجدية عن مشاريع إعمار هندسية ويطلبون رأيي فيها.

في اليوم الثالث بدأ الدوار يخف، وبدأ معه شعور غريب لم أفهمه. مشاعر مضطربة لم أعتقد أني شعرت بها يوم بدأت كل الأحداث التي قادتني في هذه الرحلة. مشاعر لم أفهمها أصلًا. كنت دومًا قريبًا من مشاعري مهما كانت. كنت أعتقد ذلك على الأقل: أفهمها وأحاورها وأتفاهم معها. سنوات العلاج النفسي الطويلة جعلتني قادرًا على ذلك. لكن هذه المشاعر التي أمر بها اليوم كانت مختلفةً، أراهن أن سلسلة المعالجين الذين مررت بهم لن يستطيعوا تفسيرها أيضًا، لكن لن يعترفوا بذلك طبعًا، سيقولون أي شيء يأتي في أذهانهم.

في الليلة الرابعة، وبينما كنت أدلف للتو إلى حضن حلم غريب لا أذكر تفاصيله، أيقظتني أليكسا وقادتني إلى هذه المكالمة مع أمي. كنت على وشك أن أبوح لها بكل شيء. كل ما لم أفهمه بعد. لكن ما إن سمعت صوتها حتى وضعت قناعي المعتاد. قناع الرجل الذي يسيطر على كل شيء. كل شيء تحت السيطرة، كما يجب أن يفعل الرجال.

قلت لها إن كل شيء على ما يرام وإني بخير. لا أعرف إن كان كل شيء على ما يرام، لكني كنت متأكدًا أني لست بخير. لست واثقًا إن كنت بشرًا، لكني لست بخير.

سألتني، بعد صمت قصير لا أشك أنه مقصود ومدروس.

- هل حاولوا الاتصال بك؟

- من؟

تقريبًا كنت أعرف من تقصد، لكني كنت أناور لكي أضبط وضع قناعي على شخصيتي الظاهرة.

- أقارب والدك، آل يونس.
- نعم، اتصلوا منذ اليوم الأول، كما لو كانوا يعرفون بموعد وصولي ومكان سكني.
- من اتصل؟
- شخص اسمه يحيى. قال إنه ابن عمي، لكني فهمت أن الكل هنا أبناء عم بطريقة ما. ربما كان ابن عم بدرجة ثانية. يوصلني أيضًا إلى أي مكان أحتاج إليه رغم أن الشركة وفرت لي سائقًا.
- يحيى؟ غالبًا هو ابن زكريا، ابن عم والدك، ابن عمه المباشر.

كنت أعرف أن لديَّ عمًّا اسمه زكريا، وأنه استشهد في الحرب في الثمانينيات.

- كيف عرفت أنه ابن عمي زكريا؟
- هذه الأسماء تتكرر في الموصل. زكريا يسمي ابنه يحيى وبعدها يحيى يسمي ابنه زكريا. يونس يسمي ابنه ذنون وذنون يسمي ابنه يونس. وليد يسمي ابنه خالد وخالد يسمي ابنه وليد، وهكذا.

تخيلت الأسماء في المدينة مثل دوائر متداخلة تحيط بسكان المدينة وتلتهمهم بالتدريج كثقب أسود لا يمكنهم الخلاص منه. هل لا أزال تحت تأثير عسر التكيف؟ كيف يمكن للأسماء أن تفعل ذلك؟

- ماذا أراد منك؟ ابن زكريا.

أصبح اسمه ابن زكريا الآن. وحده الله يعلم ماذا يعني هذا.

- لا شيءَ محدد. عرض مساعدته، ودعاني إلى تناول الغداء عندهم يوم الجمعة.

- غدًا يعني؟
- نعم. قال إن هناك سيدةً تريد أن تراني.
- سيدة؟ من هي؟
- أعتقد قال إن اسمها الحاجة عادلة، لست متأكدًا.

هنا جاء صمت أمي العالي. هذه المرة كان صمتها مثل إنذار بالخطر.

- تعرفينها؟

استمر الصمت عاليًا متوترًا. ثم جاء صوتها، يحمل توترًا أكثر من المعتاد منها.

- صدق والدك، الله يرحمه.
- ماذا قال؟
- قال إن (عدلة) ستجلس في عزاء الجميع.

قالت عدلة، وليس عادلة. بالضبط كما لفظها يحيى، الذي أصبح اسمه ابن زكريا.

- ماذا يعني هذا؟ إنها تجامل الجميع؟
- لا. يعني أن الكل سيموتون، وهي ستبقى على قيد الحياة. تفاجأت بذكرك اسمها الآن، لم أعتقد قط أنها لا تزال حيةً، لا بد أنها تجاوزت التسعين منذ سنوات الآن.
- وهل هي عادلة فعلًا؟

طرحتُ السؤال وأنا أخمن الجواب بالنفي.

جاء الرد مفاجئًا: «إلى حد ما، نعم».

ثم استأنفت: «كانت زعيمة العصابة، لكنها كزعيمة عصابةٍ تُعتبَر عادلةً».

تذكرت مارلون براندو في العراب فورًا.

- لا تتوقع أن تكون دعوتهم ودية على الإطلاق، لا بد أن هناك شيئًا وراءها.

مثل أمامي العراب دون كورليوني وهو يقول: «سأقدم له عرضًا لا يمكنه أن يرفضه».

هل ستقدم لي هذه العرابة عرضًا لا يمكنني رفضه؟ تخيلت سيدةً طاعنةً في السن تقول لي هذه الجملة في خلفية من فيلم العراب.

هل لا أزال تحت تأثير الكحول الذي تناولته في الطائرة من نيويورك إلى بروكسل ومن بروكسل إلى أربيل. فسيولوجيًّا هذا مستحيل. لست طبيبًا، لكني شربت من الكحول ما يكفي لأعرف أن هذا لا يحدث. لم أسرف في الشرب في الرحلة أصلًا إلى هذه الدرجة.

كما لو كنت أحتاج إلى المزيد، قالت لي أمي: «لا أعرف ماذا فعل الزمن بعدلة، لكنها كانت ناعمةً وحادةً...».

صمتت كما لو لتزيد التوتر. أحيانًا أفكر أنها كانت يجب أن تكون مخرجةً سينمائيةً وليس طبيبةَ تحليلات مرضية.

ثم أكملت: «مثل شيفرة سكين».

شكرًا جزيلًا أمي العزيزة، هذه هي البشارة التي أحتاج إليها في هذا اليوم تحديدًا. كان عليَّ أن أتوقع هذا الموقف منها: لم تكن متحمسةً لموضوع قدومي إلى الموصل، لكنها لم تكن ضده، أو هكذا ظننت. الآن أعرف أنها كانت أقرب إلى أن تكون ضده.

فكرت أن أسألها إن كان سكين عدلة قد ساهم في جروحها، ثم تراجعت. كنت أعرف الجواب. كانت هناك سكاكين كثيرة، ربما كان هذا واحدًا منها.

- هل هناك شيء معين عليَّ أن أحذر منه؟

- نعم، انتبه جدًّا منهم. لا أعرف ماذا يريدون منك، ولكنهم يريدون شيئًا بالتأكيد، ولا تأكل كثيرًا، غالبًا سيقتلونك بكمية الأكل التي سيجبرونك عليها.

فات الأوان يا أمي. أعتقد أني زدت كيلوجرامًا على الأقل عن كل يوم قضيته هنا. كميات مهولة من الطعام في كل وجبة. كنت قد سمعت أن من صفات أهل الموصل الحرص المبالغ به. لم ألمس ذلك في أمي أو أبي، أو أني تشربته تمامًا فلم أعتبره شيئًا غريبًا أو مبالغًا فيه، لكن الأمر كان يطفو على السطح بين الحين والآخر، غالبًا على شكل نكتة أو تعليق عابر.

توقعت أن يكون أهل الموصل قد سمعوا عن ذلك أيضًا، وكانوا يتوقعون أني سمعت عنه أيضًا، فكانوا يحاولون نفي ذلك عبر كل تلك الولائم في ثلاث وجباتٍ تحتاج في كل واحدة منها إلى قضاء ساعتين على الأقل في النادي الرياضي لتفادي آثارها. هل يكون ما أعانيه بسبب كمية الأكل هذه؟ المشكلة أنه كان لذيذًا أيضًا. سمعت عن المطبخ الموصلي، ذقت منه القليل لأن أمي عمومًا كانت ضد الطبخ، وخصوصًا ضد المطبخ الموصلي. لا أشك أنها أحبته وربما أتقنته يومًا ما، لكن سكاكين الموصل وما فعلته بها جعلتها تترك كل شيء: الطبخ واللهجة والعادات، كل شيء.

تحت رذاذ الماء الساخن كنت أحاول أن أستعد لليوم الذي عليَّ أن أواجهه.

اليوم عليَّ أن أقدم عرضًا بالشرائح للتصميم المعماري الذي جهزته بشكل رئيسيٍّ لإعادة إعمار مسجد النبي يونس الذي فجرته داعش، بالإضافة إلى تصاميم أخرى لإعادة تخطيط المدينة. المشروع الذي قادني إلى هذه الرحلة التي لا أستطيع أن أحدد مشاعري تجاهها حتى الآن. سيكون هناك -حسبما قيل لي- المحافظ ونائبه وكل أعضاء مجلس

المحافظة وضباط جيش وفصائل مسلحة وشرطة لا أعرف علاقتهم بالأمر وممثلون عن منظمات المجتمع المدني وإعلاميون. عليَّ أن أواجههم جميعًا وأواجه نظراتهم التي كنت قد رأيتها في عيون الجميع منذ أن وصلت إلى الموصل. من السائق الذي استقبلني من مطار أربيل وأوصلني إلى الفندق إلى موظف الاستعلامات إلى نائب المحافظ إلى ابن عمي الذي يتعامل معي على نحوٍ غاية في الرسمية. الكل كان يتعامل معي باحترام وتهذيب، لكنني كنت أقرأ في عيونهم جميعًا نظرةً واحدةً، نظرة تقول لي إنهم يعرفون كل شيء عن تاريخ أمي وأبي ربما أكثر مما أعرف، وإنهم يحتقرونني بسببه. نظرة تقول لي، دون كلمات: «أنت إذن؟».

أحاول أن أقنع نفسي أني ربما أصبت بهوس الارتياب بحيث أصبحت أترجم نظرات الجميع هكذا، لكن هذا الاحتمال يزيد من قلقي.

ما حدث أمس كان يجب أن يزيد من قلقي وارتيابي بلا شك. كانت لديَّ شكوكي الخاصة بسبب الدعاية التي قدمتها الشركة على وسائل الإعلام. كان بعض ما قيل في الحملة الدعائية كذبًا تمامًا. لم أرتح لذلك، حاولت أن أنوه لذلك أكثر من مرة، دون أن يحدث أي تغيير في المنشورات التي روجت للمشروع على وسائل التواصل الاجتماعي. أمس تحديدًا، قرابة السادسة مساءً، جاء شخص كنت قد رأيته سابقًا أكثر من مرة ويبدو أنه شخص مقرب أو مساعد لصاحب شركة مقاولات (الحوت الأزرق) الهندسية التي تحاول تنفيذ مشروع إعادة الإعمار. أعطاني الشخص (عصا ذاكرة – سعة 16 جيجا) وقال إن فيها عدة شرائح يجب إضافتها للعرض الذي سأقدمه.

عندما سألته عن هذه الشرائح قال بغموض إنها أوامر من (فوق) وإن ما فيها مهم للغاية لضمان تنفيذ المشروع برمته.

فتحت الملف عندما رجعت إلى غرفتي. كانت هناك شرائح تتضمن شكرًا لمجموعة من المسؤولين على رعايتهم (الكريمة) واهتمامهم بإعمار مدينة الموصل. مجاملات لا مشكلة فيها بالنسبة إليَّ. لكن كانت هناك أربع شرائح مختلفة، مقلقة جدًّا. شرائح فيها مخططات لمجمعٍ سكنيٍّ فاخر مطل على نهر دجلة. عشرون عمارة كل منها تتكون من عشرين طابقًا، مع مركز تجاريٍّ ومركز طبيٍّ وخدمات أخرى.

تصميم العمارات كان بالغ البشاعة، من أبشع ما رأيت في حياتي تقريبًا، إن لم تكن الأبشع فعلًا. غابة أسمنت قاتمة وباعثة على الاكتئاب. الفائدة الوحيدة لارتفاع العمارات هي أن تساعد في انتحار القاطنين فيها.

اتصلت فورًا بصاحب الشركة. لم يرد عليَّ، لكن مساعده اتصل بعد دقائق.

أخبرته باختصار أن الشرائح التي تتضمن المشروع السكني غير مناسبة ولا روح فيها ولا تشبه شيئًا من التصاميم الأصلية التي قدمتها

قال لي شيئًا كان كفيلًا بأن يجعلني مقتنعًا بعدم جدوى النقاش أصلًا.

قال لي: «يا دكتور، هي عمارات من طوابق وأسمنت وحديد مسلح بالتأكيد لا روح فيها».

لم يكن هناك داعٍ للنقاش.

لكنه أكمل: «وبالنسبة إلى عدم تشابهها مع تصاميمك، يمكنك أن تضيف عليها من لمساتك وتصبح قريبةً إلى تصاميمك».

قال «تضيف عليها» كما لو كان يقول ضع مزيدًا من الملح والفلفل على طبخة فاشلة لكي تتحسن.

ثم أضاف: «هذا المشروع السكني أهم من أي شيء آخر يا دكتور. عليك أن تضعه كما هو في العرض غدًا. لا بأس ببضع لمسات فنية، المهم أن يكون هذا المجمع السكني متضمنًا في العرض يوم غد».

قالها بنبرة لم تعجبني. لم أحاول التوقف عندها لتفسيرها.

أردت أن أساله لمَ لمْ يتم طلب التصاميم مني منذ بداية المشروع، لكن كان من الواضح أن الأمر من (فوق) وأنه لا فائدةَ الآن من أي جدل حول هذا الأمر.

لم أكن في وضع يسمح لي برفض الطلب.

حاولت إجراء بعض التعديلات: غيرت ألوان الواجهات وأضفت بعض الرموز المعمارية على مدخل المشروع. لا يزال كل شيء بشعًا، لكنه يمكن أن يكون شيئًا بشعًا اقترفته أنا وليس سواي.

سأقدم العرض كاملًا أمام الجميع، بالجزء الإضافي الذي أعتبره بشعًا. سأضع على وجهي قناع الرجل الذي لا يكترث لشيء، لا لنظراتهم ولا لآرائهم. الرجل الذي فاز عليهم جميعًا، وعاد ليعيد تصميم مدينتهم ليهم رغمًا عن أنوفهم ونظراتهم.

يحتاج وضع القناع إلى طن من القهوة وحبتيْ مهدئ على الأقل. قليل من الكحول كان سيساعد أيضًا، لكن لا بأس، هذا أمر متعذر الآن. لست مستعدًّا لتحميل نظراتهم معانٍ إضافية.

أغمضت عيني تحت رشاش الماء الساخن، وفجأةً تذكرت الحلم الذي يقظتني أليكسا منه:

كنت في ظلمة دامسةٍ لا أرى شيئًا حولي، لكنني أسمع بوضوح صوت أمواج بحر وصوت تنفس مرتفعٍ جدًّا.

يحيى

لا أحتمل هذا المتكبر الذي تحولت إلى سائق خاص له منذ اليوم
المشؤوم الذي جاء فيه إلى الموصل. مدَّعٍ ومتكبر ومتعجرف ومغرور
عاد إلى الموصل وهو يحمل ثأره القديم الذي نتج عن عناد أبيه وطيش
أمه، ويريد أن يعاقبنا جميعًا اليوم عليه. العار الناقص، يحمل اسم
العائلة التي يريد أن يسبب لها المزيد من العار. لولا أوامر الحاجة عدلة
لبصقت في وجهه، لكنها تصر أن نحتويه ونحاصره ونكون معه في كل
مكان، الله أعلم ماذا في رأسها. أثق برأسها في العادة، أثق به بلا حدود
لكن موقفها اليوم من هذا المدعي غير مفهوم. تراها نسيت ما حدث من
والده؟ ليس غريبًا على من كان في مثل سنها، بل يبدأ ذلك قبل سنها
عادةً، في الرابعة والتسعين الآن، في الخامسة والتسعين تشرين القادم
في العادة يحدث ذلك قبل ذلك بكثير، لكني أخشى أن يكون الأمر قد بدأ
يفلت منها، أكثر من مجرد الذاكرة. أخشى أن تكون قد دخلت مرحلة
الخرف.

مجرد الفكرة ترعبني. الحاجة عدلة تصاب بالخرف؟

لم تكن هذه أول مرة تأتيني هذه الفكرة. في أثناء سيطرة داعش
على الموصل تصرفت أحيانًا بشكل غريب وغير مفهوم، خصوصًا عندما
اختفى عمي ناثر، بقيت لفترة طويلة ترفض مقابلة أي أحد، بل إنها
أمرت ألا يدخل أي رجل البيت الكبير لفترة تجاوزت الأسبوعين، حتى

أنا، ذراعها اليمنى والمفضل رسميًّا بين الجميع، بل ربما بالذات أنا كان ممنوعًا عليَّ أن أدخل البيت الكبير.

لم أفهم الأمر، كما لا أفهم الآن ماذا تريد من هذا العميل المتعجرف.

بعد اختفاء عمي ناثر، لم تقتنع داعش أنه اختفى واعتبرت أنه هرب من الموصل، وصادرت البيت الكبير كما كانت تفعل مع كل من يهرب من دولة الخلافة المشؤومة. خرجت الحاجة من البيت وتدهورت صحتها كثيرًا، وبدا أنها ستودع الحياة. خيل لي أنها حزنت على البيت أكثر من حزنها على عمي ناثر، أو هكذا كان واضحًا للجميع، كما كان واضحًا أنها مصرة على أن أحد رجال داعش قد تخلص من عمي ناثر لكي يستولي على البيت لا أكثر.

مع بدء معارك تحرير الموصل من داعش، بعد قرابة ثلاث سنوات، ستردت الحاجة إرادة الحياة، سبحان الله! يحيي العظام وهي رميم؛ كنا نتناقش لنجد حلولًا لمشكلة مراسم وفاتها في أثناء القصف. لكن خلافًا لتوقعات الجميع، كما لو أن أصوات القصف قد ردت فيها الحياة، نهضت من سرير موتها لتلم شمل العائلة وتبثَّ في الجميع الصمود، تخطط لنجاة الجميع، تلقي الأوامر، تهيئ السرداب لكي يحوي الجميع، تقسم الوجبات لكي تكفي مدةً أطول. كانت أكثر حيويةً من الجميع، كما لو أن بدء معارك التحرير قد بث فيها الأمل. غالبًا كان الأمل في سترداد البيت الكبير هو الذي جعلها تنهض مما كانت فيه؛ لم تكن ريد أن تموت قبل أن تسترد البيت الكبير من داعش. من يومها وهي اعية وقوية. تنسى أحيانًا أيام الأسبوع أو الأشهر أو إن كانت قد تناولت ويتها أو وجبة طعامها، لكن ليس أكثر من ذلك بكثير. يحدث هذا حتى ع من هم أصغر منها بكثير، بل يحدث معي أحيانًا وأنا أصغر منها نصف قرن، فليس غريبًا أن يحدث معها.

لكن منذ أن عرفت أن المدعي السخيف ثقيل الدم قد فاز في مسابقة لإعادة تصميم المدينة ومبانيها الأثرية، وهي تفكر بطريقة تبدو لي غريبةً وغير مفهومة. بدا لي كما لو أنها نسيت ماذا حدث في العائلة وما تسبب به أبوه من مشكلات بعدما تزوج بأمه. فجأةً أصبحت تفخر بفوزه أمام الجميع: (لحمنا ودمنا) العبقري المعماري الذي لديه شهادات من أهم جامعة في العالم. لم تكن تعلم أصلًا أنه معماري، ولا أعتقد أنها كانت مهتمةً في يوم ما أن تعرف ماذا أصبح منذ أن فعل والده ما فعل وقاطع الجميع في الثمانينيات. لكن فجأةً، اسمه في الأخبار المحلية وعلى مواقع التواصل. صهيب آل يونس، معماريٌّ أمريكيٌّ من أصل عراقيٍّ يفوز من بين أكثر من مئة متقدم بمشروع معماريٍّ لإعادة تصميم المدينة كجزء من حملة إعادة الإعمار التي تتنافس عليها شركات هندسية عملاقة في العالم، ونعرف جميعًا كيف يحدث التنافس ولصالح من.

أصبحت تتجول في المواقع التي تناولت الخبر وتطلب الترجمة لو كان الموقع أجنبيًا. تدخل إلى صفحات صهيب الأكاديمية لتعرف المزيد عنه، بل وأصبحت تقرب نظارتها من صورته على شاشة هاتفها وتقول: «كوي[1]، فيه شبه قوي من يونس باشا». لم يحدث ذلك من قبل على حد علمي. يونس باشا، والدها، كان خطًّا أحمرَ، لا يمكن المساس به بالتشبيه ولو تلميحًا. كلنا كنا نشبهه في جبهته العريضة وأنفه الطويل، لكن لا، «*إشجاب الزيت عالزيتون، إشجاب العبدي عالخاتون*»[2]. ثم تتغزل بجمال والدها يونس باشا ومواقفه وأوسمته ونياشينه. لا أحد

(1) كوي: كلمة تأكيد باللهجة الموصلية.

(2) مثل موصلي يعني الفرق كبير بين المشبه والمشبه به.

يقترب منه؛ خط أحمر محاط بأسلاك شائكة وعشرة حقول ألغام على الأقل.

فجأةً أصبح صهيب «فيه شبه من يونس باشا». لحمنا ودمنا ورفعة رأسنا، بعد أن فعل والده ما جعل رؤوسنا جميعًا تنتكس.

وأصبح عليَّ أن أكون مرافقه في كل مكان، وسائقه الخاص الذي ينتقل به من مكان إلى آخر. مجلس المحافظة والشركة الهندسية التي تحاول أن تلتهم كعكة إعادة الإعمار وفرت له كل شيء. لكن لا، أوامر الحاجة عدلة. عليه أن يعرف أن له أهلًا في الموصل. الآن يا حاجة؟ ماذا كان كل ذلك إذن؟ أشعلتم الحرب العالمية الثالثة على نطاق عائليٍّ مع والده، والآن عليَّ أن أكون مرافقه الشخصي لكي أصلح ذلك.

لا أطيقه، ولا أدري لماذا يقولون إن الأجانب دقيقون في مواعيدهم! هذا المزيف على الأقل لم يأخذ ذلك منهم رغم أنه وُلِد وكبر ونشأ وتعلم هناك، وتخرج في جامعة تقول الحاجة عدلة إنها أفضل جامعة في العالم، إلا أنه لم يحدث أن نزل ليقابلني في موعده قط؛ يتأخر على الأقل عشر دقائق. على الأقل. ويأتي كأنه لم ينم لحظةً واحدةً، ولا يعتذر عن تأخره. مزيف، كل ما فيه مزيف. عليَّ أن أقيس ضغطي كل يوم بعد أن التقيه. سأصاب بأمراض مزمنة بسببه.

نزل هذه المرة في موعده تقريبًا، على غير عادته. ابتسم في وجهي على غير عادته أيضًا، وقال صباح الخير، واضحةً، على غير عادته.

بدا لي أكثر نشاطًا وحيويةً من أي يوم آخر. ألا يفترض أن يكون قلقًا اليوم تحديدًا؟ لعله يمثل فحسب.

صافحني وسألني فورًا: «هناك مربى لذيذة جدًّا في بوفيه الإفطار، هل تعرف ما هي؟».

- ما لونها؟

- حمراء. لكنها حتمًا ليست فراولةً؛ ألذ بكثير.

أضفت صفةً جديدةً إلى صفاته، التفاهة. كان بإمكانه أن يسأل النادل في المطعم.

- لا بد أنها السفرجل.

- السفرجل؟ لم أسمع به من قبل. ما اسمه بالإنجليزية؟

- لا أعرف.

أخذ يبحث عن معنى الكلمة بالإنجليزية. عربيَّته ليست سيئةً عمومًا. في الحقيقة، عربيَّته أفضل بكثير مما توقعت بالنسبة إلى شخص وُلِد وعاش طيلة حياته في الغرب، بل أفضل حتى من بعض شباب الجيل الجديد الذين يرطنون وهم لم يخرجوا من الموصل يومًا، اللهم إلا أيامًا في أربيل.

- كوينس. السفرجل بالإنجليزية كوينس.

فكرت: «مستعد أن أجلب لك طنًّا من مربى السفرجل وأشحنه على حسابي إلى الولايات المتحدة. فقط اغرب عن وجوهنا».

ثم فكرت مجددًا: «طن؟ هذا تبذير لا داعيَ له».

قلت له، بدلًا من ذلك، إني سأجلب له (شوشة)[1] مربى سفرجل عندما يسافر بالسلامة.

قلت مع نفسي: «أو من دون سلامة. فقط سافر».

عندما جلسنا في السيارة ووضع حزام الأمان، التفت إليَّ وسألني:

«هل انت ابن عمي زكريا؟».

---

(1) شوشة: برطمان زجاجيٌّ تُحفَظ فيه المربى أو العسل.

كنت قد أخبرته بذلك في أول لقاء، أنا واثق تمامًا من ذلك. لكنه على ما يبدو أكثر تكبرًا من أن ينتبه أصلًا لما يقول الآخرون في هذه المدينة التي يريد أن يعيد تخطيطها وفقًا لأجندات الشركات الأجنبية وحيتان غسيل الأموال.

- نعم، أنا ابن عمك زكريا.
- واو! نحن إذن أبناء عمٍّ من النوع الأول.

كان يترجم من الإنجليزية طبعًا. أبناء عم من النوع الأول، يا للغباء! تمنيت أن يتكلم بالطريقة نفسها مع الحاجة غدًا: «واو! وجدة من النوع الثاني أو الثالث»، لعل سخافته تفيقها من أوهامها وإعجابها به أو من مشاعر ذنبها تجاه والده، لو كان الأمر أصلًا له علاقة بكل ذلك. أسماء قالت لي اليوم قبل أن أخرج إن الحاجة عدلة لديها حتمًا مصلحة وهدف فيما تفعله. غالبًا يتعلق الأمر -حسب ما قالت أسماء إنه اعتقادها- بمحاولات الحاجة استعادة البيت الكبير الذي وضعت الحكومة يدها عليه بعد خروج داعش.

أسماء غالبًا تعتقد أشياءً كثيرةً لا علاقة لها بالواقع، لكن ربما كانت محقةً في هذا هذه المرة. لو كانت والدتها عمتي باكزة في صحتها كما في الماضي، لربما قلت إن الأمر تسريب من الحاجة لباكزة، قامت الأخيرة بنقله إلى أسماء. لكن صحة عمتي لم تعد كما كانت، ولم تعد تقضي وقتها مع الحاجة عدلة كما كانت تفعل.

حتى لو كان هذا صحيحًا، فالحاجة عدلة مخطئة في تقييمها. هذا لمدعي مهما طبَّلت له المواقع الإعلامية التابعة للحكومة وصفحات التواصل لتي سارت على منهج التطبيل نفسه، فسيبقى مجرد واجهة لشركة تطمح لى أن تفوز بالحصة الأكبر من كعكة إعادة الإعمار، ولن تكون له أي كلمة ي موضوع البيت الكبير الذي تتنافس عليه أكثر من جهة.

- هل عمي زكريا، والدك، لا يزال حيًّا؟
- لا، أبي توفي في الثمانينيات. استشهد في الحرب. كان عمري أقل من سنة. عمومًا، رجال آل يونس لا يعيشون طويلًا، على عكس نسائهم.
- صحيح، استشهد، تذكرت ذلك. رحمه الله. إذن توفي كل أعمامي؟
- عمتك باكزة هي الوحيدة على قيد الحياة، عمتك الأخرى عالية توفيت. أعمامك كانوا ثلاثة، واحد منهم والدك، الاثنان الآخران توفيا. آخرهما كان عمي الدكتور ناثر، توفي في أثناء فترة داعش، أو اختفى بالأحرى. غالبًا قتلته داعش.
- ماذا تقصد؟ لم يُعثَر على جثته؟

لم أكن أريد أن أتحدث عن هذا.

- لا، أبدًا. غالبًا رموه في الخسفة.
- الخسفة؟
- حفرة عملاقة جنوب الموصل، عميقة جدًّا، كان الدواعش يرمون الجثث فيها.
- كانوا يرمون الجثث فيها فحسب؟ دون ردم؟
- دون أي شيء. فقط في النهاية حاولوا إلقاء سيارات فيها، لكن بقيت كما هي.
- كم العدد الذي نتحدث عنه؟ مئة؟ مئتان؟

مئة ومئتان؟ ابن عمي نسخة أمريكية مذكَّرة من ماري أنطوانيت.

- داعش اعترفت بـ 2070 فقط. وضعت أسماءهم على جدران الطب العدلي، ولا نعرف أين دُفنوا بالضبط، لكن الرقم الحقيقي أكثر من ذلك بكثير.

- كم تقريبًا؟
- قد يصل الرقم إلى 25 ألفًا.
- رباه! أعرف أن داعش ارتكبت فظائعَ، ولكن لم أسمع بهذا من قبل.

أردت أن أقول له إن من يمثلهم لا يريدون أن يبرزوا هذه الأحداث لكي يبقى أهل الموصل في قفص اتهام أنهم ناصروا داعش، ثم تذكرت أن أهل الموصل أنفسهم لا يتحدثون عن الأمر كما يجب؛ عزة نفسهم تمنعهم من الظهور بمظهر الضحية المظلومة، حتى لو كان هذا المظهر حقيقةً.

- وكيف عرفتم أن عمي ناثر ضمن هؤلاء؟
- لم نعرف، لكن هذا هو التفسير الوحيد لما حدث؛ عمك الدكتور ناثر اختفى فجأةً. سألنا عنه في كل مكان ولم نعثر على أي أثر له. داعش اعتبرت أنه فر من الموصل، واستولت على البيت الكبير بحجة ذلك. غالبًا تخلصوا منه للاستيلاء على البيت الكبير؛ قتلوه وألقوا به في الخسفة.

هنا فعل المدعي شيئًا لم يكن متوقَّعًا قط بالنسبة إليَّ: مد يده وربت كتفي كما لو كان يواسيني.

- أنا آسف جدًّا، لا بد أن هذا كله كان مؤلمًا لكم.

للمرة الأولى شعرت أنه ربما يكون هناك إنسان خلف هذا القناع المتصلب السخيف، إنسان يشعر بالأسف والألم.

نظرت إلى يده على كتفي كما لو كنت أنظر إلى حشرة غريبة حطت على كتفي. لم أستطع أن أحدد شعوري تجاه تلك اليد، لكني أعرف أني لم أشعر بالأسف على عمي ناثر، لا وقت اختفائه ولا الآن.

مهند

كما لو كان ينقص شعب الله المختار أن يتخرج أحدهم في هارفرد.

هذا ما فكرت فيه عندما عرفت تفاصيل هوية الفائز في المسابقة المزعومة لإعادة أعمار وتصميم الموصل، المسابقة التي لم نسمع بها ولم نعرف لجنة تحكيمها ولا المتنافسين فيها. فجأةً، كما لو بالمظلة، هبطت علينا المسابقة والفائز فيها.

كما لو لم يكن يكفي أهل الموصل كل غرورهم وتكبرهم وشعورهم بأنهم الأفضل من كل بني البشر لكي يذكرهم أحد بأن من سيعيد تصميم المدينة هو عبقريٌّ أصله من الموصل وتخرج في أهم جامعة في العالم وسبق له أن فاز بجوائزَ دولية.

بالنسبة إلى كثيرٍ منهم، الأمر تجاوز أنهم شعب الله المختار، وأنها مدينة الأنبياء وفيها قبور أربعة منهم. واحد منهم لا يوجد دليل على أنه نبيٌّ في الأساس. بالنسبة إلى البعض منهم على الأقل، سيدنا آدم شخصيًّا كان من الموصل. كل بقية سكان العالم من غير (المواصلة)[1] هم من فصيلة (أشباه البشر) في أحسن أحوالهم.

---

(1) المواصلة: أهل الموصل أو الموصليون، بلهجة أهل المدينة.

سكن والدي في الموصل منذ الخمسينيات قادمًا مع جدي وبقية أعمامي من الشرقاط[1]. درس وتعلم في كلية الزراعة وتخرج في أول دفعة فيها، قبل أن تتأسس جامعة الموصل أصلًا. عمل في مؤسساتها الحكومية، سكن وتزوج فيها، ووُلِدت وإخوتي فيها. كبرنا فيها، لكننا لن نصبح أبدًا من أهل الموصل، أبدًا. لن يقبلونا؛ نحن من خارج الموصل، من الريف، من أهل الجرية[2]. مهما بذلنا من الجهد، لا شيءَ سيتغير. الموصل ليست ناديًا يمكنك الانتساب إليه عبر تقديم طلب ودفع رسوم العضوية، الموصل نسب تولد به عبر أجدادك وينتهي الأمر. قرابة ستين عامًا مضت على سكننا الموصل، لكننا لم ولن نصبح من أهل الموصل، سنبقى غرباء عن المدينة، تفصل بيننا وبين أهلها جدران منيعة مبنية من أوهامهم بأنهم أفضل منا، وأفضل من الجميع أيضًا. لديهم رؤية معينة تجعل كل ما يحدث في المدينة من مشكلات يفسَّر بأنها بسبب الدخلاء والغرباء. الدخلاء والغرباء ليسوا أولئك الذين جاؤوها قبل سنوات، بل الذين جاؤوا قبل خمسين عامًا أو حتى أكثر بكثير.

في طفولتي المبكرة كنا نسكن في حي الزهور، لم ألاحظ وجود أي مشكلة عندما كنت ألعب مع بقية الأطفال في الشارع. لكن عندما كبرت قليلًا، على عتبة المراهقة بدأت ألاحظ أن من كان يلعب معي في طفولتي أصبح يبتعد عني ويتجاهلني بالتدريج. كأطفال، كنا ننتمي إلى عالم واحد، لكن بالتدريج بدأت تنمو الأسوار بيننا. فقط تحية وسلام لا أكثر. من كان صديقًا، يصبح مجرد معرفة. لم يكن من الصعب أن أفهم

---

(1) قضاء الشرقاط جنوب الموصل، يتبع محافظة صلاح الدين حاليًّا.

(2) الجرية: القرية.

السبب؛ هذه الأمور ولأنها تحدث بالتدريج فإنها تفرز الوعي بأسبابها بالتدريج أيضًا. هؤلاء كانوا (قحيُّون)[1]، ونحن كنا من (الجرية).

عندما انتقلنا إلى حي المعلمين، كانت الأمور أوضح: هناك بيوت تتجاهلنا وأخرى ترحب بنا، وفهمت أننا ننتمي إلى عالمين مختلفين، حتى لو كنا جيرانًا الحائط في الحائط. لم أحاول تجاوز تلك الجدران التي تقوم مقام الأسوار من أيام الدولة العثمانية. تكبر المدينة، تزول الأسوار، تنشأ أحياء جديدة خارج خطوط طول وعرض السور الأصلي، لكن الأسوار تبقى عميقةً راسخةً في الرؤوس تفصل بيننا وبينهم، نحن وهم، نحن وأنتم، نتبادل الاتهامات والتوصيفات. حتى لو لم نقلها، موجودة دون حاجة إلى الأبجدية المنطوقة. يتمسك كل طرف باختلافات اللهجة والمفردات والعادات وطريقة الطبخ وتناول الطعام ليثبت هويته، كما لو أن الهدف هو عناد الطرف الآخر. الطرف الآخر الذي قد يكون الجار في المدينة التي تضم في جنباتها مدينتين. قصة الموصل هي (قصة مدينتين) في مدينة واحدة.

لم أحاول أن أتجاوز تلك الجدران؟

بلى حاولت. كنت مراهقًا غبيًّا، وقعت في حب فتاة من أهل المدينة في سنتي الجامعية الأولى. كانت بيضاءَ ناصعةَ البياض كثلج على قمة جبل لم تدنسه قدم إنسان. هكذا كنت أكتب في يومياتي الغبية، رغم أني لم أرَ ثلجًا كهذا إلا في التلفزيون. لم تكن بيضاءَ فقط، بل كانت ساحرةً أيضًا؛ عينان عسليتان واسعتان، والخصلة التي برزت ذات يوم من تحت حجابها أخبرتني أن شعرها بني اللون، وجعلتني أحلم لليالٍ بمروج بنية اللون، بين سحر القهوة وعبق الشاي. هذا ما كتبته أيضًا في يومياتي الغبية.

---

(1) قحيون: أصليون.

حاولت أن أتقرب بالطرق المعتادة: سؤال عن جدول المحاضرات، مكان القاعة، المحاضرة السابقة؛ كانت ردودها دومًا مهذبةً ومتحفظةً. وكنت أطرح كل أسئلتي بلهجة أهل المدينة (القحيَّة[1])، القاف واضحة ليس فيها شيء من لهجة (الجرية)، والراء تصبح غينًا كما ينبغي أن يتحدث أي موصليٍّ أصيل.

كان عندي أمل كأي مراهق غبي، وكنت أنام كل ليلة وأنا أحلم بجداول العسل والحليب.

ثم فجأةً، التفتُّ إليها وهي مع صديقاتها بعد ثوانٍ من سؤالي المعتاد عن مكان المحاضرة، ولمحت نظرةً متبادلةً بينها وبين صديقاتها. نظرة ساخرة، متحفظة نعم، ولكن ساخرة بما يكفي لتجرحني كما لو كانت قهقهةً فاجرةً. قالت لي تلك النظرة الساخرة: «من أنت كي تفكر فيما تفكر فيه أصلًا؟».

كنت مراهقًا غبيًّا لكي أفكر في ذلك أصلًا. تعذبت لأسابيع ألوم نفسي على غبائي وعلى تجاهلي للأسوار التي أعرف أني وُلدت على الجهة الأخرى منها. لكن خرجت من تلك الأسابيع وأنا مصمم على ألا أحاول اختراق السور مجددًا؛ ودعت لهجة القاف وقلب الراء غينًا إلى الأبد، نسيت كل تلك الحادثة بآلامها ووضعتها في صندوق أسود أضعت مفتاحه. درس تعلمته مبكرًا من تلك الفتاة، إنعام الجمَّال. لم أنسها قط، ولكن ليس كفتاة حلمت بها وتحطم قلبي على الأسوار الفاصلة بين عالمينا، بل كواقع لن يتغير وعليَّ أن أتعايش معه.

رغم كل ذلك، لم أكن أكره أهل الموصل، كنت أكره رفضهم لنا. أكره بعض صفاتهم، لكنني أحترم أيضًا صفات أخرى فيهم: جديون، جادون

(1) القحيَّة: الأصلية، غير الهجينة، من كلمة (قح) التي تعني الأصيل الخالص.

في العمل، يحسبون حساب كل شيء، حريصون ومتقنون في العمل. أشياء كثيرة أتمنى لو كنت قد رضعتها منذ طفولتي كما رضعوها هم.

عندما حدث في الموصل ما حدث بين 2014 و2017، سنوات الدواعش وتحرير الموصل منهم، فصلت تمامًا بين مشاعري تجاه المدينة ومشاعري تجاه من يعتقدون أنهم يحتكرونها. الموصل لي كما هي لهم، وربما لي أكثر مما لهم. وأنا الآن أبذل كل ما بوسعي للمساعدة بإعادة إعمارها، ربما كما يفعلون وأكثر. الموصل مدينتي وأنا أنتمي إليها كما ينتمون، بل أكثر، لأنهم ينتمون إلى مدينة لم تعد موجودةً إلا في خيالهم، أما أنا فأنتمي إلى الموصل الحقيقية، الموصل التي تتغير سواء أعجبهم ذلك أم لم يعجبهم.

رغم ذلك لم أستطع إلا أن أشعر بنوع من الشماتة عندما سمعت الخليفة الدجال يعلن من على منبر جامع النوري الكبير أن دولة الخلافة المزعومة ستكون لكل المسلمين من كل الأقطار والأمصار. شمتُّ بهم. لم يعجبكم عرب القرى والنواحي المجاورة وتكبرتم عليهم؟ اشبعوا الآن بالقادمين من قرى أفغانستان والشيشان ودول لم نسمع بها من قبل. دفعنا جميعًا الثمن في كل الأحوال؛ من تكبر ومن لم يتكبر.

عندما ذاع خبر فوز صهيب آل يونس في مسابقة تصميم إعادة إعمار بعض معالم الموصل، ورأيت الهياج الفخور الذي ساد بين المواصلة على مواقع التواصل، شعرت بالغيرة وتمنيت لو أن أي أحد آخر قد فاز فيها. ليس بالضرورة أن يكون من الشرقاط أو القيارة أو أن يكون (جرويًّا)، أي أحد آخر من غير أهل الموصل، حتى لو لم يكن عراقيًّا في الأساس، فقط لكي يكسر شعورهم المستفز بالفرح فقط لأن من سيصمم المدينة كان منهم. فرحوا قبل أن يعرفوا أي شيء عن التصميم أو تفاصيله، فقط

لأنه ينتمي نسبًا إلى واحدة من عوائل الموصل القديمة، حتى لو لم يزرها يومًا في حياته.

وآل يونس تحديدًا، كانوا من تلك العائلات التي تعتبر أنها ليست فقط من شعب الله المختار، بل كانوا يعتبرون أنهم (العائلة المختارة) من بين شعب الله المختار. كان هناك أحد أبنائهم في الجامعة معي، في كلية أخرى، يصغرني ببضعة أعوام، يحيى آل يونس. تكبره كان يتخطى كل الكليات والأقسام في الجامعة؛ لم يكن يتحدث إلا مع ثلاثة أشخاص فقط ينتمون إلى الطبقة نفسها من عوائل الموصل القديمة. لم يكن (لا يتحدث) مع الآخرين فحسب، بل كان لا يلقي عليهم التحية أصلًا عندما يمر من أمامهم. لا (سلام عليكم)، لا (صباح الخير)، لا شيء، كما لو أنه لا يراهم. بل كان بالفعل لا يراهم. هذا السلوك كان أكثر انتشارًا بين فتيات الجامعة اللواتي ينتمين إلى العوائل الموصلية القديمة، واحدة منهن، أيضًا من آل يونس، كانت في دفعتي: السلام والكلام فقط مع بنات أهل الموصل الأصليين، والآخرون أشباح لا تراهم.

الشباب من هذه العائلات عمومًا كانوا يلقون التحية على الأقل، لكن لا يقيمون علاقات صداقة أو يقوون علاقاتهم إلا مع عوائل الموصل القديمة. أما يحيى آل يونس، فقد أعاد الموضوع إلى خانة (عدم إلقاء السلام). خانة التجاهل التام لأي شخص قادم من خارج الأسوار التي لم يعد لها وجود إلا في أذهانهم.

تمسك أغلب أفراد آل يونس بهذا التكبر والنظرة الفوقية عبر قرون على ما يبدو.

أحدهم، قبل قرنين على الأقل -وربما أكثر- كذب كذبة أنهم من نسل النبي يونس، وصدقوها جميعًا باقتناع تام لا مجال فيه للتراجع أو الشك. وتظاهر أغلب الناس بأخذها على محمل الجد لأن أحد وجهاء

الأسرة كان ثريًّا وكان له دور في توزيع المؤونة على الناس وقت حصار نادر شاه، وقد أنفق بكرم على هذه الكذبة أيضًا. وبعد بضعة عقود، أصبحت الكذبة حقيقةً يتعامل معها الناس باحترام. ولأن آل يونس صدقوا كذبتهم جدًّا، فقد نتج عن هذا إيمانهم بأنهم فوق الجميع؛ هم من نسل الأنبياء. وليس أي نبي، بل النبي يونس تحديدًا. النبي الذي دخلت المدينة معه التاريخ وذُكرت في القرآن الكريم. القرية التي نفعها إيمانها. نسبهم إلى النبي يونس هراء لا معنى له ولا قيمة تاريخية له طبعًا. أحيانًا كنت أريد أن أكتب على صفحات الفيس بوك أن النبي يونس أصلًا كان من خارج أسوار الموصل وأنه جاء لينذر أهلها من مكان آخر، لكن طبعًا سيُعتبَر الكلام كفرًا وخروجًا عن الملة والإجماع وكل أسوار المدينة، لذا كنت أكتفي بأن أقول هذا مع نفسي كلما رأيت تكبر آل يونس وغطرستهم الواضحة في تعاملهم مع الناس.

عندما حدث ما حدث للدكتور ناثر آل يونس، أصيبت العائلة بهزة كبيرة لم تتعرض لها في تاريخها، على الأقل لم تتعرض لذلك علنًا. كانت لديهم مشكلات خاصة أخرى في العقود السابقة، لكن ما حدث للدكتور ناثر، ومن ثم استيلاء داعش على البيت الكبير، قصر آل يونس ومن ثم وضع الحكومة يدها عليه -كلها كانت مصائبَ كبيرةً تعرضت لها العائلة، كما لو أنها قد دخلت في العد التنازلي لأيام عزها، وأنها تمرغت في الوحل الذي كانت ترى أن كل من حولها قادم منه.

ثم جاء خبر صهيب آل يونس، كما لو كان صهيب هو مبعوث العناية الإلهية، ليس لإعادة تصميم وإعمار المدينة، بل لإنقاذ العائلة مما آلت إليه.

كرهته وكرهت تصميمه قبل أن أراه.

عندما رأيت صوره كرهته أكثر؛ كان يشبه آل يونس بالفعل: الجبهة الواسعة والأنف الذي وظيفته الأساسية التكبر على الناس أكثر من استنشاق الهواء، والأذنان البارزتان أكثر من المعتاد كما لو كانتا صحنين لالتقاط المحطات الفضائية.

كان ينقصنا في حملة إعادة إعمار الموصل أن يأتي متعجرف آخر ليصمم المدينة من جديد.

كنت آمل أن تكون إعادة الإعمار بمنزلة فتح لصفحة جديدة بين سكان الموصل، لكن صهيب آل يونس جاء ليذكرني بأن الأمر أصعب مما توقعت.

في اللحظة التي دخل فيها صهيب آل يونس القاعة، وهو يحمل حقيبة اللاب توب ويسير بين المحافظ ورجال حمايته، محاطًا برجال الأعمال الحيتان الذين يريدون قطعةً من كعكة إعادة الإعمار -شعرت أنه شخص مختلف عن الذي كونت صورته في ذهني. الجبهة والأنف والأذنان تحمل ختم آل يونس بالفعل، لكن ثمة شيئًا مختلفًا فيه. كان من الواضح عليه أنه يحاول أن يخفي ارتباكه بقناع من القوة والصلابة، لكن هذا القناع لم يستطع أن يخفي ارتباكه أو خجله.

فجأةً رأيته بشكل مختلف. حاولت أن ألغي فراستي هذه، وأركن إلى تصوري السابق المتحفز ضد أي تصميم سيقدمه، لكني لم أستطع منع نفسي من أن أتعاطف معه.

يبدو أنه لا يعرف حجم الحيتان حوله. كان مثل سمكة صغيرة، جاءت بها التيارات إلى عمق مزدحم بأسماك القرش والحيتان القاتلة.

سَفانة

في عالم آخر-لا وجود له- كان من المفترض أن أتزوج هذا الرجل الذي يقف أمام الجميع ليقدم تصميمه ومخططاته لإعادة إعمار المدينة.

لكن خالي نائل -رحمه الله وسامحه- أجهض هذا العالم وتزوج بفتاة من خارج كل المقاييس المقبولة، وانطفأ العالم الذي كان من المقرر فيه أن يتزوج أبناءُ وبنات نائل من بنات وأبناء شقيقته عالية، أمي.

كان القرار قد اتُّخِذ قبل أن نولد، بل قبل أن تتزوج والدتي ويتزوج خالي. كل شيء يجب أن يحسَم سابقًا في الخطة أ، ثم تكون هناك الخطة ب ببعض التعديلات، في حالة لم يتوافق عدد الذكور والإناث. الخطة ب تتضمن مساحةً للزواج من ثلاث عوائل موصلية يعتبرها آل يونس في مكانة تسمح لهم بالتزاوج منهم: آل شريف بك، آل زين الدين، آل المفتي

الذكور لديهم هامش أكبر في المناورة والزواج من عوائل أخرى حصرًا من عوائل الموصل القديمة. سابقًا، أيام العثمانيين، كان هذ الهامش يتضمن الزواج من عوائل حلبية محددة. لكن هذا الهامش تضاءل بالتدريج مع قيام الدولة الحديثة في العراق وسوريا، ومن ثد انقطع نهائيًّا مع سيطرة البعثيين على كلا البلدين.

أما الإناث، فلم تكن لديهن أصلًا الخطة ج؛ الخطة أ و ب فقط: لا صهر سيأتي من خارج تلك العوائل، ولا صهر سيأتي من حلب.

الفكرة الأساسية من الخطة أ والخطة ب لم تكن قائمةً على الوجاهة والمركز الاجتماعي فحسب كما قد يتصور كثيرون حتى الآن. الوجاهة موجودة ومطلوبة، ولكن بدأ الأمر من عدم الرغبة في انتقال الإرث إلى صهر غريب.

أهل القرى الذين نستنكف منهم لا يورثون البنات. هكذا كان أفراد عائلتي يتحدثون وهم يعددون مساوئ (العريبان[1]). نعم. وأنتم تورثونهن؟ بالتأكيد. ولكنكم قد تمنعونهن من الزواج إن لم يتوفر عريس مناسب من الخطة أ والخطة ب. في كل جيل كانت هناك عمة أو خالة أكثر تبقى خارج الزواج كي يبقى إرثها في العائلة، لأنه لم يكن لها عريس مقبول حسب المعايير العائلية، أي من العائلة نفسها حسب الخطة أ، أو من عوائل مكافئة حسب الخطة ب.

في جيلي كنت أنا المرشحة لأكون العمة العانس أو لأكون واحدةً منهن، لأن ما فعله خالي نائل أثر على حسابات الفرص والمقاعد المتاحة.

بعد شهر من ولادتي، أخبرت الحاجة عدلة أمي بالأمر. كانت قد وضعت كل الاحتمالات سابقًا؛ رسمت في ذهنها خريطةً لكل شيء، وكانت تأمل في أن آتي ذَكرًا لكي أكون فرصةً لبقية إناث العائلة اللائي لم يولدن بعد. لكني جئت أنثى، وعليَّ أن أجد فرصةً فيمن وُلد أصلًا من ذكور العائلة أو ذكور عوائل الخطة ب.

أخبرت الحاجة عدلة أمي أن بنتها التي عمرها شهر ليست لديها فرص في الزواج؛ أقرب ذكر أكبر مني بثماني سنوات، وهو فرق كبير بمقاييس العائلة. وحتى هذا الذكر، هناك بيني وبينه بضع إناث ضمن عوائل الخِطة ب.

«ثم إن ابنتك سمراء»، قالت الحاجة عدلة لأمي وهي تنظر إليَّ وأنا في المهد. مدة شهر كانت كافيةً بالنسبة إليها لتحدد ذلك، والسمراء عند

1) العرب من أصول ريفية أو قروية خارج الموصل.

أهل الموصل مشكلة. يقول المثل (قولي سمغا[1] وامدحي، وقولي بيضا واسكتي). السمراء تحتاج إلى مديح لكي تتزوج: ست بيت، شاطرة في الطبخ، مرتبة، متدينة، مرحة. كل أنواع المديح مفيدة لها لجلب النصيب. أما البيضاء فهي لا تحتاج إلى شيء من ذلك، فهي بيضاء، تحمل في بشرتها جواز المرور إلى قبول المجتمع الموصلي.

بعد أكثر من خمس وعشرين سنة، وفي أثناء مواجهة صريحة مع أمي، حكت لي أمي ذلك. قالت الحجة عدلة لها ما قالت لكي تجعلها تصرف نظري عن أمر الزواج منذ الطفولة: اجعليها تركز في الدراسة أو العمل، لا تجعليها تأمل كثيرًا في زواج وأطفال. وهكذا كان، كما لو أن غريزة الأنثى في داخلي ستموت فقط بمجرد عدم الحديث عن الزواج والأطفال. كان هذا تقدمًا في مفاهيم الأسرة على أي حال. العمة العانس في العصر الحديث لن تبقى في البيت لترعى أولاد إخوتها أو تتابع شؤون البيت، بل أصبح يمكنها أن تدرس وتتخرج، بل ويمكن أن تعمل في تخصصها. كانت حساباتهم خاطئةً؛ الدراسة والعمل سيأتيان في جعبة واحدة مع أشياءَ أخرى، أشياء لا يمكن أن تجعلني مثل العمات العوانس اللواتي استسلمن لمصيرهن بصمت. كنت قد أصبحت محاميةً أتابع الشؤون القانونية التي لا تنتهي للعائلة: إيجارات وعقارات وضرائب وقصص مماثلة، ثم أصبح لي مكتب للمحاماة يعمل فيه أكثر من خمسة محامين. هل كانوا يتوقعون أن أبقى راضخةً لقرارهم الذي اتخذوه عندما كان عمري شهرًا؟ هل كانوا يتوقعون أن التي درست وعملت ونجحت في عملها ستكون مثل (العمة العانس) التي ارتضت أن تدفن شبابها فقط لعدم توفر أماكن شاغرة في لعبة الكراسي الزوجية؟ لكني لم أخطئ خطأ خالي نائل. خالي نائل تمرد عليهم قبل أن يرث

(1) سمغا: سمراء باللهجة الموصلية.

والده، أما أنا فلم أفكر في ذلك أو أضعه في حساباتي إلا بعد أن توفيت والدتي بعد سنوات من وفاة والدي. وضعت الجميع أمام الأمر الواقع. الأمر الواقع الذي دفعت ثمنه خلال أشهر فقط، كما لو أن لعنة التمرد على آل يونس يمكن أن تظهر في أشكال مختلفة.

فقط لو أن خالي نائل لم يفعل ما فعله، لكان تغير مسار حياتي كله. كان ابنه صهيب قد وُلد قبلي بعامين. فرق مناسب يجعلني الأكثر حظًّا في الزواج به. لكن، عندما وُلدت، كان صهيب وكل ما يتعلق بوالده قد حُذِف تمامًا من احتمالات وخرائط الزواج في العائلة.

حضرت الجلسة، لا لكي أرى زوجي المفترض في العالم الآخر الذي لم يحدث، بل لكي أقابل المسؤولين الذين أتابع معهم مسألة البيت الكبير الذي وضعت الدولة يدها عليه منذ أن تم طرد داعش. نزاع كبير بين أطراف ثلاثة على البيت: نحن وهيئة الآثار وجمعية وقفية. بالنسبة إلى الأوقاف وهيئة الآثار، البيت الكبير كنز كبير يمكن أن يدر أموالًا طائلةً. أما بالنسبة إلينا، فالبيت الكبير هو رمز العائلة وهيبتها واسمها. قيمته النقدية قد تتجاوز عشرين مليون دولار، لكن قيمته الحقيقية لا يمكن أن تُحدَّد برقم.

عندما بدأ صهيب بعرض مخططه وتصاميمه وجدت نفسي أنتقل إلى عالم آخر. لم تكن لديَّ أي توقعات سابقة عن الأمر، بل لم أكن مهتمةً أصلًا بما سيعرض، لكن التصاميم جعلتني أنسى كل ما جئت لأجله. كل شيء في التصميم كان مستندًا على قصة النبي يونس، على خروجه من بطن الحوت. منارة المسجد صممت لكي تشبه الحوت وهو يلفظ النبي يونس كما لو أنه يصعد إلى السماء. تصميم المسجد نفسه بدا كما لو أنه حوت ضخم والمنارة تبدو كما لو أنها ماء متدفق من ظهره. أحد الجسور الجديدة التي صممها تشبه الحوت. مدخل المدينة الرئيسي من

طريق بغداد الموصل، صُمِّم على شكل حوت بحيث إن الداخل من تحته سيبدو كما لو أنه يولد من جديد بخروجه من بطن الحوت.

تأملت في صهيب. هل يقصد شيئًا من هذه المخططات التي قدمها؟ كيف يمكن لشخص لم يعش في الموصل يومًا واحدًا أن يفهم كل هذا الذي مررنا به؟ كيف يمكن له أن يفهم أننا بقينا في بطن الحوت لسنوات وأن البعض منا لا يزال في جوف الحوت غير قادر على الخروج منه؟ أم لم يكن كل هذا في خلده أصلًا؟ جعل تصميمه يرتكز على قصة النبي يونس فحسب وهو لا يدرك أي وتر يمس في نفوس أهل الموصل!

تأملت فيه مجددًا. تساءلت إن كان كل هذا التصميم المزدحم بقصة النبي يونس يرتبط بانتساب العائلة إلى النبي يونس! لم أكن أصدق الحكاية كلها، ولا أظن أن أحدًا من العائلة يأخذها بشكل جديٍّ بينه وبين نفسه، لكن في العلن، النسب ثابت وشجرة الأسرة تمتد إلى مرقص بن قرياقوس بن يونان بن متى. من يعرف من يكون مرقص هذا؟ لا أحد طبعًا. والشجرة الوثيقة عمرها لا يتجاوز مئتي سنة، كيف يمكن أن تكون لها مصداقية في توثيق نسب يعود إلى أكثر من 2800 سنة؟ لا شك أن أحد أجدادنا قد قام بتزوير الشجرة وهو مطمئن أن الناس سيصدقونها، أو حتى لو كانوا لا يصدقونها فسيتظاهرون بذلك. المكانة والوجاهة والكرم كلها مجتمعة يمكنها أن تُسكت الأفواه المعترضة أو المشككة. لا تسكتها فحسب، بل تخيطها بحبل متين محكم.

هل يمكن لهذا الأمريكي -خريج هارفرد- أن يصدق خرافة نسبنا إلى النبي يونس؟ أم أنه قدم تصميمه بناءً على تراث المدينة فحسب؟ أم أنا عاد لينتقم؟ ليلقن الجميع درسًا جزاءً وفاقًا لما فعلوا بوالده؟ طردت والدي وقاطعتموه؟ سأجعلكم ترون بصمتي أينما ذهبتم في المدينة سأطاردكم في كل مكان، لن تهربوا مني.

سرحت بأفكاري بعيدًا عن النقاشات التي تلت عرض التصميم، خصوصًا تلك التي تخص مجمعًا سكنيًّا كبيرًا عرضها صهيب بعجالة، وأثار المجمع المقترح فورًا أسئلةً كثيرةً عن المستفيد منها وعن حاجة المدينة إليها أصلًا.

كنت أرغب في أن أسلم على صهيب بعد انتهاء عرضه. أقول له: «مرحبًا، أنا بنت عمتك. سَفانة آل يونس. كان من المفروض أن نتزوج، أو بالأحرى أن أتزوج ابن أبيك، لكن خالو -الله يسامحه-...».

اقتربت قليلًا منه. كان العشرات قد التفوا حوله، ولمحت بينهم يحيى ابن خالي وهو ينظر إليَّ كما لو أنه يريد أن يعرف إن كنت سأذهب لتحية صهيب. لم تكن لديَّ القدرة على تحمل أي نقاش الآن؛ لم أذهب ولم أسلم ولم أفعل شيئًا، أدرت وجهي وخرجت من القاعة. سأراه غدًا بكل الأحوال في منزل الحاجة عادلة.

أعادني التصميم الذي قدمه صهيب إلى يوم تفجير مرقد النبي يونس. كنت قد نسيت ذلك اليوم كله؛ كل ذاكرتي تركزت على اليوم الذي تلاه. بقيت أجتر اليوم الذي يليه بكل تفاصيله ونسيت اليوم الذي سبق. يوم تفجير مرقد النبي يونس.

***

الرابع والعشرين من تموز، 2014.

ستة أسابيع على سيطرة تنظيم داعش على الموصل.

سبعة أيام على إجبار المسيحيين على خروجهم من الموصل.

أربعة أشهر على زواجي بخالد، لا حفل زفاف ولا ثوب أبيض. عُقِد ي المحكمة أمام القاضي. الشهود من مكتبي. محاميان يعملان عندي، حدهما زميل والآخر متدرب. خالد أخذ إجازةً زمنيةً من عمله. كانت عي صديقتي ليليان. لم أكن أعرف أن أيامها في الموصل، هي وأسرتها،

ستكون معدودةً. وقفت معي في كل أزماتي وأفراحي وأحزاني. في زواجي كانت الوحيدة تقريبًا. ساعدتني في ترتيب وتهيئة المشتمل[1] الذي استأجره خالد في المجموعة الثقافية. كنت قد أخبرت الحاجة عادلة وأخي عصام في الإمارات بقراري الزواج بخالد. حاول خالد أن يتصل بعصام. رفض أولًا، ثم وافق بعد أن رأى إصراري.

سنوات الغربة في الإمارات غيرته، لكن ليس إلى درجة الموافقة على الأمر. فقط قال لي إني كبيرة وراشدة وأعرف ماذا أفعل وإنه لن يبارك الأمر بكل الأحوال.

خالتي باكزة هي التي رفضت الأمر بحسم وقالت إنها ستعتبرني قد مت لو تزوجت بهذا (العريبان). كانت تخشى أن أصبح مثلًا سيئًا لحفيداتها اللواتي في سن الزواج. أصرت وحلفت على عصام وكل الآخرين أن يقاطعوني أيضًا. كنت أعرف أني في اللحظة التي أعقد فيها عقد زواجي على خالد، أني أعرِّض كل ما سبق من حياتي للخطر. لكني كنت أعرف أيضًا أنهم لن يخاطروا بعداوتي؛ لن يكرروا ما حدث مع خالي نائل. كانت لديَّ أسهم في كل عقاراتهم وأراضيهم الزراعية، وكنت أعرف كل قضاياهم. قد يقاطعونني لفترة، خالتي باكزة قد تقاطع لفترة أطول، لكنهم لن يجازفوا بعداوتي. الحاجة عدلة، من دون الجميع، لم تأبه لكلام خالتي وضغوطها للمقاطعة؛ كانت أكثر تفهمًا، تركت خالتي تتوعد وتهدد. كان بإمكانها إسكاتها، لكنها تركتها، وتحدثت معي بهدوء وسألتني عن خالد. لم تكن راضيةً طبعًا، ولم تبارك زواجي به، لكنها لم تقاطعني ولم تقطع معي حبال التواصل.

بعد سقوط الموصل بيد داعش زرت الحاجة عدلة في البيت الكبير. أول مرة أراها أو أرى أي أحد من العائلة منذ زواجي. كانت قلقةً مما يحدث،

(1) المشتمل: البيت الصغير الملحق ببيت أكبر منه.

وشعرت أنها قلقة بصدق على خالد. طلبت مني أن نخرج أنا وهو من الموصل. كنت أفكر في ذلك أيضًا، لكن خالد كان رافضًا للفكرة. حاولت إقناعي بإخباري أن أكثر من شخص من الأقارب خرجوا إلى أربيل، وأن شقتها في أربيل جاهزة ويمكن أن أذهب للبقاء فيها إلى أن تستقر الأمور. لكني كنت أعرف تمامًا أن إقناع خالد بالخروج ضرب من المستحيل.

ذلك الأربعاء الحزين الثقيل، عندما أخبرني خالد أن داعش ستفجر مرقد النبي يونس لم أصدق. أكد لي الأمر وقال لي إنهم أخلوا المرقد ومنعوا الاقتراب من التل إلى مسافة 500 متر، وإن الناس تجمعت لتشاهد التفجير. توقعت أولًا أنهم يريدون إغلاقه ومنع الناس من دخوله لأنهم يعتبرون زيارة المراقد شركًا بالله. لم أتوقع قط أن ينفذوا الأمر. لا بد أن الناس تبالغ. كان من الصعب تصديق أنهم سيفجرونه فعلًا. يغلقونه ممكن. لكن تفجيره؟ لماذا؟

لم تدم حالة الإنكار طويلًا، فبعد قليل سمعنا انفجارًا هائلًا اهتزت له الأرض، ثم ساد صمت وسكون كما لو أن كل من في الموصل شهق وكتم شهقته، ثم انتشرت رائحة غريبة في الجو. مزيج من رائحة العطر وتراب وبارود ورطوبة. عرفت أنها انتشرت في الموصل بالتدريج بعد تفجير المرقد، كما لو كانت رائحة الأنبياء وهم يغادرون المدينة التي مكثوا فيها ألفي عام، أو كما لو أن المدينة هي التي تغادر تاريخها، أو التاريخ وهو يغادرها. أحدهم كان يغادر المدينة، لا أعرف من.

كانت الحاجة عدلة أول من فكرت فيه عندما تأكد الخبر.

لم أرَها في حياتي تبكي كما كانت تبكي عليه. لم أرَها تبكي أصلًا، رغم كل ما مرت به. بل يقولون إنها لم تبكِ حتى عندما استشهد ابنها أحمد في الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات. كنت صغيرةً ولا أذكر شيئًا عن أحمد، ولا عن خالي زكريا ابن شقيقها، الذي استشهد أيضًا في

الحرب. لكني كنت متأكدةً أنها لم تبكِ على من مات لاحقًا. لم تبكِ على أبي ابن شقيقتها، ولا أمي ابنة شقيقها، وبالتأكيد لم تبكِ على خالي الآخر، ناشر، عندما اعتقلته داعش واختفى أثره تمامًا.

كنت أعتقد أن الأمر أعقد من مجرد قوة عرفت بها عبر كل الأزمات التي مرت بها العائلة. ربما كانت لا تملك الغدد الدمعية التي نملكها نحن بقية البشر. يوم تفجير المرقد عرفت أنها تملكها، لكنها أجلت استخدامها إلى ذلك اليوم، كما لو كانت تخزن دمعها لوقت يستحق ذرف الدموع.

كانت تجلس في حوش الدار وقد نثرت شعرها الأبيض، وتضرب بيديها على رجليها وتصيح: «*دادا* يونس، *دادا* يونس»، كما لو كانت تبكي ابنًا لها مات للتو.

كانت لها طقوسها مع النبي يونس: تزوره كل خميس، توزع الطعام على المحتاجين والنقود على من يعمل في المرقد. تقليد توارثته العائلة منذ قرنين على الأقل. عدا هذا، فجيلها والجيل الأصغر منها كان لديهم ارتباط شعائري بمرقد النبي يونس. جيلنا والجيل الأصغر منا كان أقل إيمانًا بالمراقد. أو هكذا كنت أظن، إلى أن حدث التفجير، ففجر معه مشاعرَ لم نكن نعرفها تجاه المرقد. مشاعر ربما لم تكن مرتبطةً بالدين والشعائر بقدر ارتباطها بالانتماء إلى المدينة.

عانقتني الحاجة عدلة كما لو كنت قادمةً لتعزيتها، بل أظنها قالت شيئًا فهمت منها أنها تشكرني على تعزيتها. كنت مصدومةً فعلًا لما حدث، لكن لم أفهم حدود الكارثة إلا عندما رأيت دموع الحاجة عدلة. فكرت أولًا في أنها ربما كانت مؤمنةً بأسطورة الانتساب إلى النبي يونس، وأنها كانت تبكي جدها الذي فجروا قبره. لكن كلماتها كانت عن النبي يونس كما لو كان ابنها، وليس جدها. كانت تبكي شيئًا عاشته وعايشته وليس شيئًا سمعت عنه وحصل منذ ألفي عام.

«غاح وغاحت[1] الموصل معانو».

ضربتني هذه الكلمة كصاعقة. راح وراحت الموصل معه؟ هل هذا ما حدث فعلًا؟ هل هذا ما يحدث الآن؟ مع كلماتها هذه انتبهت إلى أن الرائحة أصبحت أقوى من قبل. كان الحوش[2] مفتوحًا على السماء، وعندما نظرت إلى أعلى خُيِّل لي أني شاهدت غبارًا يغطي السماء.

كانت خالتي باكزة موجودةً في البيت الكبير. تجنبتني فور دخولي وتركت الحوش متجهةً إلى الغرفة الداخلية. لكني لاحظت نظراتها تتفحص بطني؛ تريد أن تعرف إن كنت حاملًا أم لا. لم أكن حاملًا، كنت أعرف ذلك، لكن نظراتها جعلتني أسأل نفسي: «هل تريد أن تتأكد من عدم حملي؟ أم تتمنى أن أكون حاملًا؟ هل ستفرح لو حبلت؟ أم سيعني هذا بالنسبة إليها موتي نهائيًّا؟».

من أسئلتي أخذتني الحاجة عدلة وهي تقول كما لو أنها توجه كلامها لي وحدي:

هذه حوبة النصاغى[3]. حوبتم[4]، طلعوهم بليلي سودا ما بيها ضو قمغ[5]. لا عشتو[6] عليّم[7].

---

(1) راح وراحت الموصل معه، الراء تُقلب غينًا في اللهجة الموصلية.

(2) الحوش: الباحة الوسطية وسط البيت حسب التصميم القديم الشائع في الموصل وبغداد.

(3) النصاغى: النصارى باللهجة الموصلية.

(4) حوبتم: حوبتهم، والحوبة هي لعنة المظلوم أو الحق الضائع.

(5) قمغ: قمر باللهجة الموصلية.

(6) لا عشتو: تعبير أسف وحزن ويعني أفضِّل الموت على ما حدث.

(7) عليّم: عليهم.

كانت تعرف عمق علاقتي بليليان، لهذا شعرت كما لو أنها توجه كلامها لي وحدي.

سكتنا على ما حدث للمسيحيين. نعم. دومًا نسكت. لكن ماذا كان بإمكاننا أن نفعل في وجه تنظيم مسلح يقتل كل من يعارضه؟

في الأيام الأولى لسقوط المدينة بيد التنظيم، كان الأمر أشبه بالكوميديا. هناك من الناس من فرح لأنهم تخلصوا من التعامل السيئ للجيش والشرطة على كل نقاط التفتيش المنتشرة في كل مكان في الموصل. وهناك من رأى أن الأمر كان مدبرًا ومتفقًا عليه، وأن ثمة لعبة كبيرة قادمة.

وهناك من رأى أن هذا السقوط بيد مسلحي داعش كان مجرد إعلان رسميٍّ لواقع حصل منذ سنوات. كان مسلحو التنظيم يصولون ويجولون ويجبون الإتاوات من الجميع منذ سنوات. بتواطؤ أو بعجز من الدولة، أو بالاثنين معًا.

وكنت أنا وخالد من معتنقي الرأي الأخير.

كانت فكرة انسحاب الجيش فجأةً، وسيطرة بضع مئات من مسلحين يرتدون أزياء أفغانية على ثاني أكبر مدينة في العراق تبدو غريبةً ومضحكةً في آن واحد، وهذا جعلها قابلةً للتفسير في كل الاتجاهات.

قبل أن ينتهي الشهر الأول أعلن التنظيم قيام دولة الخلافة. أصبح لدينا خليفة لم نكن قد سمعنا به من قبل، ولم يكن له أي علاقة بالمدينة. كان ذلك لا يزال فيلمًا هزليًّا بالنسبة إلى البعض. فيلم تاريخي كوميدي، كما لو أن الموصل بأسرها قد تحولت إلى كواليس وديكورات فيلم تاريخي منخفض الكلفة، سيئ السيناريو، رديء التمثيل.

مع مضي الشهر الأول، بدأ تحول الفيلم الهزلي إلى فيلم رعب عندما قرر التنظيم -الذي أصبح يسمي نفسه دولة الخلافة- تخيير المسيحيين في الموصل بين الدخول في الإسلام أو الخروج من الموصل.

ثم بعد أسبوع، تفجير مرقد النبي يونس.

ثم بدأت الاعتقالات، ومن ثم الإعدامات.

في اليوم الذي تلا التفجير، الخميس الأسود، وقفت سيارة دفع رباعيٍّ سوداء أمام المنزل.

هبط منها مسلحون يرتدون الزي الأفغاني، بعضهم كانوا عربًا من دول أخرى، وواحد منهم على الأقل كان أجنبيًّا. وكان هناك واحد منهم ملثم، لا بد أن يكون من أهل الموصل أو من سكانها.

أخذوا خالد.

كنا لا نزال نتناول الفطور عندما جاؤوا. لم يكمل شايه.

بقي الكوب نصف مملوء على المنضدة ولم أجرؤ على تغيير مكانه؛ كنت آمل أن يعود بعد دقائق.

قبل أن يصعد إلى السيارة معهم التفت ونظر إليَّ، كما لو أنه يودعني.

كانت هذه آخر مرة أراه فيها.

بعد أسبوعين تمامًا، في سبعة آب أغسطس، علق التنظيم على جدران الطب الشرعي قائمةً بأسماء الذين نُفذت فيهم أحكام الإعدام.

2070 اسمًا.

لم يكن ترتيب الأسماء أبجديًّا؛ كان عليَّ أن أمر على ألف اسم تقريبًا قبل أن أعثر على اسمه.

كنا في بطن الحوت، لكن النبي يونس كان قد غادرنا.

يونس بن متى

«نينوى»، همس له الملاك.

ارتفع حاجبا يونس مدهوشًا.

- *نينوى؟ ماذا عنها؟*

كرر الملاك، بهمس أيضًا: «نينوى».

- *ماذا عنها؟*

هذه المرة، قال الملاك «نينوى» بصوت عالٍ، ثم اختفى كما لو أنه لم يكن، لكن صدى صوته بقي يتردد: «*نينوى، نينوى، نينوى*».

تلفت يونس فزعًا؛ كان الصدى عاليًا، يزداد ارتفاعًا كل مرة.

هل سمعه أحد يا ترى؟

كانت قرية جت حافر نائمةً. كعادتها تنام مبكرًا. هل كان صوت الملاك مرتفعًا بحيث يوقظ أهلها النائمين؟

أم أنه وحده من يسمع صوت الملاك؟

حاول أن يعود إلى النوم. بقي يسمع الصوت يتردد: «نينوى. نينوى. نينوى».

حاول أن يصم أذنيه، لكن الصوت ازداد. أصبح يدق في رأسه.

«نينوى. نينوى. نينوى».

ماذا يريد الملاك؟ أي رسالة يحمل إليه؟ هل قال شيئًا آخر غير نينوى؟ هل كانت هناك كلمة قبلها؟

ماذا عن نينوى؟ ما الذي يعنيه الملاك عندما يقول (نينوى) لرجل من قرية صغيرة يسكنها بضع عشرات من الفلاحين، يعصرون الزيتون الذي يقطفونه من غابات الزيتون المحيطة بهم، ويبيعونه في الناصرة.

سمع يونس الكثير عن نينوى، فهي عاصمة الإمبراطورية التي تحكم نصف العالم. لكنه لم يذهب إليها قط، بل لم يذهب إليها أحد من كل قريته. بل إنه لم يقابل أحدًا زارها في حياته. فقط كبار التجار في الناصرة ذهبوا إليها، وعادوا مبهورين يتحدثون عن عظمتها وبهائها.

في تلك الليلة، وبعد أن غفا يونس مرهقًا، تسللت نينوى إلى فراشه. فتحت له أبواب أسوارها العالية. تجول في شوارعها وأسواقها. وقف مذهولًا أمام أعمدتها الشاهقة وثيرانها المجنحة، مصدومًا من النقوش على الجدران التي تروي مشاهد إذلال الأعداء: بعضهم يُقتادون كأسرى، وآخرون يذبَحون.

دخل المعبد. أوثان نينوى مصفوفة، يتوسطها آشور، كبير الآلهة الذي هزم آلهة الأعداء وأخذهم أسرى وعبيدًا عنده. يركب عربته الحربية ويحمل القوس والسهام في يده. بجانبه إنليل، إله السماء، بلحية كبيرة مصفَّفة وبالصواعق في يده. قريبة منهما عشتار، إلهة الحب والخصوبة ونجمة الصباح، وكانت عاريةً تمامًا، يقف عريها كما لو ليتحدى الجميع.

استيقظ يونس من جولته مرهقًا كما لو كان يحمل ثورًا مجنحًا على ظهره.

تبادر إلى ذهنه أنه بعد كل ما رآه في منامه، ربما يملك تفسيرًا لما قاله الملاك، لكنه طرد ذلك من ذهنه فورًا.

لا، هذا أمر مستحيل. لم يقل الملاك شيئًا من هذا، قال نينوى فقط.

عندما خرج للعمل مع والده في عصر الزيتون، سمع صوت الملاك مجددًا.

نينوى.

التفت إلى والده وسأله: «هل سمعت شيئًا أبي؟».

التفت متَّى إليه ثم دار ببصره حوله، ثم نظر بقلق إلى يونس.

قال: «لا، لم أسمع شيئًا. هل أنت بخير؟».

صهيب

في أثناء العرض الذي قدمته، نفض جسدي كل ارتباكه وكل فروق التوقيت وزال عن ذهني كل التشويش الذي لازمني منذ أن وطئت قدماي الموصل.

قدمت خلال حياتي المهنية الكثير من العروض المشابهة لتصاميم قمت بها أو أشرفت عليها. كنت قلقًا ومتوترًا في البداية، وكان الأمر يظهر بوضوح عليَّ، لكن مع الوقت تمكنت من إخفائه. لست متأكدًا إن كنت أصبحت أقل توترًا وقلقًا، فقط طورت قدرتي على وضع قناع القوة والصلابة الذي يخفي التوتر والقلق لاعتبارات مهنية تتعلق بأثر هذا التوتر على المتلقي. كنت أظهر كشخص واثق بنفسه، وكنت في الداخل لا أزال طفلًا مرتبكًا حائرًا يريد أن يؤكد له الجميع أنه بخير.

هذه المرة، كان الأمر مختلفًا. القاعة كانت متواضعةً بالمقارنة بما مررت به سابقًا. الحاضرون كانوا أقل عددًا من الكثير من تجاربي السابقة. الغاية من العرض كانت إعلاميةً بحتة، لن ينتج عنه قرار قبول أو رفض يجعلني متوترًا. حسب علمي الأمر محسوم لصالح المشروع، وشركة الحوت الأزرق تبدو حوتًا ضخمًا للغاية وواثقةً من اتصالاتها واتفاقاتها. ربما بسبب ذلك، كان الأمر مختلفًا. مع الدقائق الأولى للعرض، زال توتري فعلًا، تحررت منه. بالتدريج أزحت قناعي الذي عتدته على وجهي حتى التصق بمسامات جلدي. وجدتني أتسلل من

تحت قناعي ثم أزيحه كما لو كنت أزيح عني الكمامة وأضعها على حافة المنضدة. لأول مرة وجدتني أنتقل من النسخة النهائية التي أعددتها، إلى ملفات سابقة تحوي مراحل التصميم. تجاوزت في عرضي على الغرض الأساسي للتصميم -إعادة تخطيط المدينة وبناء مرقد النبي يونس- إلى شيء أكبر، شيء لم يكن في ذهني يوم بدأت المشروع.

كانت الموصل بالنسبة إليَّ في طفولتي لغزًا مغلقًا، أحجيةً، صندوقًا بلا مفتاح. وُلدت في بريطانيا، من أبوين ابتعثا للدراسات العليا في المملكة المتحدة على نفقة وزارة التعليم العراقية. تعارفا هناك، حسبما قيل لي، وأحبا بعضهما هناك وتزوجا هناك ورزقا بي هناك، إلى أن انتقلنا جميعًا إلى الولايات المتحدة وعمري لم يتجاوز السنوات الثلاث. لا أذكر شيئًا من تلك المرحلة.

في الولايات المتحدة، بدأت أكبر وأنتبه لأشياء غريبة في أسرتي.

كنا وحيدين جدًّا، لم يكن لدينا أي أقارب أو أي ذكر لأقارب. كل أصدقاء المدرسة كان لديهم أحد ما: أولاد أعمام أو أخوال أو جد أو جدة. حتى المهاجرون مثلنا، عرب وغير عرب، كانوا يتحدثون عن أجداد لم يعرفوهم أو شاهدوهم في الصور أو في إجازات الصيف.

إلا نحن. لا أحد، لا هواتف، لا رسائل في البريد، لا صور، لا ذكريات من طفولة أمي أو أبي، لا شيء. صمت مريب عن كل شيء له علاقة بماضيهما في العراق. كنت أعرف أنهما من العراق. كنت بريطانيًّا بالولادة، وحصلنا على الجنسية الأمريكية وأنا في الصف الخامس، لكني كنت أعرف أننا عرب من بلد بعيد اسمه العراق. يرد اسمه أحيانًا في الأخبار. هناك حرب أو شيء كهذا، وكنت ألاحظ أن وجهيهما يتغيران على الأقل كنت ألاحظ ذلك على أمي؛ كان وجهها يتقلص كما لو أن هناك شيئًا مزعجًا بمجرد ذكر اسم العراق.

في الصف الثالث، حدث شيء لن أنساه.

دق الهاتف فجرًا، وهرعت أمي إليه وهي مرتعبة، ثم صرخت وبكت.

عرفت يومها أن أمي لديها شقيق اسمه رائد، وأنه قتل في الحرب. قالت: «استشهد». لم أفهم الكلمة أولًا، ثم أدركت أن معناها أنه قتل في الحرب.

لبست أمي السواد، ودخلت في مزاج كئيب، وكانت آثار البكاء ظاهرةً عليها دومًا.

سمعت أبي يقول لها: «أخي زكريا استشهد أيضًا ولم أفعل ما تفعلينه. الله يرحمهما. لكن لا تنسيْ ما فعله الجميع بنا».

سمعت الصمت مستفزًّا كما لو أن أمي تستعد لترمي بقنبلة.

قالت له: «إياك يا نائل أن تقارن بين ما فعله أهلي وأهلك، إياك! أنا وضعت رؤوسهم جميعًا في الطين. الموصل كلها تحدثت عن ذلك؛ كل ما فعلوه معي مبرَّر. أنت لم تضع رأس أحد في الطين، ورغم ذلك فعلوا أكثر مما فعله أهلي».

رد عليها: «كيف يعني؟ ما الفرق بين ما فعلته أنا وفعلته أنت؟».

قالت له: «لو أن أختك عالية تزوجت بأخي رائد أو عامر لكانت وضعت رأس أهلك في الطين. أما أنت، فلا. لم تفعل».

كانت تلك مجموعةً كبيرةً من المعلومات أعرفها للمرة الأولى في محادثة واحدة سمعتها وأنا في غرفتي، وهما يتحدثان في المطبخ.

لديَّ إذن عم وعمة: زكريا وعالية. زكريا استشهد في الحرب، مثل خالي الذي عرفت بوجوده للتو.

اسمه رائد.

وهناك طين، وضعت أمي رأس أهلها فيه، ولكن والدي لم يفعل.

ولكن لو أن عمتي تزوجت خالي لكانت وضعت رأس أهلها فيه.

لم أفهم هذا تمامًا. توقعت أن الطين كان تعبيرًا مجازيًّا، لكن التفاصيل الأخرى بدت لي مثل أحجية.

وكانت هناك، لأول مرة: «الموصل». لم أكن قد سمعت باسم المدينة من قبل؛ كانا يتجنبان ذكرها. موجودة دومًا لكن بلا اسم. مجموعة تعليمات وقواعد وقوانين سرية عشت فيها طيلة ما سبق من طفولتي، لكن بلا اسم. والآن جاء الاسم. الموصل.

تخيلتها مدينةً مغلقةً مغلفةً بالصمت والأسرار، البشر فيها لا يتحدثون عن شيء ولا يتبادلون الكلام فيما بينهم.

لم أعلق على شيء مما سمعته منهما، كما لو أني قد ورثت منهما جينات الصمت والكتمان، لكني زرت مكتبة المدرسة وقرأت عن الموصل في الموسوعة البريطانية.

بعد أسابيع بدأت أربط بعض الخيوط. بدأت أمي تخرج صباح كل أحد بمفردها. لا تتأخر أكثر من ساعة، لكني لاحظت زيادة التوتر بينهما. ثم ظهر الصليب لأول مرة، في سلسلة ترتديها على صدرها.

بعد أشهر، أخذني والدي معه -لم تأتِ أمي معنا- إلى مسجد فرسنو قرابة ساعة من هانفورد حيث كنا نسكن، وأدينا صلاة العيد. شرح لي باختصار ما يجب أن أفعله. قال لي أن أفعل كما يفعل الباقون، غالبًا لم يكن يعرف هو ما عليه أن يفعل أيضًا.

بالتدريج فهمت لماذا نحن بلا أقارب. روميو وجولييت لكن بنهاية مختلفة. نهاية فيها الكثير من الصمت والعناد والكبرياء، وكنت أنا الشخصية الجديدة التي دخلت على أحداث لم يشرحها لها أحد.

ربطت كل ذلك بالمدينة الغامضة المغلقة المغلفة بأسرار لا يتحدث عنها أحد: الموصل.

وربطت كل مشكلات والديَّ بها. الصمت الذي بدأ يتراكم بينهما بالتدريج، الصمت البارد المتوتر الذي جعلهما بالتدريج ينفصلان دون أن يعلنا عن ذلك حتى لنفسيهما.

وربطت كل مشكلاتي معهما بالموصل. على نحو لم أفهمه، ربطت كل ما حملته من جروحي منهما بها. كل شيء يجب أن يكون كاملًا، كل شيء يجب أن يكون محسوبًا، محسوبًا وبدقة. كل عاطفة، كل قبلة، كل حضن، كل كلمة دعم، كل كلمة حب، كل كلمة غضب، كل كلمة بالمجمل يجب أن توضع في ميزان دقيق يضع كل شيء في الحسبان: تاريخ العائلة، التوقعات، كلام الناس، كلام الناس، كلام الناس. ماذا سيقوله الناس لو عرفوا بهذا أو ذاك، بأي فشل أو انتكاسة حسب معايير الميزان شديد الحساسية.

«انكفينا وتواغينا»[1]، كانت جملة رافقت طفولتي، تستخدمها أمي في تعاملها معي على أقل هفوة أو خطأ. مقصود أو غير مقصود. خطأ بمعاييرها هي ومعايير الميزان الذي جلبته هي ووالدي من الموصل. عشت طفولتي وأنا تحت التهديد أننا سنقع أرضًا ونوارى تحت التراب لأني حزت أي علامة أقل من الكمال الكامل، أو لم أظهر على نحو مناسب أمام أي أحد. و«المناسب» هو ما يوافق ميزان والديَّ ولا يخرج عنه قيد أنملة.

ورثت تلك المعايير وذلك الميزان الدقيق. طبقتها على نفسي أولًا؛ حاسبت نفسي بشدة على كل شيء. طبقت المعايير أيضًا على كل

(1) انكفينا وتواغينا: سقطنا أرضًا وتوارينا تحت التراب. تعبير موصلي يقال عند ارتكاب خطأ يعتبره القائل فضيحة.

من ارتبطت بها. عاطفيًّا؟ لا أعرف حتى إن كان هذا يصح على وصف نوعية الارتباطات التي ارتبطت بها. جاكي، لورا، كايلي. طبقت عليهن جميعًا معايير الموصل، وكان هذا تعذيبًا لهن ولي. النتيجة، في الثالثة والأربعين وأعزب. على رأي أمي، انكفينا وتواغينا. يكاد أن يحدث ذلك حرفيًّا.

قفلت على الصندوق المغلق الذي يضم التاريخ المسكوت عنه. تجاهلت وجوده وتأثيره عليَّ، إلى أن جاء أمر مشروع إعادة تصميم المدينة المدمرة بعد تحريرها من سيطرة داعش. كنت على وشك المرور بأزمة منتصف العمر. خارج بكدمات وجروح من أكثر علاقة جدية في حياتي: سمية، المغربية التي تصورت أنني أحببتها وكانت الوحيدة التي ربما ستحصل على إشارة (موافقة) من أمي. ربما فقط، لم يكن ذلك مؤكدًا على أي حال، ولكنه كان أكثر احتمالًا من كل سابقاتها، أو هكذا هيِّئَ لي.

تركتني سمية لأني حسب قولها كنت عاجزًا عن الحب، وإني لا أحب حتى نفسي، واقترحت عليَّ أن أتلقى علاجًا نفسيًّا لأني -كما قالت- أدمر بأناي المُدمَّرة كل من يقترب مني. قالت عني أيضًا إني مجموعة أعلام حمراء تسير على قدمين. كانت تبالغ قليلًا على ما أعتقد. بالتأكيد هناك أعلام حمراء، لكن ليس لدرجة أني أختزل لأكون كما وصفتني: مجموعة أعلام حمراء تسير على قدمين. لكني أتفق معها على الأقل في أني لا أحب نفسي.

جاء المشروع مثل علاج نفسيٍّ أكثر جدوى من أي بروتوكول علاجي. تعاملت مع المشروع كما لو كان رحلةَ تعافٍ من جروحي الشخصية. درست تاريخ الموصل منذ البداية، منذ أن كانت عاصمة الإمبراطورية التي حكمت العالم إلى أن سيطرت عليها عصابة إرهابية تدعي أنها

دولة خلافة، مرورًا بشتى المراحل بين النقطتين: الفرس، الروم، الفتح الإسلامي، المغول، العثمانيون، حصار نادر شاه، البريطانيون، الدولة الحديثة.

وجدت الكثير من الأجوبة عن أسئلة طالما راودت ذهني عن شخصيتَي أمي وأبي، عما ورثته منهما سواء عبر الجينات أو عبر التربية.

عندما قرأت عن السراديب في البيوت الموصلية وكيف كانت من وسائل النجاة والبقاء على قيد الوجود عبر العصور من الغزوات والحصار، فهمت أن هذه السراديب أصبحت جزءًا من النفسية التي توارثها أهل الموصل. وضعها والداي في حقائب السفر عبر القارات، وحقناها في لا وعيي دون وعي منهما. اكتشفت أني أحمل في داخلي سردابًا من سراديب الموصل التي لم أزرها قط.

قرأت عن الموصل في الموسوعات، في التوراة، في كتب الفتوحات، في كتب علم الاجتماع والتاريخ الحديث.

ووجدت في كل ذلك ثلاثة رموز يمكن أن أوظفها في تصميم يحكي تاريخ المدينة من خلال تصميمها: الخروج من بطن الحوت، الثور المجنح، المنارة الحدباء.

لم أتحدث عن كل ذلك في أثناء العرض التقديمي، لكن حماستي في أثناء التقديم كانت واضحةً على جسدي الذي تحرر من القوالب التي اعتدت تكبيله بها. حركة جسدي كانت ستجعل أبي يخبرني بحزم أن أكون رجلًا ولا أحرك يدي هكذا. أمي كانت ستؤيده وتقول: «انفضحنا واتخزينا». قالب الرجل المتخشب صببت نفسي فيه منذ أن بدأت ملاحظات والدي تجلدني، تقريبًا في الصف السابع أو الثامن. بالتدريج أصبح جزءًا مني، تقوْلبت فيه. لكني الآن، وبلا سابق إنذار، وبالتأكيد بلا سابق تخطيط، وجدتني أتحرك كطفل لم يدخل بعد في القوالب

المصنعة سابقًا، كما لو أن إعادة اكتشاف الموصل وتصميمها من جديد قد ساعدني على الخروج من سراديبها وبطن حوتها والتمسك بأجنحة الثور المجنح وهو يطير إلى قمة المنارة الحدباء.

قبل أن أنهي العرض، قدمت شرائح المجمع السكني التي قُدِّمت لي أمس باعتبار أنها جاءت من (فوق). مررت عليها بسرعة كما لو كنت خجلًا منها. كنت خجلًا بالفعل؛ تخشبت ولبست قناعي مع هذه الشرائح.

عندما انتهى العرض، توقعت أن يقف الجميع مصفقين. هذا ما كان سيحدث في بوسطن أو نيويورك أو كاليفورنيا أو روما. لكن لم يحدث شيء من هذا؛ عم صمت مريب في القاعة. قلت في نفسي لعل هذا هو الصمت الذي يسبق عاصفة التصفيق، صمتهم هو صمت الدهشة والإعجاب. الآن سيلملمون أشتاتهم ويصفقون. لم يحدث شيء من هذا؛ عدت إلى قوالبي وقناعي المتخشب. سمعت صوت تنحنحٍ في القاعة. تقدم الموظف الذي سبق له تقديمي قبل العرض، أخذ مني الميكروفون ببرود وقال: «نشكر الأستاذ صهيب آل يونس على هذا العرض».

توقعت أن يقول: «العرض الرائع»، لكنه أكمل: «والآن سنأخذ أسئلتكم عن المشروع والتصميم الذي قدمه المهندس صهيب».

فكرت: «لماذا توقعت التصفيق أصلًا؟ أليس هذا البرود والتحفظ هو المعتاد الذي تعايشت معه منذ طفولتي؟ هل صفق لك والدك عندما حققت 1580 من 1600 في امتحان السات؟ لا طبعًا، قال لك: «جيد، كم طالبًا حقق أكثر من ذلك؟». كنت من ضمن ألفي متقدم للامتحان. الذين حققوا أكثر من 1570 من أصل أكثر من مليوني متقدم. ضمن أقل من الـ 1 % الأوائل. لكنه قال: «تعرف أن السات ليس كل شيء في تحديد قبولك في الجامعات؟»».

نعم، أعرف.

ومن ثم قُبلت في هارفرد وحصلت على قبول في ييل وكورنيل.

كان رده: «الـ إم آي تي هي الأفضل في العمارة».

ولو كنت قُبلت في الـ إم آي تي، لقال لي: «لكن هارفرد عالميًّا معروفة أكثر».

كنت أعتقد أن مشاعره في الثلاجة، ثم اكتشفت مؤخرًا أنها في السرداب.

فلماذا أتوقع التصفيق وقوفًا هنا؟

وقف شخص يبدو في الستينات من عمره، أنيق ويرتدي بذلة رسمية وربطة عنق. لم يبدُ لي أنه سيصفق.

قال: «مع كل احترامي للأستاذ صهيب، وهو ابن عمنا والنعم منه، ولكن هذا التصميم لا يعيد بناء الموصل؛ هذا يقدم مدينة جديدة مختلفة».

كان محقًّا بالتأكيد.

سرت همهمة تأييد في القاعة. كانت هناك عبارات تؤكد ما قاله الرجل.

قال رجل آخر، أصغر قليلًا من الأول: «نريد أن تعود الموصل التي عرفناها».

رد عليه آخر من الفئة العمرية نفسها: «تعمير ما خربته الحرب مع داعش. لا نريد تصميمًا جديدًا للموصل، نريد فقط المساعدة في تمويل إعادة الإعمار، والأهالي مستعدون لتنفيذه بأنفسهم».

لم يكن هذا سؤالًا موجهًا إليَّ لكي أرد عليه. نظرت إلى رئيس المهندسين في مجلس المحافظة وممثل شركة المقاولات التي رسا عليها العطاء، مستنجدًا لكي يتدخل أي منهما.

تدخل المقدم: «يمكن تقديم كل هذه الملاحظات إلى مجلس المحافظة؛ في النهاية، لن يتم أي مشروع دون موافقة أعضاء المجلس بالأغلبية».

كانت هناك أسئلة أخرى موجهة إلى المحافظ وإلى المسؤولين في الشركة، أغلبها متعلقة بالمجمع السكني الذي لم ينتبه أحد إلى بشاعته، بل كانت كل الأسئلة منصبةً على موقعه المطل على نهر دجلة. كان الموقع على ما يبدو مستفزًّا للحاضرين ومثيرًا لتساؤلات كثيرة.

عندما انسحبت، تجمع عدد كبير من الحاضرين حولي، أغلبهم شباب، التقطوا معي الصور وسألوني عن حسابي في الإنستجرام. لم أخبرهم بأني لا أملك واحدًا، عاملوني كنجم واكتشفت أن لديَّ شعبيةً كبيرةً بينهم. بدوا لي مختلفين عن الجيل الأكبر منهم؛ أكثر تقبلًا للتصاميم التي قدمتها.

لفتت نظري سيدة حاولت الاقتراب من المجموعة حولي. كانت أنيقةً رغم ارتدائها الحجاب، وخيِّل لي أن شكلها مألوف على نحو غامض. سمراء قادمة من عوالم ألف ليلة وليلة.

عندما التفتُّ لأبحث عنها كانت قد اختفت.

يحيى

بعد أن انتهت المأدبة التي أقامها المحافظ في بيته على شرف ابن عمي المدعي، أخذته معي لكي أرجعه إلى الفندق. كان يبدو مرهقًا، ولكن مسترخٍ على نحو غريب.

التفت ونظر إليَّ مطولًا في اللحظة التي ركب فيها بجانبي، كما لو كان يتوقع أن أقول له شيئًا ما عن التصاميم التي قدمها.

رغم كل مشاعري تجاهه وتجاه المعماريين عامةً، وكل رفضي السابق له وللمعماريين عامة، لكني لم أستطع، وأنا أتابع التصاميم التي قدمها، إلا أن أعترف مع نفسي بأنه فنان؛ التصاميم رائعة، لا كبناء قابل للتطبيق، ولكن كأعمال فنية. المهندس المدني في داخلي كان يقول: «لا. هذا تصميم فاشل، غير قابل للبناء على أرض الواقع». لكن كمتذوق، كنت مدهوشًا.

حاولت أن أقاوم دهشتي وانبهاري، ثم استسلمت وتركت مشاعري تتفاعل مع لوحات صهيب وتصاميمه. لا أدري إن كنت تعاملت معها على أنها ستكون الموصل الجديدة، أم لوحات فنية لم أكن أدرك قدرتي على تذوقها أصلًا.

لم أخبره بشيء من ذلك. نظرته إليَّ كانت تطلب مني أن أثني عليه، كما لو كانت عودته هي عودة الابن الضال الذي يرغب في الحصول على الصفح والمغفرة والقبول.

لن أمنحه ذلك، لا الصفح ولا المغفرة ولا القبول، ولا حتى الاعتراف بقدراته؛ تكفيه جوائزه وشهاداته. لن يحصل على شيء من آل يونس، ليس مني على أي حال. تستطيع الحاجة عدلة أن تقدم له ما يريد إن كان هذا ما تريده لتنفيذ خطتها غير المفهومة بالنسبة إليَّ.

قلت له: «بارك الله فيك. الله يقويك. التصميم جيد».

توقعت أن أرى خيبة أمل أو إحراجًا على وجهه. شيء شرير في داخلي كان ينتظر ذلك.

لكنه أحبط ذلك بابتسامة.

أخذ الجزء الشرير مني زمام المبادرة، وقال: «لكن لا تتوقع أن ينفذ تصميمك هذا. قبول التصاميم والمشروع والفوز بجائزة شيء مختلف تمامًا عن تنفيذه».

- ماذا تقصد؟

- نحن في العراق يا بن عمي، لسنا في السويد أو أمريكا.

- أعرف أننا في العراق، لكن ما علاقة ذلك بما تتحدث عنه؟

- هل تعرف تسلسل العراق في مقاييس الفساد الإداري والشفافية؟ نحن ضمن الدول التي تتنافس على المراكز الأسوأ عالميًّا.

- لديَّ فكرة عن هذا طبعًا. ستكون هناك عمولات ورشاوى بالتأكيد، هذا متوقع. لكن كيف يمكن أن يقود الفساد الإداري إلى عدم التنفيذ؟

ضحكت بشدة. لم أقصد السخرية، لكن ضحكتي بدت كما لو كنت أتعمد السخرية منه.

فكرت مع نفسي: «أين يعيش؟ ليس لديه محرك بحث جوجل؟ ليس لديه فيس بوك؟».

- في التسعينيات، وفي أثناء الصعود الاقتصادي لدول جنوب شرق آسيا، كانت هناك نكتة عن الفساد في تلك الدول. تعرفها؟

هز رأسه بالنفي.

- زار وزير من دولة إفريقية واحدة من هذه الدول، وبعد اجتماعات ومباحثات دعاه نظيره الآسيوي إلى مأدبة عشاء في منزله، فلاحظ الوزير الإفريقي فخامة المنزل وسأله عن مرتبه الشهري، فأجابه الآسيوي برقم بدا للإفريقي أنه لا يكفي لتوفير هذه الفخامة وسأله عن ذلك، هنا أخذ الوزير الآسيوي ضيفه إلى الشرفة وأشار له إلى جسر من بعيد: «ترى هذا الجسر؟»، أجابه الوزير الإفريقي بـ «نعم»، فقال الآسيوي: «10%». بعد سنة زار الوزير الآسيوي الدولة الإفريقية ودعاه نظيره إلى مأدبة عشاء، ففوجئ الوزير الآسيوي بفخامة البيت، وسأله عن مرتبه وكيف يمكن أن يوفر بيتًا كهذا. هنا أمسك الوزير الإفريقي بيد ضيفه وأخذه إلى الشرفة وسأله: «هل ترى الجسر؟». أدار الوزير الآسيوي رأسه يمينًا وشمالًا وقال: «لا، لا أرى أي جسر». هز الوزير الإفريقي رأسه وقال: «بالضبط، 100%».

لم يضحك وبدا عليه أنه لم يستوعب النكتة.

كرر كما لو أنه يحاول أن يفهم: «100%؟».

- نعم. المشروع لم ينفَّذ أصلًا؛ العمولات قضت على كل ما رصد للتنفيذ 100%.

- يستحيل أن يحدث هذا مع هذا المشروع! لقد أكدوا لي جديتهم ونزاهتهم قبل أن أبدأ في التصميم. وبعد أن سلمته إليهم، قالوا إنهم سيسلمون المشروع إلى شركات تدقيق ومحاسبة عالمية.

كان يتحدث بجدية تامة. تمكنت بصعوبة أن أتمالك نفسي من الضحك هذه المرة.

أردت أن أسأله: «هل أقسموا لك بستر أمهاتهم؟».

رأيته الآن كأمريكي لم يكن يعرف ما هو مقبل عليه عندما قرر أن يأتي إلى العراق. لم يقلب في الخرائط حتى. أحيانًا أصدق أن ذلك ما حدث بالفعل مع الأمريكان، وأحيانًا أجد نفسي أصدق أنهم كانوا متعمدين في كل ما حدث.

لكن ابن عمي السخيف هذا، لم يبدُ عليه أنه يعرف عما يتحدث. شركات تدقيق عالمية؟ الدكتوراه من هارفرد لن تجعل طرطميس[1] يفرق الجمعة من الخميس. يجيد وضع الرسومات والمخططات على الورق، لكن يبدو أنه لا يعرف شيئًا عن العالم الحقيقي. ربما أقسموا له بستر أمهاتهم بالفعل.

قال لي دون مقدمات: «هل يمكن أن تأخذني إلى بيت العائلة؟ البيت الذي تسمونه الكبير؟».

جفلت. هل يلعب دور طرطميس وهو إبليس؟

- البيت الكبير؟ هل كان عمي نائل -الله يرحمه- يتحدث لك عنه؟

- قط. والدي لم يتحدث عن أي شيء، لا بيت كبير ولا صغير ولا أي شيء.

لعلها والدتك إذن.

---

(1) مثل يقال عن الغبي: طرطميس لا يعرف الجمعة من الخميس.

- إذن من أخبرك عنه؟
- أنت. عندما تحدثت إليَّ عن اختفاء عمي الدكتور ناثر.

صدقتك يا طرطميس. مرة واحدة جئت بسيرة البيت الكبير وأصبحت تريد أن تراه.

- لماذا تريد أن آخذك إلى البيت الكبير؟
- أريد أن أراه. أريد أن أضع له صورةً في ذهني بعد أن سمعتك تتحدث عنه.

يريد صورةً في ذهنه إذن؟ حقًّا؟ أم صورة عن السند والقسام الشرعي؟

تراه يبحث عن الإرث الموهوم لأبيه؟ هل كل هذه التصاميم والثيران المجنحة والحيتان فاتحة الأفواه مجرد تغطية على خطة أخرى للبحث عن الميراث؟

تراه يعلم أنَّ لا شيء هنا له في الموصل؟ أم أنه يتوقع أن والده نسي شيئًا هنا أو هناك في أثناء نوبة الانتقام التي جاءته في الثمانينيات؟

حركت سيارتي باتجاه منطقة النبي يونس، حيث يقع البيت الكبير.

- يمكنني أن آخذك طبعًا إلى البيت الكبير، لكن لا يمكننا أن ندخله للأسف. لم يدخله أي منا منذ 2015، منذ أن استولت عليه داعش وحولته إلى سجن تابع للحسبة.
- لماذا لم يُرجِعُوا البيت لكم بعد التحرير؟
- السبب المعلن هو وجود خلاف بين أكثر من جهة على البيت. هيئة الآثار تقول إن البيت عمره أكثر من 200 سنة، وبالتالي فيجب أن يكون تحت حيازتها.
- واو! 200 سنة، هل عمر البيت الكبير 200 سنة بالفعل؟

واو؟ الصبر يا رب.

- لا طبعًا. البيت عمره 300 سنة تقريبًا.

- واااااو! 300 سنة؟ إذن، قانونًا هو آثار بالفعل.

- نعم، الهيكل الأصلي للبيت عمره 300 سنة، لكن هدمت بعض أجزائه وبُني من جديد خلال الـ 150 سنة الماضية، لذا فالأمر قابل للطعن من الناحية القانونية.

- 150 سنة تبدو لي آثارًا أيضًا.

لم يسألك أحد عن رأيك يا أمريكي، يا من لم يتعدَّ تاريخ بلده الـ 200 سنة.

- عمومًا، الأمر أعقد من هذا. هناك منظمة تقول إن البيت ربما يكون بُني على آثار آشورية. قصر أو معبد أو شيء كهذا.

- هذا يأخذ الموضوع إلى ثلاثة آلاف سنة، صحيح؟

- نعم، وربما أكثر. لكن إذا كان هذا الافتراض صحيحًا فيجب أن تكون المنطقة كلها برسم التنقيب، وليس البيت الكبير وحده.

- منطقي.

- وفوق هذا وذاك، هناك هيئة وقفية تقول إن البيت الكبير مبني على مشهد لصهيب الرومي.

- صهيب الرومي؟ من هو؟

فكرت أن أقول إنه كان قيصرًا من قياصرة الروم، أسلم وحسن إسلامه وتآمر عليه وليُّ عهده وقتله.

كنت واثقًا بأنه سيصدق ذلك.

سيقول واو كبيرة تليق بالدكتوراه من جامعة هارفرد، وسيصدق تمامًا ما قلت.

- صهيب الرومي هو صحابي من صحابة الرسول، عليه الصلاة والسلام. أصله من الموصل.

لم يردد الصلاة على الرسول. هل هو مسلم لم يعتد ذلك؟ أم هو مثل أمه؟ أم لا هذا ولا ذاك؟

- ألم يكن الرسول في السعودية؟ ما علاقة الروم بالسعودية وبالموصل؟

اللهم طولك يا روح.

- قصة طويلة. لكن لا يوجد أي مشهد لصهيب الرومي لا في البيت الكبير ولا في الموصل. يوجد جمعية تدعي ذلك للحصول على مكاسب، لا أكثر ولا أقل.

- وهل عاد إلى الموصل ودُفن فيها؟

- قط. لم يصل إليها، أو على الأقل لم يذكر ذلك أحد. لكنه دُفن في المدينة المنورة.

ثم أكملت خشية ألا يعرف أين تقع: «في السعودية».

- أعرف أن المدينة المنورة في السعودية، لكن ما علاقة البيت الكبير بصهيب الرومي؟

- لا علاقة. الجمعية الوقفية تريد أن تجد حجةً لكي تسيطر على البيت. يقولون إن صهيب حُبس فيه عندما اختطفه الروم. كلام فارغ تمامًا. فقط لكي يحولوا البيت إلى مزار يستثمرون فيه.

- لكن لا إثبات على ذلك؟

- لا إثبات لا من قريب ولا من بعيد. لكن بسبب الفساد الإداري فكل شيء ممكن.

سكت قليلًا كما لو أنه يفكر فيما قلت. هل سيطلب منهم أن يحلفوا بستر أمهاتهم أيضًا؟

- هل تعتقد أن والدي أسماني صهيب لأن صهيب الرومي كان من الموصل؟

عمي نائل يهتم بأن أحد الصحابة كان من الموصل؟ بدا لي أمرًا مستبعدًا، إلا لو كان يعاني شعورًا بالذنب تجاه الموصل.

لم لا تسأل أمك؟

- لا أعرف. عمومًا، الاسم شائع في الموصل.

مررت بباب الطوب في طريقنا إلى البيت الكبير. كان صهيب يبدو فزعًا من الدمار والخراب في المنطقة.

- الساحل الأيمن من الموصل تعرض لدمار أكبر بكثير من الساحل الأيسر. انسحبت داعش له وتمركزت فيه في أثناء التحرير، لهذا آثار الدمار ما زالت باقيةً رغم مرور سنوات على انتهاء المعارك.

شرحت له جهود السكان في إعادة الإعمار على نفقتهم الخاصة. أشرت له إلى خان آل يونس الذي كان أول ما أُعيد بناؤه في المنطقة. قلت له إن الخان يعود إلى والدي وعمي ناثر وعماتي عالية وباكزة. حددت من يملكه، لكيلا يعتقد أن له أي شيء فيه.

أوقفت السيارة عند مدخل الزقاق، الذي أصبح اسمه زقاق آل يونس لأن أغلب البيوت فيه يملكها آل يونس. أشرت له إلى البيت الكبير. الباب التاريخي كان قد غُطِّي بصفيح حديدي، كذلك كانت هناك أكثر من فتحة في السور بسبب القصف غطيت بصفيح مماثل.

نزل صهيب دون أن يقول شيئًا. كان يسير كالمنوم مغناطيسيًّا، كما لو أن للبيت الكبير أذرعًا أخطبوطية، التفَّت حوله وسحبته إليها.

وقفت بعيدًا أراقب صهيب وهو يتجول في الزقاق، يدور برأسه كما لو أنه يتفحص كل حجر وكل ركن وكل تفصيل في المكان.

عاد بعد دقائق. كان يبدو عليه التأثر والانفعال.

سألني: «يحيى، هل تعرف ماذا تعني كلمة ديجافو؟».

لا. جئت من وراء البقر للتو لكي أوصل حضرتك إلى البيت الكبير.

- نعم، طبعًا أعرف. تعني أنك تشعر أنك شاهدت أو عشت هذا الشيء من قبل.

- بالضبط. أشعر أني كنت هنا من قبل. أشعر أني عشت هنا. مررت من هذا الطريق أمام هذا السور، كما لو كان ذلك في حياة أخرى.

فكرت مع نفسي: «المعماريون يحبون الدراما».

قلت له وأنا أقود السيارة مبتعدًا عن البيت الكبير: «ربما كان المرحوم عمي يتحدث معك عن البيت الكبير في طفولتك وأنت نسيت ذلك، ولكن بقي كلامه في لا وعيك».

غمغم قائلًا: «لا أعتقد. لم يتحدث عن الموصل معي قط».

إذن ربما أنت تمثل أو تتظاهر بكل ذلك. أو ربما كنت كلبًا من كلاب الشوارع في حياة أخرى.

قبل أن ينزل أمام باب الفندق، سألته إن كان يرغب في أن أمر لاصطحابه إلى العشاء.

لمس بطنه وقال: «أعتقد أني سأموت من كثرة الأكل».

قلت في سري: «آمين يا رب».

اتفقت أن أمر عليه بعد صلاة الجمعة لكي يلبي دعوة الحاجة عدلة.

***

قبل أن أصل إلى المنزل، اتصلت بي الحاجة عدلة وطلبت مني أن أذهب لمقابلتها فورًا.

ذهبت على الفور. استقبلتني بشكل اعتياديٍّ. لوز يجلس في حضنها.

قالت لي مباشرةً: «هل تكره صهيب؟».

- أكرهه؟ من قال هذا؟

- ليس مهمًّا من قال هذا الآن. لكن أجبني، هل تكرهه؟

- لا أكرهه، لكني لا أثق به. لست مطمئنًّا له؛ لا يوجد شيء من ناحية عمي نائل يمكن أن يجعلني مطمئنًّا. هل نسيتِ ما فعل؟

- تسألني أنا عما فعل نائل؟ كم كان عمرك أنت يوم حدث ما حدث؟

- عفوًا، لم أقصد. لكن ما فعله بقي بآثاره المضرة لفترة طويلة.

- لا تزر وازرة وزر أخرى، كل عنزي تتعلق من كراعا.[1] لو حاسبنا الجميع بما فعله آباؤهم لن يكون صهيب هو الوحيد من يحاسَب.

- لم أقصد محاسبته. أنا لست واثقًا به، ولا أعرف لماذا نحتفي به. تركت كل أعمالي وأرافقه مثل سائق، بناءً على تعليماتك.

- وأنا أشكرك. لكن كن واثقًا بأني أفعل هذا لصالح الجميع، وستفهم هذا في الوقت المناسب.

- هل يتعلق الأمر بالبيت الكبير؟

- قلت لك ستفهم في الوقت المناسب. لكن أخبرني، هل تغار منه؟

---

(1) كل عنزة تعلق من سيقانها، عند الجزار، مثل يعني ألا أحد يحاسَب على ما فعله سواه

بلعت ريقي. هذه قوية.

- أنا أغارِ منه؟ لماذا؟

- لأنك تعتقد أني أقربه وأحتفي به.

لم أرد. ربما كانت محقةً.

- أول مرة أعرف أنك غبي يا يحيى.

أول مرة أسمع منها هذا اللفظ في حقي.

- لماذا يا حاجة؟

- كيف تغار منه؟ ألا تعرف من تكون بالنسبة إليَّ؟ أنت الوحيد الذي أعتمد عليه وأثق به. أنت تربية يدي.

ارتفعت عندي الأنا بعد أن كانت قد صدِمَت بكلمة (غبي).

- إذا كان ذلك صحيحًا، فلماذا لا تقولين لي ماذا تريدين من صهيب؟

- كل شيء في وقته. وتأكد من أن ما أفعله وما سأفعله لصالح الجميع.

إذن هناك ما تنوي فعله، ليس مجرد دعوة غداء لصهيب.

هززت رأسي موافقًا.

- لا أستطيع أن أمنعك من مشاعر معينة تجاه صهيب، لكني أطلب منك أن تخفيها أكثر. سبق لي وقلت لك أن تتعلم ذلك؛ وجهك مثل شاشة تعلن كل مشاعرك. حاول أن تقلل من ذلك.

- أحاول فعلًا.

- حاول أكثر.

قالت بحسم وهي تنهض من الكرسي مستندة على عكازها الخشبي، معلنة نهاية اللقاء. قفز لوز من مقعده في حضنها.

قبل أن أخرج سألتها: «من أخبرك بأني أكره صهيب؟».

ردت فورًا: «سَفانة رأتك في جلسة اليوم عندما كنتم في العرض الذي قدمه صهيب. تقول إن وجهك كان مظاهرة كراهية لصهيب».

سَفانة، طول عمغا[1] فتّاني[2]. مثل خبز الصاج[3].

علمًا أني كنت اليوم في أكثر حالات تقبلي لصهيب.

---

(1) عمغا: عمرها باللهجة الموصلية.

(2) فتّاني: فتّانة، تثير الفتن.

(3) مثل خبز الصاج: يقال للمتقلب المتلون.

صهيب

يوم الجمعة الموعود.

أخذني يحيى من الفندق وذهبنا إلى منزل الحاجة عادلة.

كان المنزل في منطقة قال عنها إنها تسمى (حي الزهور). بيت من طابقين بطراز حديث محاط بحديقة كبيرة. البيت يبدو أنه بُنِيَ في الستينيات من القرن الماضي، إن لم يكن قبل ذلك؛ خطوط واضحة ومستقيمة، نوافذ كبيرة، مستطيلات ومربعات. لا يوجد أي نقوش أو أقواس أو أي نوع من أنواع الزينة المعمارية. دون أن أتعمد أي شيء حسبت عدد الأعمدة والمسافات بينها، وقارنتها بالفضاءات الموجودة. الجزء المعماري يعمل في داخلي على نحو تلقائيٍّ.

غرفة الاستقبال كانت من طراز كلاسيكي جدًّا، تشبه تصميم البيت. كراسيٌّ وكنبات ضخمة بلون أحمر غامق. الجدران ملآنة بصور لأشخاص مختلفين، من الواضح أنهم لأقارب لأبي. كلها بالأبيض والأسود عدا واحدة باهتة الألوان لشاب يرتدي ملابس عسكريٍّ وعلى كتفيه ثلاث نجمات، وهناك شريط أسود على طرف إطار الصورة.

تتوسط الصور صورة كبيرة بإطار عملاق مميز، بدت لي مثل واجهة زجاجية أكثر منها صورة عادية. الصورة كانت لرجل مهيب بشاربين قصيرين يشبهان شاربي هتلر لكن أطول قليلًا، يرتدي ملابس عسكرية

مزينة بنياشين وأوسمة عسكرية. كان من الواضح أنه الجد. جد أبي، وجدي أيضًا.

رغم أن البيت وأثاثه يمثل كل ما يستفزني كمعماري، فإني شعرت بهدوء وراحة.

لحظات ودخلت الحاجة عدلة برفقة خادمة إفريقية يبدو أنها تحاول إسنادها، لكن من الواضح أن الحاجة لا تحتاج إلى ذلك.

قالت: «السلام عليكم». قالتها بصوت لا يدل على عمرها.

لم تكن تشبه مارلون براندو على الإطلاق. على الأقل من ناحية الحجم.

انتبهت لوجود قط دخل معها. قط بأذنين صغيرتين، لونه مزيج من الزيتوني والأسود. كان يمشي بثقة ويتبختر معها كما لو كان مرافقًا شخصيًّا لها.

كانت قصيرة، ربما لا يتجاوز طولها مترًا ونصف المتر، لكن لها هيبة وحضورًا واضحين. ربما هنا تشترك مع (العراب). وجهها لا يزال يحمل أثرًا لجمال كان له حضور أكبر حتمًا في شبابها. تمشي منتصبةً رغم وجود عكازة في يدها. حاول يحيى أن يساعدها لكنها تجاهلته بحزم. جلست على مقعد كبير يتوسط الصالة بالضبط مقابل الصورة الكبيرة للجد. بدت على كرسيها كما لو كانت امتدادًا مجسدًا للصورة، كما لو أنها خرجت من الصورة على الحائط داخل الإطار وجلست على الكرسي.

اقتربت منها وأنا أمد يدي لمصافحتها. تصورت أن ذلك هو المناسب في هذه الأحوال. لكنها رفعت يديها فورًا إلى رأسي وأنزلته ليكون بمستواها ووضعت قبلةً على جبيني بحركة سريعة.

قالت شيئًا لم أفهمه عن طولي. كررته مرتين. «قُبَّان طولك». أعتقد. جفلت من حميمية اللقاء. لم أكن متوقعًا ذلك.

هذا لن يفعله العراب.

تنحنح يحيى وعرفني على سيدة دخلت بعد الحاجة.

- عمتك باكزة.

سلمت على عمتي وتوقعت أن تكون حميمية مثل الحاجة عادلة. كانت أكثر حذرًا، مثلها مثل كل من قابلت في الموصل حتى الآن. وحدها الحاجة عدلة كانت مختلفةً.

ثم أشار يحيى إلى سيدة دخلت بعد الحاجة وعمتي.

- أسماء، زوجتي، أم جنيد، ابنة عمتك باكزة ووالدها ابن خال والدك الدكتور المرحوم عبد الله المفتي.

سلمت أسماء بترحاب. كانت محجبةً ووجهها مملوء بالمكياج ومحقون بالبوتوكس على نحو واضح. في الغالب كانت أجمل بكثير قبل الحقن.

قفز القط ليجلس في حجر الحاجة عادلة براحة.

قالت أسماء: «هذا لوز. واحد من أفراد العائلة».

أما الحاجة عدلة فقالت كما لو كانت تتحدث مع نفسها: «يشبه أبونو[1]، بس يشبه *أبويي أكثغ*»[2].

تقصد لوز أم تقصدني؟

أشارت إلى الصورة الكبيرة التي تتوسط الحائط خلفها.

---

(1) أبونو: أبوه باللهجة الموصلية.

(2) أكثغ: أكثر باللهجة الموصلية.

- يونس باشا. جد والدك.

قالت لي كما لو أنها تعرفني عليه. توقعت أن تعرفه عليَّ أيضًا، تقول له: «هذا صهيب حفيد نافع».

لم تفعل، بل أخذت تتحدث عنه كما لو كانت تحكي لي قصةً من قصص الأطفال قبل النوم. نهضت عن مقعدي واقتربت من الصورة على الجدار لأرى إن كان هناك شبه بالفعل. كان يشبه والدي أكثر. لكن مع كل معلومة كانت الحاجة عادلة تقولها عنه كانت الصورة تزداد وضوحًا. تزداد ألوانًا وبريقًا ويزداد الرجل الواقف فيها هيبةً وتأثيرًا.

كان ضابطًا وصل إلى رتبة الباشوية في الجيش العثماني. شارك في حرب البلقان الأولى وساهم في فك الحصار عن مدينة أدرنة، وفقد ساقه خلال ذلك ونال أوسمةً من الدولة العثمانية. عندما انتصر البريطانيون على العثمانيين ودخلوا بغداد، كان هو آمرًا لحامية الموصل، ولم يعتبر أن الموصل قد أصبحت تحت سيطرة الاحتلال البريطاني لأن الجيش البريطاني لم يدخل الموصل، وبقي كذلك مستقلًّا بحامية الموصل أربع سنوات إلى أن قامت الدولة العراقية. ثم كان من مؤسسي الجيش العراقي الأوائل، وأحد رؤساء أركانه. كما كان من أهم داعمي بقاء الموصل ضمن العراق عندما طالبت تركيا بضمها إليها، وكان من أبرز الداعين للمشاركة بالاستفتاء بين أعيان الموصل لصالح العراق عام 1925.

«لولاه، لربما كانت الموصل اليوم جزءًا من تركيا، لا نعرف كيف سيكون العراق دون جهوده ووجوده، بل لا نعرف إن كان يمكن أن يكون هناك عراق دون الموصل».

كانت تتحدث عن كل شيء كما لو كانت قد حضرت حصار أدرنة أو حرب البلقان أو معركة الكوت حين انتصر البريطانيون أو في الاستفتاء في عام 1925.

كنت أعرف تمامًا أنها لم تحضر أيًّا من هذه الأحداث، وأن كل ما قالته كان منقولًا من ذكريات والدها، ربما المشحونة بالعاطفة والفخر وحتى الفوتوشوب. رغم ذلك، كانت مقنعةً بحديثها الهادئ.

تحدثت بفخر وحب شديد واضح في كل كلمة تقولها. كان هناك ظل ابتسامة على وجهها وهي تتحدث عن والدها.

لكن بعيدًا عن كل حذري مع المعلومات التي قالتها، كان الأمر كله (واو) فعلًا. كل تلك المعلومات كانت باهرةً فعلًا. هذا ملف مهنيٌّ ضخم جدًّا. كيف لم يتذكر والدي أن يقول أي شيء عن جده؟ حتى ولو عن طريق المصادفة. كيف نسي أن يقول لي شيئًا عن ذلك عندما شاهدنا مثلًا فيلم حقول القتل أو بلاتون؟

بالتأكيد لم ينسَ. لم يقل ولم يخبرني بشيء عامدًا متعمدًا. كان قد قطع علاقته بكل شيء أو أوهم نفسه بذلك.

قطع ذلك كله صوت جاء من ورائي ملقيًا التحية.

عندما التفت وجدت السيدة نفسها التي لمحتها أمس بعد العرض. كانت معها طفلة في العاشرة أو أقل تقريبًا.

مدت يدها مصافحةً وعلى وجهها ابتسامة.

- سَفانة آل يونس، ابنة عمتك المرحومة عالية. حمدًا لله على السلامة. شرفت ونورت الموصل.

سفانة؟ أول مرة أسمع بالاسم.

قالت الحاجة عادلة وهي تشير إلى الطفلة: «وهذه ابنتها ليلى».

قالت سَفانة كما لو أنها تصحح الاسم: «أو لِلي. لا فرق».

حاولت أن أسلم على الطفلة لكنها اختبأت خلف والدتها.

خلال ذلك وجدت القط لوز يتسلل ويجلس في حجري كما لو أنه يعرفني حق المعرفة.

قالت الحاجة: «أرأيتم؟ لوز يميز آل يونس».

نجحت في إثبات نسبي لآل يونس عبر لوز. شكرًا لوز.

التفتت الحاجة وقالت لي: «جدك نافع وجد والدك يونس باشا كانا معروفين بتربية القطط أيضًا».

تذكرت كره أبي للقطط. تذكرت عندما أصر على رفض طلبي لجلب قطة إلى المنزل، وتكراره: «كلب نعم، قط لا». هذه قطيعة أخرى متعمدة ولا بد.

سألتني الحاجة عادلة سؤالًا كنت أستعد له بصيغة أخرى منذ اليوم الأول.

كنت مستعدًّا لسؤال: «هل أنت متزوج؟»، ومن ثم سؤال: «لم لا؟».

وكان الجواب الذي أعددته بسيطًا: «لا. لم أجد بنت الحلال». هكذا يرد العرب في أمريكا على الموضوع وأعتقد أنه سيكون ملائمًا في الموصل أيضًا.

الحاجة عادلة سألت ببساطة: «كم ولد وبنت عندك؟ أشقد[1] أعمارهم؟».

ارتبكت. أخرجت جوابي المعَد سلفًا: «لم أجد بنت الحلال بعد».

---

(1) أشقد: كم.

قلبت الحاجة شفتيها: «رجال آل يونس نقناقيون[1]، لا يرضون على شيء. لولا إلحاح نساء آل يونس عليهم ما تزوج واحد منهم».

أنقذتني سَفانة وهي تقول للحاجة عادلة: «المائدة جاهزة، نأكل الآن؟».

***

كانت المائدة قاتلةً، قاتلة حرفيًّا.

لم أميز أغلب الأصناف، كما لو كانت والدتي قادمةً من ثقافة أخرى. باستثناء الدولمة وكبة الموصل طبعًا.

قالت لي الحاجة عدلة إن والدي كان يحب أكلة (الشركسية) التي اشتهرت بها. لم أكن قد سمعت بها واستغربت من مكوناتها التي بدت لي غريبةً عما عرفته من المطبخ العراقي، فقالت لي إنها تعلمتها من جدتها التي عاشت شطرًا من حياتها في إسطنبول. فهمت أيضًا أن هناك اختلاطًا كبيرًا لم أكن قد سمعت عنه مع عوائل من حلب. أم يونس باشا كانت حلبيةً وكذلك كانت جدة أبي لأمه.

كان الجو على المائدة غريبًا؛ خيم الصمت ولم يعد هناك غير صوت الملاعق والصحون. سألني يحيى عن إجادتي للغة العربية فأجبته أن والدي أصر على أن آخذ دروسًا خصوصيةً في العربية، ثم أخذت العربية كتخصص فرعيٍّ عندما درست في الجامعة.

ثم عاد الصمت. هذه المرة بتوتر أكبر، كما لو أن الإشارة إلى والدي قد كهربت الجو.

أنقذت أسماء زوجة يحيى الموقف. أو هكذا تصورت، عندما سألتني إن كانت جامعة هارفرد تدرس علوم الطاقة. تصورت أنها تقصد هندسة

(1) نقناقي: كثير التدقيق صعب الإرضاء.

الطاقة أو الطاقة المتجددة أو البديلة، لكن اتضح أنها تقصد علم الطاقة المزيف، الريكي الذي تنتشر خزعبلاته على الإنترنت.

قلت لها إن هذه العلوم زائفة وإنها لا تدرس في أي جامعة محترمة سواء كانت هارفرد أو غيرها. لاحظت نظرة شماتة من سَفانة، لكن أسماء أخذت الأمر على نحو شخصيٍّ وأكدت لي أنها حازت أكثر من دبلوم في علم الطاقة وأن أحد المدربين كان زميلًا لي في هارفرد.

قالت هذا: «زميل لك في هارفرد».

حاولت عدم الرد، ولكنها أصرت على محاولة إقناعي بحقيقة علم الطاقة، وقالت لي إن هالة الطاقة حولي واضحة جدًّا وإنها شاهدتها فور أن وقعت عيناها عليَّ وإن طاقتي تشبه تمامًا هالة الطاقة التي كانت حول (عما[1] ناثر)، الله يرحمه.

لم أعرف كيف أعلق، فنظرت إلى يحيى مستنجدًا. لكنه كان يصب لي المزيد من الطعام كما لو كان يتهرب من نظراتي أو يعتذر لي عما تقوله أسماء بالدولمة والكبة.

قالت عمتي باكزة لأسماء بنبرة ساخرة: «خبرينو[2] على الشجرة المسيحية في حديقتكم».

ردت أسماء بحماس: «بالتأكيد. تعلمت في دبلومة الطاقة الحيوية الشفائية أن الأشجار يمكن أن تستمد الطاقة من القرآن وتزهر وتثمر أكثر، وجربت ذلك على أشجار الغاردينيا في الحديقة عندي، وبالفعل تحقق ذلك وأنتجت ورودًا لم نرَ مثلها ولا في اليوتيوب، إلا مع شجرة

(1) عما، هي عمي أو عمو باللهجة الموصلية.

(2) خبرينو: أخبريه باللهجة الموصلية.

واحدة، فجربت معها أن أشغل مقاطعَ لتراتيل كنسية من اليوتيوب، وفعلًا نجحت التجربة».

- والتينة الي ماتت؟ كانت يهوديةً ولا أشنو؟[1]

سألت سَفانة بنبرة تهكمية واضحة.

«الموت حق على الجميع، ليس شرطًا أن تكون يهوديةً» قالت أسماء بتحدٍّ.

«أو يمكن أن تكون قد ألحدت» قلت أنا بتهكم.

استغربت من نفسي لأني أزلت الحواجز بسهولة. شعرت فجأةً أني جزء من عائلة عشت حياتي وأنا لا أعرفها.

- أعرف أنكم لا تصدقون، لكن هذه حقيقة. هل تذكرون عندما ماتت أشجار الغاردينيا في حوش البيت الكبير عندما اختفى عما ناثر؟ كيف يمكن أن يكون هذا مصادفةً؟

تدخلت الحاجة عدلة التي كانت صامتةً طيلة النقاش.

قالت بحسم: «ما هذا الكلام السخيف؟ ما علاقة الغاردينيا بما حدث لناثر؟ لا بد أننا نسينا سقيها في أثناء ما حدث. أي طاقة وأي كلام فارغ؟».

بدت لي الأكثر عقلانيةً وحسمًا بينهم.

سكتت أسماء وعاد الصمت.

كان هناك فيلان على الأقل يجلسان معنا على المائدة، يحتلان الغرفة بأكملها. لكننا فضلنا أن نتجاهلهما للحديث عن أوهام وخرافات الطاقة والغاردينيا المسيحية والتينة الملحدة.

ومدح الدولمة وطبق شركسية الحاجة عدلة، بالطبع.

(1) أشنو: ماذا باللهجة الموصلية.

الفيل الأول، هو فيل القطيعة التي جعلتنا نلتقي كغرباء يتعارفون على بعضهم لأول مرة وأصغرهم تجاوز الأربعين من العمر.

الفيل الثاني، داعش وما فعلته بالمدينة، وكل ما قاد إلى هذا الاجتماع.

كانت الحاجة عدلة هي أول من قرر أن يتحدث عن الفيل الأول.

- أشوني[1] أمك؟

سألتني مع نظرة ذكرتني بما قالته أمي عن نعومتها.

«ناعمة وحادة، مثل شيفرة سكين».

- أمي بخير. ضغط وسكري ومشكلات في الفقرات، لكنها بخير. تقاعدت عن العمل منذ سنوات طويلة. تعيش معي في فرجينيا.

هزت رأسها هزةً محايدةً دون أن تقول شيئًا.

تشارك الباقون بكلمات المجاملة العادية: «سلامتها، ألف سلامة».

قالت عمتي باكزة إن لديها كل ما سبق، وأضافت: «هشاشة العظام ومشكلات في الكلية».

لم تترك الحاجة عدلة الحديث يذهب إلى المشكلات الصحية لأفراد الأسرة.

وجهت الحديث إليَّ: «كنت قد التقيتها مرةً واحدةً».

لا تزال تتحدث عن أمي؟

لم أرد؛ لم أعرف بمَ أرد.

أكملت: «في لندن. التقيتها في لندن. ذهبت خصيصى لكي ألتقيه هناك».

في لندن؟ ذهبت إلى لندن خصيصى لكي تلتقي أمي؟

---

(1) أشوني: كيف هي، كيف حالها.

سكتُّ. لكني واثق بأن وجهي كانت عليه علامات الدهشة والمفاجأة.

- لم تخبرك بذلك؟

هززت رأسي بالنفي. تخيلت اللقاء بين زعيمة عصابة آل يونس وأمي على نهر التايمز والضباب يلف جسر ويستمنستر وساعة البيج بين تدق على الضفة الأخرى.

- وكيف سار الأمر؟

كان سؤالًا لا معنى له؛ نعرف جميعًا كيف سار الأمر.

- عندما أنظر إلى الأمر الآن، أراه سار بشكل رائع. أفضل بكثير مما كنت أتوقع.

سعل يحيى. أما أنا، فقد عقدت المفاجأة لساني. رأيت نظرة من سَفانة كما لو كانت ترى وقع كلمة الحاجة عادلة عليَّ.

أكملت الحاجة: «لو أن الأمر سار يومها كما كنت أرغب، وكما كان يرغب كل آل يونس، لما كنت جئتَ إلى العالم يا صهيب. لكن ربك وحكمته، أراد ألا يسير الأمر وقتها، ربما لكي يسير الآن».

قالتها بغموض. وجهها نصف مبتسم ونصف جاد.

لم أفهم ما قالت. ما الذي يمكن أن يسير الآن؟ ولماذا ما حدث كان أفضل لآل يونس؟

قال يحيى: «بالتأكيد نحن فخورون بك وبكونك ابن عمي نائل».

قالها كما لو كان يسأل الحاجة عادلة إن كانت تقصد هذا الشيء.

فهمت الحاجة ما يقصد يحيى.

- أنا أفخر بكم جميعًا الحمد لله. لكن قدر ربك شاء للأمور أن تسير على نحو أكبر بكثير من مجرد فخرنا وفرحنا بكم.

نظر إليَّ يحيى كما لو أنه يسألني: «هل فهمت شيئًا؟».

كنت أحتاج إلى من يفهِمني ما تقصده.

غالبًا كانت تتعمد هذا الغموض.

- أعتقد أن ما حدث، سيجعلنا لا نطوي الصفحة فقط، بل نمزقها.

قالت عمتي باكزة: «الدم ما يصيغ[1] ماي. تبقى ابننا. الله يرحم أباك. والله ما يمر يوم دون أن أذكره في دعائي».

عم الصمت مجددًا، كما لو أن أحدًا لم يصدقها.

فكرت، لقد قالت: «أذكره في دعائي»، لم تقل إنها تدعي له. ربما كانت تدعي عليه.

قالت سَفانة كما لو كانت تريد أن تقطع الصمت: «جرب العغوق[2]. عغوق عمتك باكزة لا يعلى عليها».

كنت قد تجاوزت نقطة الشبع بعد الدولمة والقوزي. دخلت في مرحلة الامتلاء بعد الشركسية، والآن على وشك الخروج منها والولوج إلى مرحلة الانفجار.

أسماء هي من أُوكل إليها مهمة كسر الصمت، أو أوكلت لنفسها ذلك.

سألتني دون أي مقدمات، غير الصمت المحرج: «دكتور صهيب، أي برج أنت؟».

بدا السؤال منطقيًّا حسب سؤالها السابق.

- أنا من مواليد برج الجدي.

«عرفت والله. قلت في نفسي الدكتور جدي». قالت بفرح كما لو أنها فازت بجائزة.

---

(1) يصيغ: يصير باللهجة الموصلية.

(2) العغوق: العروق، أكلة موصلية مكونة من البرغل واللحم المفروم.

الدكتور جدي؟ شكرًا.

- أي يوم في الجدي؟

- 8/ 1

«صدقًا؟ تقول الصدق؟». قالت أسماء.

بدا على وجه يحيى الاستغراب.

قالت سَفانة: «أليس هذا يوم عيد ميلادك نفسه يا يحيى؟».

هز يحيي رأسه مع ابتسامة محرجة.

«عم تتحدثون؟ لم أسمع جيدًا». قالت الحاجة عدلة.

رفعت سَفانة صوتها: «صهيب ويحيى وُلدا في اليوم ذاته يا عمة».

- صحيح؟ بفارق كم سنة؟

التفتت إليَّ الحاجة وهي تسألني.

- أنا من مواليد 8/1/ 1979. لا أعرف عن ولادة يحيى.

ردت أسماء فورًا: «1982».

بدا على الحاجة أنها تفكر ثم ارتفع حاجباها في استغراب.

نظرت إليَّ كما لو أنها تريد تأكيدًا مني وسألت: «متأكد؟ 1979؟ الشهر الأول؟».

كان هذا من أغرب الأسئلة التي طُرِحت عليَّ طيلة حياتي.

- نعم، متأكد تمامًا. 1979/1/8.

أطرقت الحاجة عادلة بصمت.

استلمت أسماء دفة قيادة الكلام مجددًا.

- والله العظيم في اللحظة التي دخل فيها الدكتور عرفت أنه جدي.

«ما هذا الكلام يا أسماء؟». قال لها يحيى بتأفف.

- ماذا؟ واضح جدًّا عليه صفات الجدي: المثابرة والطموح والإخلاص وحب العمل والعناد. مثلك بالضبط.

عرفت كل هذا عني في اللحظة التي دخلت فيها. رهيبة هذه الأسماء.

- بالمناسبة يا دكتور، هذه الفترة ممتازة بالنسبة إليكم يا برج الجدي؛ زحل سيدخل في هذه الفترة وسيجعلكم تحققون كل ما تخططون له.

«أسماء، الدكتور لا يؤمن بهذه الخرافات، ولا أنا ولا أي أحد من الجالسين باستثنائك» قال يحيى بصوت منخفض وهو يكز على أسنانه.

- ماذا تقول؟ خرافات؟ هذا علم. علم الفلك.

هذا كثير.

«يسمونه تنجيمًا وليس علم الفلك». قلت وأنا أحاول الاحتفاظ بأعصابي.

- لن نختلف على الأسماء دكتور. المهم أنه علم.

كلمة أخرى وستؤكد لي أنه علم يدرس في هارفرد وأنها أخذت دورة أبراج عند زميل لي.

«هل تؤمنين أيضًا أن الأرض مسطحة؟». سألتها بصوت جاد.

أشرق وجهها.

- أنت أيضًا يا دكتور؟ الحمد لله. أقول لهم منذ سنوات إن الأرض ليست كرويةً كما تدعي مؤسسة ناسا، وكانوا يضحكون مني. الآن شهد شاهد من أهلها. الحمد لله.

وبينما تتحدث التفتت إليهم بشماتة. عرفت الكثير من الأغبياء الواثقين بأنفسهم، لكن أسماء في مرحلة مختلفة؛ أصبحت فجأةً مؤمنًا بأن الأرض مسطحة وصارت تستشهد بي لتدافع عن ذلك.

- لا، ليس الأمر كما تتصورين. سألتك فقط لأن الطاقة والأبراج تأتي معها الأرض المسطحة. الدجل يأتي في حزمة واحدة.

«قصفت الجبهة يا دكتور». قالت سَفانة.

لم أفهم ماذا تعني، ولكن لهجة الشماتة كانت كافيةً للتوضيح.

- دجل؟ سامحك الله. الأرض مسطحة يا دكتور؛ كل الدلائل تشير إلى ذلك وبالأدلة المقنعة. يمكنني أن أرسل إليك فيلمًا علميًّا موجودًا على اليوتيوب.

- لا. لا يوجد شيء كهذا، ولا بعد مليون سنة.

- عنيد، قلت لكم برج الجدي عنيد.

- وما برجك أنت؟

- أنا برج الثور. عادي.

«كفى يا أسماء». قال يحيى بحزم وبصوت أعلى من المرة الماضية.

هنا دخل شاب يبدو في العشرين، يشبه يحيى كثيرًا. تقدم من الحاجة وقبل يدها فورًا.

قال يحيى بفخر: «ابني جنيد، السنة الثانية في كلية الطب، الأول على دفعته».

تقدم مني مرحبًا وصافحني مبتسمًا بحرارة.

قالت أسماء: «لم نعد نراه، ونادرًا ما يحضر هذه التجمعات؛ منذ أن دخل كلية الطب وكل يوم (غدًا عندي امتحان)».

لا يزالون يقدسون الطب. كم حاول أبي أن يأخذني إلى معبد الطب!

قبل جنيد يد عمتي باكزة وقال لها: «ستا»[1]. تذكرت أنه حفيدها.

(1) ستا: جدتي باللهجة الموصلية.

عندما أخذ مقعده أكملت سَفانة الحديث الذي كنا نتناقش فيه قبل دخول جنيد.

- لم تكن أسماء هكذا قط. نتعامل هنا مع نتائج داعش.

أخيرًا هناك من أشار إلى وجود الفيل الآخر في الغرفة. شكرًا يا ابنة عمتي. أم تراها ابنة عمي؟ لكن ما علاقة الطاقة والأبراج والأرض المسطحة بداعش؟ أم أن الخرافات كلها تأتي حزمةً واحدةً لهذه الدرجة؟

«أزعل منك يا سَفانة. الأمر ليس هكذا». قالت أسماء بعتب.

هز يحيى رأسه وقال: «إذا كان هذا من نتائج داعش، فهذا أهون النتائج على الإطلاق».

«قصدت أن هذه الاهتمامات جاءت بعد خروج داعش». قالت سَفانة وهي تحاول أن ترقع ما فتقته.

قالت الحاجة عادلة بصوت بدا لي كما لو كان قادمًا من بئر عميقة: «لعنهم الله ولعن كل من أوصلهم إلى الموصل وساعدهم في ذلك».

قال الجميع فورًا: «آمين».

التفتت إليَّ الحاجة.

- لم أكن أعتقد في حياتي إني سأرى أسوأ مما حدث أيام ثورة الشواف. لكن ما رأيناه مع داعش فاق كل شيء. ثلاث سنوات مرت على الموصل أصعب من كل ما مر من كوارث مجتمعة منذ ربما ألف سنة.

أكمل يحيى: «إعدامات لكل من تعامل مع الحكومة أو عمل في الجيش أو الشرطة أو ترشح في الانتخابات أو عمل في ممثلي الانتخابات أو مجلس المحافظة. عقوبات على ألوان الملابس والتدخين وسماع الأغاني. استعمال الجوالات كان يمكن أن ينتهي بالإعدام بتهمة

التواصل مع القوات الأمنية. الإنترنت توقف فورًا بطبيعة الحال، مُنِعت صحون التقاط القنوات الفضائية وكانت هناك عقوبات بالجلد على من يستعملها. الرجال يعاقَبون بالجلد أيضًا إذا كانوا بلا لحية أو ظهرت علامات لتخفيف اللحية، أو إذا كانت بناطيلهم طويلة بحيث تصل إلى الكاحل. سَفانة مثلًا تعرضت للعض لأنها لم ترتدِ القفازين في يديها.

كل ما سمعته كان صدمةً. لكن العض صدمني أكثر.

- العض؟ هل ما سمعته صحيح؟

ردت سَفانة: «نعم العض».

- لديهم آلة أو جهاز يقوم بالعض؟

نظر إليَّ الجميع وضحكوا بشدة.

- آلة؟ لا. كانت هناك نسوة يقمن بمهمة العض يمشين مع شرطة الحسبة، اسمهن (العضَّاضات). يخيرون من تخالف الملابس الشرعية بين الجلد أو العض. العضَّاضة التي قامت بعضي كانت روسيةً. الله لا يوفقها إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ويحرقها في نار جهنم إذا ماتت.

- عضَّاضة روسية؟ امرأة روسية وظيفتها العض؟

كنت لا أصدق ما أسمع.

كأمريكيٍّ كانت للروس سمعة سيئة في ذهني، سواء من فترة الحرب الباردة في طفولتي أو ما تلاها من انتشار عصابات المافيا الروسية، لكن هذا المشهد جمع الأسوأ في العالم: الروس وداعش.

- كانت هناك عضَّاضات عراقيات وعربيات أيضًا للأمانة. لكن الروسية كانت أشهرهن، وعضتها كانت تقود للمستشفى. عضتني من ذراعي حتى أدمتني؛ التهب مكان الجرح وكانت قصةً.

قالت سَفانة بسخرية مريرة.

علقت أسماء: «لم أخرج قط من البيت طيلة سنوات داعش، عدا الفترة الأولى. لكن عندما أعلنوا تطبيق (اللباس الشرعي) لم أخرج. جاءت أمي عندي ولم نخرج. طبقتان من الخمار تغطي الوجه والعينين، لباس فضفاض واسع، جوارب سوداء، كفوف. كله بالسواد. والتطريز أو الزينة أو أي لون آخر يعرض المرأة أو من معها للعقوبة: جلد للرجل وجلد أو عض للمرأة. كانوا يخيرون المرأة في نوع العقوبة. حرية يا عمي. اش تغيدون أكثغ؟».[1]

لم أعرف بماذا أعلق؛ بدا الموضوع مثل كوميديا سوداء. لو اختارت وسائل الإعلام الأمريكية أن تشوه سمعة داعش لما استطاعت أن تملك أفكارًا إبداعيةً كهذه.

قال يحيى: «قضينا أسوأ ثلاث سنوات في العمر. وآخر ثلاثة أسابيع كانت الأسوأ في أي حياة يمكن أن يعيشها بشر. الجميع في السرداب. لم نخرج من السرداب لثلاثة أسابيع إلا للضرورات القصوى. لا أعرف كيف نجونا. لعنة الله عليهم وعلى من أوصلهم وساعدهم».

قال الجميع مجددًا: «آمين».

سألت: «من أوصلهم إلى الموصل؟».

اتجهت إليَّ أنظار الجميع كما لو أني سألت سؤالًا عن أمر معروف بداهة للجميع بحيث يبدو مجرد السؤال تشكيكًا بالبديهيات.

مرت لحظات من صمت مستفز ومتوتر.

«ولو يا دكتور، هل هذا سؤال؟ ألا تعلم من أوصلهم إلى الموصل؟». قال يحيى بنبرة استنكارية.

---

(1) اش تغيدون أكثغ: ماذا تريدون أكثر من هكذا حرية؟

- سؤالي جاد فعلًا. من أوصل داعش إلى الموصل؟

«أوصلهم من أنشأهم أصلًا». قالت سَفانة.

«من أنشأهم أصلًا؟». قلت بجدية.

هنا تحولت نظراتهم من الاستغراب والتوتر إلى الاتهام. كيف تجرأت على طرح سؤال كهذا؟

- أمريكا طبعًا.

أها. نظرية المؤامرة مجددًا. أسماء ليست الوحيدة في ذلك.

فهمت الآن نظرات الاتهام. أنا في قفص الاتهام أصلًا؛ جنسيتي ونشأتي الأمريكية تضعانني في القفص فورًا. كل ما ينقصني هو أصابع الاتهام من الجميع لكي يكتمل المشهد. الحمد لله، الأصابع بقيت في أماكنها. النظرات قامت بالعمل كله وعلى أكمل وجه.

لم أعرف ما عليَّ فعله الآن. أحاول مناقشة ما يبدو أنه غير قابل للنقاش؟ أعتذر؟ أعبر عن أسفي؟ أؤيدهم في الأمر؟

- تعرفون طبعًا أن الأمريكيين كشعب لا يمثلون سياسة أمريكا الخارجية ولا يؤيدونها بالضرورة؟

قلت ذلك متلعثمًا وأنا لست متأكدًا من أنهم يعرفون ذلك، رغم أني تعاملت معه كما لو كان حقيقةً معلومةً للجميع، وقلت «طبعًا» لكي أؤكد ذلك.

«أفهم أن يقال ذلك عن الناس في كوريا الشمالية. لكن أمريكا؟ ما الفكرة من الانتخابات أصلًا؟» قالت سَفانة.

حتى أنتِ يا سَفانة؟

- غالبية الناس في أمريكا، كما في كل العالم، تفكر في أحوالها الاقتصادية أكثر مما تفكر في الأوضاع التي تسببها حكوماتها

خارجيًّا. بالتأكيد هناك ناس تؤثر السياسة الخارجية على اختياراتهم في الانتخابات، لكن في النهاية هم أقلية. وحتى لو كان ذلك خيارًا أكثر شعبيةً، فالسياسة الخارجية عند المرشحين المتنافسين متشابهة جدًّا.

«هذا لا يعفي أحدًا من المسؤولية القانونية والأخلاقية». قالت سَفانة بثقة.

قالت الحاجة عدلة بفخر: «سَفانة محامية شاطرة جدًّا. من أهم المحامين في الموصل».

انتبهت إلى أنها قالت المحامين وليس المحاميات. مظهرها يوحي بذلك بالفعل.

كان عليَّ أن أقول شيئًا لأحسن من وضعي القانوني والأخلاقي أمام المحامية. أعرف أن الأمر صعب مع المحامين، لكني معماري؛ عليَّ أن أصمم طريقةً للخروج من القفص.

- لكن ماذا تستفيد أمريكا من ذلك؟
- المغناطيس طبعًا. كما فعلت في أفغانستان؛ استعملت أمريكا القاعدة لتجذب كل من يتبنى هذا الفكر إلى هناك.

هذه المرة كان يحيى هو من يتسلم دفة المدعي العام.

- لكن هذا يعني أن هذا الفكر موجود، وأن هناك من يمكن أن يتأثر به لدرجة الانضمام إليه والقتال من أجله؟

قلت هذا وأنا أضمر أن أقول أيضًا إن حدوث المغناطيس في أفغانستان لا يعني بالضرورة تكراره في الموصل. ربما أفلتت الأمور من يد أمريكا هذه المرة.

«الفكر موجود طبعًا. موجود منذ مدة طويلة. لكننا نتحدث عن تنظيم مزود بسلاح واستراتيجيات ووسائل إعلامية، ولقي حتمًا تسهيلات دولية وإقليمية إلى أن وصل إلى ما وصل إليه، ثم قضوا عليه وعلينا معه». قالت سَفانة الجزء الأخير بمرارة.

فكرت: «قضوا عليكم؟ كيف؟».

«لكن هذا يجعل أمريكا واحدةً من العوامل التي قادت لنشوء داعش، وليست العامل الوحيد». قلت هذا على سبيل الجدال ولكسب نقاط في النقاش لا أكثر. السياسة بنت كلب، والبيت الأبيض لا تسكنه الملائكة، ولا أحد ممن سكنه يكترث لشيء إلا للمصالح التي أوصلته إلى هذا البيت. شعوب العالم الآخر ليست في حساباتهم. لكن، قد تفلت الأمور من يدي أمريكا، وقد تخطئ أمريكا في حساباتها. خيِّل لي أن هذه الحقيقة على بساطتها غائبة عن الجميع على مائدة الغداء هنا.

«العامل الأساسي. كل العوامل الأخرى أدوات تأتي تباعًا». قالت سَفانة.

- وجهة نظر طبعًا. لكن كمحامية، تحتاجين إلى أدلة تحول وجهة النظر إلى اتهام حقيقي.
- هذه سياسة. لن نرسل البصمات إلى البحث الجنائي، وتعود إلينا النتائج بإشارة إلى مدير المخابرات المركزية الأمريكية.
- لا طبعًا. لكن هناك وثائق يجب أن تثبت ذلك، وغالبًا هذه الوثائق لو وُجدت أصلًا فستكون سريةً إلى عقود قادمة.
- الوثائق تؤكد أن أمريكا خلقت فرانكشتاين في أفغانستان لتحارب به الاتحاد السوفياتي، لكن هذا الفرانكشتاين انقلب عليها، فخلقت نسخةً أخرى منه لتقضي عليه تمامًا.

كنت موافقًا على الجزء الأول من الجملة، لكني لست متأكدًا من صحة الجزء الثاني.

- حتى فرانكشتاين لم يُخلق من العدم؛ كان تجميعًا من أجزاء بشرية. فلو صح التشبيه، فإن أجزاء هذا التنظيم كانت موجودةً أصلًا.

- موجودة، ولكنها لم تتحول إلى أداة للإجرام إلا عندما وجدت من يجمعها.

كنا قد وصلنا إلى مرحلة الجدل وسؤال: «من الأول؟ البيضة أم الدجاجة؟»، لم أستخدم المثل لأني أعرف أن الجدل حُسِم علميًّا. البيضة أولًا.

سألت: «هل هذا الرأي مجمع عليه في الموصل؟ هل أمريكا هي السبب في رأي الجميع؟».

رد يحيى بعد صمت قصير: «هناك من يعتقد أن إيران وراء داعش، وكثيرون ممن يرون أن أمريكا هي السبب يعتبرون أن أمريكا وافقت على أن تقوم إيران بذلك».

إما إيران وإما أمريكا إذن. شعرت أني داخل فيلم مخابراتي كثير الالتواءات.

سألت سَفانة الحاجة عادلة إن كانت تفضل أن نأخذ الشاي هنا أم في الطارمة[1]؟

فأشارت الحاجة عدلة بيدها. ما فهمته أنها تفضل الخيار الثاني الذي لم أفهمه.

(1) الطارمة: الشرفة.

خرجنا إلى ما يشبه الشرفة المطلة على حديقة خلفية كانت مفاجأةً بالنسبة إليَّ لأني لم أتخيل وجودها بهذا الحجم. كانت الشرفة مضللةً بنباتات متسلقة بدت لي أوراقها كما لو كانت أوراقًا للعنب.

قالت سَفانة: «الشاي لا يطيب للحاجة إلا هنا».

ردت الحاجة: «أو في حوش البيت الكبير. لدينا قمرية مثل هذه بالضبط هناك».

خمنت أن القمرية هي هذا المكان المظلل.

قال يحيى مستدركًا: «الله أعلم إن كانت لا تزال موجودةً».

كانت هناك نظرة عتب في عيني الحاجة موجهة إلى يحيى.

خفت أن تأخذ أسماء الحديث مرةً أخرى إلى ما لم تتحدث به بعد من خرافات، الجذب مثلًا؟ أو تحضير الأرواح؟ فقلت قبل أن تقول أي شيء وقبل أن يأتي الشاي: «اسمحوا لي أن أعود إلى داعش؛ الموضوع يثير فضولي واهتمامي بالفعل. سأفترض أن أمريكا جندت قادة التنظيم الكبار لتنفيذ أجندتها، لكن ماذا عن الناس الذين أيدوا التنظيم؟ هؤلاء طبعًا لم يؤيدوه بناءً على أوامر من أمريكا».

قال يحيى بحسم: «أهل الموصل الأصليون لم يؤيدوا داعش قط».

شدد على كلمة «الأصليون» بطريقة أحسست أنها مقصودة. بدت لي كما لو كان يتحدث عن سكان أمريكا الأصليين قبل كولومبوس.

- الأصليون؟ من هم الأصليون؟

تدخلت سَفانة: «يقصد يحيى كل من سكن أجداده الموصل منذ مئة سنة أو أكثر. أي أحد جاء أبوه أو جده أو جد جده من القرى المحيطة بالموصل ليس أصليًّا. حسب يحيى حتى لو سكنها منذ مئة سنة».

ثم أكملت: «أستغرب منك هذا الكلام أنت بالذات يا يحيى. أهل الموصل الأصليون لم يؤيدوا داعش؟ لو أن غيرك قالها!».

قالت «لو أن غيرك قالها» بصوت ونبرة مختلفة، كما لو أنها تقول له: «لا تجبرني على الكلام».

تغير وجه الحاجة عادلة، ولكنها لم تقل شيئًا واستمرت في الصمت.

- ماذا تقولين يا سَفانة؟ أقلية جدًّا فقط هي من أيدتهم. غالبية المؤيدين كانوا من العريبان. من أيد داعش من الموصل كانوا الساقطين من الناس فقط.

- هل تريد أن أعدد لك الأسماء؟ أسماء من عوائل عريقة أيدت داعش. لم يكن مفتي داعش الذي أفتى بإعدام آلاف الأبرياء قرويًّا. هل تريد أن أذكرك باسم عائلته؟ أم أسماء آخرين من عوائل أهم؟

أحسست أن النقاش كان شخصيًّا وملغومًا من أكثر من جهة.

- مهما عددت سيبقون أقليةً. أنتِ تعرفين أن الموصل مبتلاة طول عمرها بهم؛ لم تمر بكارثة إلا وكانوا سببًا فيها أو ساهموا فيها.

- قائمة ابتلاءات الموصل كثيرة. من ضمنها هذه النظرة المتعالية.

تدخلت عمتي باكزة لأول مرة: «بيت الحبَّال أجبروا زوج ابنتهم على تطليقها لأنه بايع داعش».

كانت هناك نظرة معينة من الحاجة إلى سَفانة ويحيى.

سكتا فورًا.

لا ريب أن النظرة كانت تعني: «اخرسا».

فكرت في أن العائلة لديها شيفرات لنظرات العيون، عليهم الاستجابة لها بمجرد أن تستخدمها الحاجة.

قالت أسماء: «محسودي. الموصل محسودي[1] طول عمرها. كل ما حصل كان بسبب الحسد».

تذهب كل نظريات السياسة وعلم الاجتماع ونظريات المؤامرة والأجندات الخارجية إلى الجحيم. كل ما حدث كان بسبب الحسد.

«كفى بربك يا أسماء. أي حسد؟ وعلى ماذا؟». قالت سَفانة بلهجة فيها سخرية.

ردت أسماء: «الحسد مذكور في القرآن».

- نعم، الحسد مذكور في القرآن، ولكن لم يذكر أن الموصل محسودة في القرآن.
- طبعًا مذكور. تقول الآية: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين». ماذا يعني هذا؟ أن كل الأمم تحسدهم لأنهم الوحيدون الذين منع الله العذاب عنهم.

هزت سَفانة رأسها هزةً معناها: «لا فائدة».

بدا يحيى أقرب إلى سَفانة في الأمر، لكنه كان مستسلمًا.

قالت الحاجة: «يا صهيب، ما رأيك أن تعدل في التصميم بحيث تضع خرزةً زرقاء على مدخل المدينة لمنع الحسد؟».

بينما لم تفهم أسماء السخرية وقالت: «والله فكرة. الحاجة عظيمة حتى في التصميم»، ضحكت سَفانة بشماتة.

همس يحيى: «اسكتي يا أسماء».

وبينما تضع الخادمة الحلويات وتوزع الأطباق، رفعت الحاجة صوتها كما لو أنها تريد أن تنهي النقاش.

---

(1) محسودي: محسودة بلهجة أهل الموصل.

«الحاصل أن الصالح والطالح في كل مكان. أهل الموصل فيهم الصالح والطالح، وكذلك غيرهم، أهل القرى أو العريبان. التأييد لداعش كان في البداية لأسباب مختلفة: الناس فرحت بخروج القوات الأمنية لأن المعاملة كانت سيئةً. لماذا كانت سيئةً؟ البعض يفسر ذلك لأسباب طائفية. ربما...، لكن الحقيقة أنه كانت هناك عمليات قنص وتفجير واستهداف لهم. كانت هناك فتاوى بقتل كل من ينتسب إلى الشرطة والجيش. هذا جعلهم مستَفزين جدًّا؛ هم بشر في النهاية. عندما انسحبوا وجاءت داعش تعامل عناصرها بشكل جيد في الأيام الأولى، فانخدع الناس لفترة، إلى أن كشروا عن أنيابهم، من تهجير المسيحيين إلى سبي الإيزيديات وكل الجرائم الأخرى. من ثبت على تأييدهم هم من نوعين، بغض النظر إن كان من أهل الموصل الأصليين أو غيرهم: الأول من كان متفقًا مع فكره، وهم أقلية، والثاني هو من يؤيد المنتصر والغالب بغض النظر عن أصله. وهؤلاء هم الأكثرية في كل زمان ومكان. رأيناهم يصفقون للشيوعيين وللبعثيين ولمن جاء مع الأمريكان ومن ثم صفقوا لداعش. مبدؤهم في الحياة: ألف قلبة ولا غلبة[1]». قالت كل هذا بصوت قوي ومنطق متماسك كما لو كانت أكثر شبابًا من الجميع. كانت الأكثر عقلانيةً بأعوامها التسعين، كما لو أن السنوات جعلتها أكثر قدرةً على الحكم على الأشياء من دون تحيز أو شخصنة.

بدت لي حكيمة العائلة أكثر من زعيمة العصابة كما وصفتها أمي.

ثم قالت لي: «كُلْ. زنود الست هذه لذيذة جدًّا. لولا السكري لكنت أكلت أنا أيضًا».

أشرت إلى بطني.

- لم يعد بإمكاني.

(1) ألف قلبة ولا غلبة: مثل يستخدم لمن يقلب رأيه ليحصل على المكاسب.

قالت بحزم: «كُلْ».

هنا بدا لي وجه الزعيمة أكثر. ليس بالضرورة زعيمة عصابة، لكن زعيمة على أي حال.

شربت الشاي وأكلت قطعتين من زنود الست. تمنيت لو أني تركت مكانًا أكثر في معدتي لكي آكل المزيد، لكن فات الأوان.

تمكنت الحاجة على أي حال من حسم موضوع النقاش. لكن شيئًا ما في الجو كان يشي بأنها تدخلت لكيلا يتطور الحديث المتوتر بين سَفانة ويحيى إلى منطقة لا تريدها. شيء ما في كلام سَفانة كان يشير إلى شيء لا يريد أحد أن يتحدث عنه. هل تريد أن أذكر لك أسماء أخرى؟ لو غيرك قالها يا يحيى!

كان هناك شيء ما يخفيه الجميع على الأقل أمامي.

كان جسدي قد بدأ بإرسال إشارات إلى رأسي بأنه لم يعد يحتمل ما أكلته. أشرت إلى يحيى إلى أني أحتاج إلى أن أخرج.

- الجلسة ممتعة جدًّا يا حاجة، ولكني متأكد أنك بحاجة إلى القيلولة الآن.

كان يحيى قد علمني هذه الجملة كإشارة إلى رغبتي في إنهاء اللقاء بطريقة مهذبة. قال لي إن قيلولة الحاجة مقدسة ولم تتخلَّ عنها حتى في أعنف المعارك التي مرت بها المدينة.

في أثناء المواجهات التي حدثت خلال تحرير المدينة من الدواعش، كان القصف يهز البيت والمواجهات في الشارع ذاته والكل يختبئ في السرداب، ولكن الجميع يتحدث همسًا لأن الحاجة تأخذ قيلولتها.

أشارت إليَّ كما لو أنها لا تريد أن أكمل جملتي.

- ليس قبل أن تأخذ هديتك.

التفتت إلى سَفانة وقالت لها: «كيس ورقيٌّ وضعته على الكوميدينو[1] جنب فراشي. هاتِيه».

قلت مجاملًا: «لا داعيَ للهدايا، هذه الدعوة كافية أو أكثر».

هزت رأسها كما لو كانت تقول لي أن أخرس أنا أيضًا.

لحظات وجاءت سَفانة، تحمل كيسًا ورقيًّا بيدها. قالت للحاجة: «هذا يا عمة؟».

هزت الحاجة عادلة رأسها بالإيجاب.

فتحت سَفانة الكيس وأخرجت علبةً من داخله وقالت بتردد: «متأكدة؟».

رمقتها الحاجة بنظرة وقالت: «طبعًا».

لاحظت أن يحيى اعتدل في جلسته وأخذ ينظر إلى العلبة بترقب وتوتر.

كانت علبةً من المخمل الأحمر غامق اللون، مثل تلك التي تستخدم لحفظ المجوهرات.

أخذتها الحاجة وأخذت تربِّتها بيديها كما لو كانت تربت قطة منزلية محببة على قلبها.

قالت: «هذه الهدية يا صهيب هي أثمن ما يمكن أن أهديك إياه أو أي أحد من الأحفاد».

هل سيكون هناك عقد ماسيٌّ ضخم في هذه العلبة؟ لثوانٍ فكرت إن كان يمكنني حمل شيء كهذا في الحقيبة في أثناء العودة إلى الولايات المتحدة.

فتحت الحاجة العلبة برهبة كما لو أن هناك جنيًّا أو ماردًا سيخرج منها.

---

(1) الكوميدينو: الدولاب الصغير بجانب السرير.

لم يكن هناك تاج زوجة القيصر ولا عقد الملكة فيكتوريا. كان هناك ما بدا لي أنه وسام أو نيشان، في حجم كف اليد تقريبًا أو أقل، مصنوع مما بدا لي أنه نحاس مطلي في بعض أجزائه بالذهب، في وسطه تاج أزرق اللون، وفوق التاج كُتِب: «المملكة العراقية»، وتحته كُتِب: «حب الوطن من الإيمان».

- هذا هو وسام الرافدين من الدرجة الأولى، منحه الملك فيصل الأول إلى جدك يونس باشا تقديرًا له على جهوده في تأسيس الجيش العراقي. هذا هو أغلى ما أملك وما تملكه وتعتز به العائلة، وأنا أهديه لك اليوم. وأنا واثقة بأنك ستكون على قدر هذه الهدية.

لم أعرف ماذا أقول. تعثرت كلمة الشكر مرتبكة على شفتي. نظرت إلى يحيى لعله ينجدني، لكن ملامحه أوحت لي أنه ليس بخير على الإطلاق. اختفى الدم من وجهه كما لو أنه على وشك أن يصاب بإغماء. لعله أكل كثيرًا هو الآخر.

- لا أعرف ماذا أقول يا حاجة. هذا كثير.

«لا تقل شيئًا. هذا الوسام ليس للأقوال، بل للأفعال. عليك أن تفعل شيئًا لكي تشكرني على هذا الوسام». قالتها بنبرة ذكرتني بنبرة العراب وهو يقول: «سأقدم له عرضًا لا يمكن له أن يرفضه».

أجلت نظري في وجوه الجميع. لم أستطع فهم ملامحهم؛ كانوا جميعًا متواطئين على شيءٍ ما لم أفهمه. إلا يحيى، كان على وشك أن يفارق الحياة.

«فلنأخذ صورةً تذكاريةً». قالت سَفانة ونادت الخادمة إديتا لكي تأخذ لنا صورةً بهاتفها.

وقفنا جميعًا حول الحاجة التي أمرتني بحزم أن أقف بجانبها. قالت لنا إديتا: «قولوا تشيز». ثم التقطت لنا أكثر من صورة.

قالت سَفانة إنها ستأخذ رقمي من يحيى لكي ترسل إليَّ الصورة.

نظرت إلى يحيى وتساءلت إن كان قادرًا على إيصالي إلى الفندق أو إن كان عليَّ أن آخذ سيارة أجرة،

لكنه كان قد بدأ باستعادة دمه.

في الطريق إلى الفندق بقي صامتًا ولم يتحدث تقريبًا بأي شيء.

حاولت أمي الاتصال أكثر من مرة، لكني لم أرد.

عندما وصلت إلى غرفتي في الفندق، وقفت أمام المرآة ووضعت الوسام على صدري. تذكرت ما قالته الحاجة. هذا الوسام ليس تقديرًا على فوزي بجائزة تصميم إعادة إعمار المدينة، بل هو فخ لكي أفعل شيئًا ما. فخ أسير إليه بما يبدو أنه محض إرادتي.

اتصلت أمي. سألتني فورًا: «كيف استقبلتك عدلة؟».

- بترحاب. قالت لي كلمةً لم أفهمها وكررتها مرتين.

- ماذا قالت؟

- شيئًا عن طولي! قبَّان طولي؟

سكتت أمي.

ثم قالت: «قالت لك قبان طولك؟».

- نعم، هذه هي الكلمة التي قالتها. ماذا تعني؟

- تعني قربان طولك. الراء سقطت في اللهجة الموصلية.

- قربان طولي؟ ماذا يعني هذا؟

- هذه كلمة تحبب تقال للأطفال عادةً، وتعني أنها تريد أن تقدم قربانًا فداءً لطولك، أو أن تذهب هي فداءً لطولك.

- فداءً لطولي أنا؟ طولي لا يتجاوز 180 سم؟ ما المميز في هذا؟

- ليس طولك أنت بالمعنى الحرفي. ولا علاقة للطول أو القصر بالأمر. هي كلمة تحبب شائعة في الموصل، تقال لأطفال الأسرة أو الأقارب.

- غريبة الجملة. لم أسمعك تقولينها لي ولا مرة.

- لا بد أني قلتها لك ولكنك لا تذكر ذلك.

لم تفعل، أنا واثق بهذا. لم تقدم أي قربان لطولي أو لأي شيء. أنا كنت القربان دومًا.

- كيف كان اللقاء عمومًا؟

- تعرفين لعبة (غرفة الهروب)؟ الغرف المتصلة ببعضها بأبواب مغلقة لا تفتَح إلا إذا قمنا بحل لغز في الغرفة؟

لا أعرف كيف جاء هذا التشبيه إلى ذهني! في أثناء اللقاء لم أشعر به. لكن الآن، هذا ما أراه.

- وهل نجحت في الهروب؟

- بالطبع، أنا الآن في الفندق.

في الحقيقة لست واثقًا بنجاحي على الإطلاق. غالبًا فشلت. حملت غرفة الهروب وألغازها معي على ظهري.

- ماذا أيضًا؟

- أهدتني وسامًا يعود إلى جد أبي. اسمه وسام الرافدين، هدية من الملك أو شيء كهذا.

بدا صمت أمي كما لو كان شهقةً مفاجأةً.

- هل أخبرتك شيئًا عن ثورة الشواف؟

كنت قد قرأت قليلًا عن أحداث ثورة الشواف عندما قرأت عن الموصل.

- الشواف؟ فقط إشارة عابرة عما حدث بالموصل. لماذا؟

- مجرد سؤال، توقعت أن ذكر جد أبيك سيقود له، لأنه قُتِل فيها.

بدا لي هذا شيئًا غريبًا. ذكرت لي الـCV الخاص به كاملًا وفاتها أن تقول شيئًا عن مقتله؟ توقعت أن تكون وفاته طبيعية.

- لم تشرْ إلى شيء كهذا. لكنها قالت لي إنها سافرت إلى لندن خصيصى لكي تراكِ وتقابلك. لمَ لمْ تقولي لي شيئًا عن هذا؟ هل نسيت أن تخبريني أم نسيتِ اللقاء؟

سكوت أمي هذه المرة كان محرجًا.

- وبدا عليها الاستغراب من تاريخ ميلادي.

جاء صوت أمي مختنقًا: «سألتك عن يوم ميلادك؟».

- لا. جاء الحديث مصادفةً عندما عرفت زوجة يحيى أن يوم ميلادي هو يوم ميلاد يحيى نفسه. فاستغربت الحاجة وسألتني عن السنة كما لو كانت تريد أن تتأكد.

سكتت أمي لكن سمعت صوت تنفسها.

في هذه اللحظة وصلت رسالة من رقم مجهول على الواتس.

كانت الصورة التي التقطناها. انتبهت لوجود لوز. لم أذكر أنه كان موجودًا في أثناء الشاي. لا بد أنه جاء خصيصى للصورة. لم يكن هناك أحد يبتسم رغم الـ «تشيز». حتى أسماء لم تكن تبتسم.

بدت لي الصورة كما لو كانت ملصقًا لفيلم العراب في جزء جديد منه.

قبل أن أنام بحثت عن معنى اسم (سَفانة) في جوجل.

اللؤلؤة. الريح التي تهب على وجه الأرض.

في الأمثال: «أجود من أبي سَفانة»، وهو حاتم الطائي.

فائزة

إذن أخبرته عن اللقاء في لندن!

وعرفت الآن موعد ولادته.

ستظن الآن أني حملت به سفاحًا. أيُّ عارٍ هذا الذي يلاحقني ظلمًا بعد أربعين عامًا!

ويسألني إن كنت نسيت أن أخبره باللقاء.

كما لو أن هناك دقيقةً واحدةً في ذلك اللقاء يمكن أن تسقط من ذاكرتي.

الخميس 20 تموز 1978.

في السابعة مساءً دق باب شقتنا في فولهام.

فتحت الباب وأنا أسأل نفسي، هل نسي نائل مفتاحه؟ كنت أتمنى لو تأخر أكثر. أحتاج إلى أن ألملم شتات نفسي قبل أن أواجهه بما عرفته اليوم.

وجدت تلك السيدة أمامي. عرفتها فورًا؛ كنت قد رأيتها مرةً في طفولتي في سوق باب الطوب، وهمست لي أمي: «هذه عدلة آل يونس». لم تترك لي مجالًا لكي أتأكد من ذاكرتي. قالت لي فورًا: «عادلة آل يونس. عمة نائل».

لم تكن بحاجة إلى أن تقول إنها عمة نائل. عدلة آل يونس لا تُعرَف هكذا؛ أكبر بكثير من أن تُعرَف بابن شقيقها. هذا أكبر قدر ممكن من التواضع يمكنني أن أتخيله منها آنذاك. كنت أعرف من تكون عادلة آل يونس. كل الموصل تعرف من تكون. أسطورة تمشي على قدمين. الدوار الذي أمام بيتها في حي الزهور سمي على اسمها عند الناس. حتى بعد أن أُزيل وحلت محله إشارة مرورية، بقي الناس يسمونه: «دوار عدلة»، كما لو أنها قد اختصرت كل ألوان الإشارة المرورية في اسمها.

كان وجهها جامدًا وهي تعرِّف عن نفسها، لكني تمالكت نفسي. وضعت ابتسامةً مرحبةً بسرعة وحضنتها وأنا أقول: «مرحبا خالي[1]. تفضلي».

ردت على ترحابي بابتسامة متحفظة، لكنها ابتسمت على أي حال. أما أنا فقد اختفت ابتسامتي فورًا وأنا أمد برأسي خارج الباب لأرى إن كان نائل على وشك الحضور. ثم وضعتها مجددًا وأنا أرحب بها وأدعوها للجلوس. دماغي كان يعمل في كل الاتجاهات لإخفاء أي أثر يدل على أن نائل يعيش هنا في الشقة نفسها. الصور لا تزال في المغلف منذ يومين. لم نشترِ الإطار المناسب لها بعد؛ الحمد لله. سجائر نائل على الطاولة ومعها قداحته الأثرية. غالبًا تعرفها. لكن ربما يمكن تفسير ذلك بأنه نسيها هنا. هذه فضيحة أيضًا بمعايير الموصل؛ نائل يزور فتاةً عزباءَ تعيش وحدها في لندن. لكنها أقل من فضيحة أنه يعيش معها، كما سيبدو الأمر لو شاهدت ملابسه في غرفة النوم. كتب نائل في كل مكان، هل ستميزها عن كتبي؟ غالبًا تستطيع ذلك بسهولة؛ كتب الهندسة يسهل تمييزها عن كتب الطب حتى لمن لا يعرف الإنجليزية، وغالبًا تعرف ما يكفيها لتميز. يمكنني أن أقول عرضًا إن لديَّ صديقةً تدرس الهندسة

(1) خالي: خالة باللهجة الموصلية. كسرة شديدة على اللام.

تسكن معي، لكنها ليست في البيت الآن. أسرعت لتحضير الشاي، لكن هدفي كان الحمام؛ أخفيت أدوات حلاقة نائل وفرشاة أسنانه. عدت بالشاي مسرعةً وأنا خائفة من أن تفتح عدلة حقيبتي في غيابي وترى ما يجب ألا تراه الآن.

كانت الحقيبة في مكانها، وأيضًا عدلة آل يونس في مكانها وعلى وجهها الابتسامة نفسها. ابتسامة غامضة لا يمكن فهمها. ابتسامة يمكن أن تكون في طيف يتدرج من الشماتة إلى السخرية. كل شيء إلا معاني الود والحنان. أو هكذا قرأتها على الأقل.

قضت أقل من نصف دقيقة في مجاملتي. سألتني عن أهلي وعن امتحاناتي، لكنها لم تكن تنتظر أي إجابة؛ دخلت فورًا فيما جاءت لأجله.

- يا بنتي، لن أدعي أني جئت إلى لندن من أجلك. جئت من أجل ابن أخي ومن أجل مصلحته أولًا. لكن هذا لا يمنع أن أتحدث معك كأم. هل تريدين أن أتحدث معك أولًا كعمة نائل أم كأم لك؟

- أريدك أن تتحدثي معي أولًا كعادلة آل يونس. المرأة القوية العادلة التي يعرف الجميع حكمتها وشدتها في الحق.

لم أكن أحاول أن أجاملها أو أقدم لها رشوةً على سبيل مراضاتها. كانت هذه سمعتها بالفعل.

- هذا سيجعلني الأم إذن. القوية العادلة الحكيمة هي الأم أيضًا.

لا بأس. رغم أني كنت أعرف ما ستقوله الأم. أعرفه قبل أن تقوله أمي وأي أم مسيحية ترغب ابنتها في الزواج بمسلم.

- سأفترض أن لديَّ ابنةً وأنها ترغب في الزواج بمسيحي. هكذا سأتحدث. الأمور مع البنات مختلفة، اتفقنا؟

هززت رأسي. نعم. البنات من الطرفين وضعهن مختلف.

- هل تحبين نائل؟

سألتني وعيناها مصوبتان نحوي كما لو كانتا مسدسين في يد رجل من رعاة البقر في أفلام الكاوبوي الأمريكية.

- نعم، أحبه وأحبه كثيرًا.

تحصيل حاصل. لم تضع أي فتاة نفسها في هذا الوضع دون أن تكون قد وقعت في حب ساحق ماحق.

- تعرفين غوار الطوشة؟ الدور الذي يقوم به الممثل الكوميدي السوري؟

سؤال غير متوقع.

- نعم. دريد لحام.

- غوار في المسلسل الذي نسيت اسمه يحب فتاةً، ولا أدري إن كانت لا تحبه أو أن أهلها يرفضونه، نسيت. لكنه يكرر جملة طيلة المسلسل. تعرفينها؟

لم أرد. غوار كان يحب فطوم حيص بيص. لكن ما الجملة؟

- يضرب الحب شو بيذل. يكررها دومًا. وفي حالة حبك فالحب لا يذل فقط، بل يقهر، يفرق، يقتل. هذا الحب سيجعلكِ مقطوعةً ومقاطَعةً من الجميع. أنتم عائلة معروفة ومحترمة في الموصل منذ 200 سنة. أبوك خواجة[1] وجدك أيضًا خواجة. هل يمكنكِ أن تتخيلي ماذا يكون وقع الأمر على والدك وأعمامك وأشقائك عندما يقال إن ابنتهم قد هربت لتتزوج بمسلم؟ والدك سيموت بحسرته. شقيقتك لن تتزوج. ستدمرين العائلة، ومن أجل ماذا؟ من أجل حب قد يقل بعد سنة أو أقل أو أكثر؟

---

(1) خواجة: كلمة تقال للمحترم ذي المكانة من المسيحيين.

كان هذا بالفعل ما قالته لي أمي بالحرف تقريبًا. لكنها عددت أيضًا بنات خالاتي وخالي وعماتي وأعمامي وزواج كل منهم أو منهن. وكانت تلطم.

وددت لو أن أقول لها إني لم أهرب لأتزوج بمسلم، ونائل قابل والدي رسميًّا ليخطبني.

لم أقل شيئًا. كل ما قالته كنت أعرفه عن ظهر قلب؛ أعيش معه كل يوم. لكن حبي لنائل كان أكبر من كل ذلك. نعم، يضرب الحب شو بيذل. لا يمكنني أن أناقش هذا. يذل ويقهر ويقتل ويقاطع.

- كل هذا أعرفه يا خالي، أعرفه وأتحمل عواقبه. لكن قولي لي، لماذا الموقف عندكم مماثل وابنكم يحق له أن يتزوج بمسيحية؟ لماذا تزيدون الأمور صعوبةً عليَّ؟ لماذا لا تقبلون بي ابنةً لكم بعد أن رفضتني عائلتي؟ لماذا تحاربون نائل لهذه الدرجة وأنتم الموضوع عندكم مسموح دينيًّا؟

- سأقول لكِ شيئًا وربما ستفهمينه لاحقًا إن لم تأخذي قرارًا بالانسحاب من الموضوع. آل يونس كلهم، وأنا منهم، لا يعترفون بأنهم يمكن أن يكونوا على خطأ. هذا خطأ طبعًا، أعترف به بعد هذه السنوات، لكنه أمر واقع. نحن قد نخطئ، لكن لن ولا يمكن أن نعترف بذلك حتى مع أنفسنا. نكابر ونعاند ونفعل أي شيء من أجل عدم التراجع. لهذا لدينا نائل، وهو مصر على عدم التراجع عن حبه لك، وهو يعرف كم سيكون زواجك به كارثيًّا عليك قبل أن يكون عليه. ولدينا والده، مصر على أن يحرم نائل من كل شيء، من كل شبر من أرض أو عقار يمكن أن يرثها لاحقًا. وإذا استمرا بأن يكونا كما كانا دائمًا، فسيحدث ذلك. نائل سيتزوجك، ووالده سيحرمه من كل شيء ويقاطعه حتى الموت.

سكتت ثم قالت: «أنتِ وحدك من يملك أن ينزع فتيل هذا العناد ويحمي آل يونس من هذه الكارثة، وتحافظين على عائلتك أيضًا».

نظرت إلى حقيبتي التي وضعتها بجانب التلفاز. كان التلفاز يعرض حلقةً من برنامج الأسبوع من توب أوف ذا بوبس. وفي الحقيبة كان هناك ما يقول إنه قد فات الأوان على نزع الفتيل. خرج الموضوع من يدي.

لثوانٍ وددت لو أن أذهب إلى الحقيبة وأخرج منها ما يقول لها كل شيء. لكنني لم أفعل.

سألتها: «هل هذا الموقف بسبب أني مسيحية أم بسبب عمي؟».

لم ترمش عينها.

- عمك؟

- نعم عمي، وديع نقاش. هل هذا الموقف بسبب عمي وديع؟

- لا. هذا الموقف بسبب آل يونس ورؤوسهم اليابسة. لا علاقة لعمك بالموضوع.

الحمد لله.

- هل كانت لعمي علاقة بما حدث؟

زمَّت شفتيها وقالت: «لا أعرف».

- أنتِ كنتِ هناك ورأيتِ كل شيء، هل رأيته؟

نظرت إليَّ كما لو أنها تقول: «هل أنتِ فعلًا على قدر هذا السؤال؟»، لكنها قالت: «أليس عمك وديع لا يزال على قيد الحياة؟».

- بلى، لا يزال حيًّا.

- إذن لم يكن هناك.

قالتها بتحدٍّ.

- لكن الناس يقولون...

- لا علاقة لنا بما يقوله الناس. مهما قلتم عن تعالينا وتكبرنا فنحن لا نظلم أحدًا. قال الناس أشياءَ كثيرة، لكن الشهادة لله، عمك لم يكن موجودًا عندما حدث ما حدث.

ثم أكملت: «أما لو كانت له علاقة بالأمر، بأن يكون قد حرض أو دبر للأمر، فهذا لا نعرفه، وحده الله يعلم. يمكنك الاتصال بعمك وسؤاله عن ذلك».

تخيلت أن أتصل بعمي وديع في بلغاريا، بعد سنوات طويلة من قطيعة الجميع له، على الأقل في العلن. مرحبًا عما وديع، أنا فائزة بنت شقيقك بشير، سأتزوج مسلمًا وأريد أن أسألك إن كانت لك علاقة بمقتل جده وعمته الحامل وبقر بطنها؟

لن يحدث. ليس عندي رقمه أصلًا.

قامت عادلة وهي تقول لي: «فكري فيما أقوله لك، لمصلحة عائلتك ومصلحتك ومصلحة نائل. أنتِ وحدك التي يمكنك أن توقفي الكارثة القادمة. تذكري، الحب لن يصمد طويلًا. حتى لو صمد، العائلة أهم. ويضرب الحب شو بيذل. يذل ويقتل».

كانت قد وصلت إلى الباب وفتحته. بقيت أنظر إلى الأرض ساهمةً وأنا أسمع ما تقول ولا أجد جوابًا.

دون تفكير قلت لها: «صح النوم».

رفعت حاجبيها مستنكرة: «ماذا؟».

- اسم المسلسل السوري، الذي وردت فيه هذه الحكمة، صح النوم.

هزت برأسها كما لو كانت تتذكر وقالت: «نعم... لكن أرجو ألا تفيقي ذات يوم لتقولي لنفسك صح النوم، بعد أن تكون الفأس قد وقعت بالرأس».

عندما غادرت ذهبت إلى حقيبتي وأخرجت منها ورقتين:

ورقة النتيجة المخبرية، وتقول إني حامل.

والورقة الأخرى كانت وثيقة زواجي بنائل منذ أربعة أشهر. أردنا أن نتزوج في لندن ونضعهم أمام الأمر الواقع. ثم قررنا أن نأخذ موافقتهم بأثر رجعي.

على التلفاز كانت أغنية المركز الأول لهذا الأسبوع: «أنت الشخص الذي أريده».

«You are the one that I want»

تفاءلت.

ثم تذكرت: «يضرب الحب شو بيذل»، وأنا أنتظر نائل لأخبره أننا ننتظر -رغم كل احتياطاتنا- حدثًا سعيدًا في أول شهر من السنة القادمة.

***

تذكرت لحظة لحظة من ذلك اليوم، بمجرد أن سألني صهيب.

حدث كل ما حذرتني منه. بالتفاصيل كما لو أنها وضعت أمامها الكرة البلورية التي يقرأ فيها المنجمون المستقبل، وقرأت كل شيء بحذافيره.

حدث أيضًا أني أدركت ما تحدثت عنه من عناد آل يونس ومكابرتهم وقناعتهم المطلقة بأنهم على صواب دومًا. كان الحب قد أعماني عن ملاحظة ذلك أيامها.

حدث أيضًا أن الحب قلَّ. رفضنا نحن الاثنين أن نعترف بذلك. لكنه قلَّ. قلَّ بعد أن ذلَّ وفرَّق وقهر. بالضبط كما قالت.

بعد سنوات طويلة راجت أغنية لكاظم الساهر، يضرب الحب شو بيذل.

كنت أذكر ذلك الحوار كلما سمعت الأغنية على محطة أي إن أي، الإذاعة العربية الوحيدة في الولايات المتحدة آنذاك.

وكنت أحب كاظم، وأكره الأغنية، لأنها تذكرني لا بكل ما حدث فحسب، بل لأنها كانت تذكرني بأني كنت أعرف سابقًا ما سيحدث.

قبل أن أنام، فكرت فيما ستقوله الحاجة عدلة عني وقد عرفت تاريخ ميلاد صهيب. ستظن أني حملت به قبل زواجي بنائل.

أغمضت عيني وأنا أطرد هذا الهاجس.

هل أصور لها عقد زواجي وأرسله إليها كي أبرئ نفسي؟

هل سيغير هذا من شيء بعد أربعين عامًا من كل شيء؟

يونس باشا

طلب منه جواد باشا أن يلتقيه. أرسل إليه ليخبره: «سأزورك في البيت، لا أريد أن يكون أحد في اللقاء غيرك يا باشا».

كان يونس يعرف جيدًا لماذا يريد جواد باشا أن يلتقيه منفردًا.

كل الموصل تعرف لماذا جاء جواد باشا من أنقرة إلى الموصل.

المفاوضات بين البريطانيين والأتراك حول مصير الموصل وصلت إلى طريق شبه مسدودة. العراق، المملكة التي لم يتجاوز عمرها خمس سنوات؟ أم تركيا الحديثة التي نتجت على أنقاض الإمبراطورية العثمانية؟ عصبة الأمم تناقش الأمر. معاهدات السلام بين الأتراك والحلفاء بعد نهاية الحرب لم تتطرق للأمر، وهذا أتاح للأتراك هامشًا للمطالبة بالموصل. عصبة الأمم تميل إلى أن تجري استفتاءً للبت في الموضوع. الأتراك يؤيدون ذلك ويبدون واثقين من النتيجة، البريطانيون يقولون إن الأمور ليست مهيئة لذلك ويحاولون التهرب من الأمر.

في اليوم السابق، 27 يناير 1925، قام جواد باشا بجولة في إحدى أسواق الموصل وكان يرافقه أحد أعضاء اللجنة المعينة من قبل عصبة الأمم الكونت بول تلكي الجغرافي ورئيس وزراء المجر سابقًا. حدث تجمع حول جواد باشا وأخذ الناس يهتفون لتركيا وتدخلت الشرطة لفض الناس.

حدثت تظاهرة مضادة فورًا، قادها الطلاب، هتفوا فيها للملك فيصل. أي للعراق الوليد.

كان جواد باشا يريد المزيد من الدعم من أعيان الموصل، وكان يونس يعرف تمامًا أنه يريد منه ذلك تحديدًا بسبب علاقة شخصية ربطتهما في أثناء خدمتهما في ديار بكر.

وقف الباشا في صدر الإيوان في البيت الكبير، مرتديًا بزته العسكرية العثمانية، شارباه مفتولان، ومعه شخصان قال إنهما رفيقان له، ثم اتضح أنهما لحمايته. منذ أحداث اليوم السابق أصبح تجوله منفردًا يشكل خطرًا عليه.

نظر جواد باشا إلى يونس وقال له: «سمعت يا باشا بالناس الذين تجمعوا أمس في السوق ليهتفوا لتركيا؟ عددهم كان بالمئات».

قرب يونس النار من الغليون في يد جواد باشا.

- وسمعت أيضًا أنك كنت ترتدي هذه البزة العسكرية، ولكن مع كل نياشينك وأوسمتك يا باشا؟ أليس طبيعيًّا أن يحن الناس ويهتفوا؟ كانت خمسمئة سنة يا باشا. لا يومًا ولا يومين.
- وأنت يونس باشا، هل تنساها؟ ألا تحن؟
- لا أنساها، لكن الحنين أمر مختلف. أفهم أنها انتهت. الدولة العثمانية انتهت يا باشا. لم ننهها نحن. خسرت الحرب. جلستم ووقعتم اتفاقيات وتصالحتم. انتهت. خمسمئة سنة بحلوها ومرها انتهت.
- كنت أتوقع هذا من كثيرين، لكن ليس منك يا يونس باشا.

- جواد باشا، سنبقى أصدقاء وجيرانًا، لدينا إرث خمسمئة سنة من المشتركات، أخذنا منكم، وأخذتم منا، لكن العالم تغير. العالم القديم مات، وعالم جديد يولد الآن.

- عالم جديد نعم، لكن العراق؟ ما العراق؟ هل كان هناك شيء كهذا قبل الآن؟

- جغرافيًّا نعم. الموصل كانت بوابته. سياسيًّا، لا، لكن هذا لا يخص العراق وحده جواد باشا. كل الدول الحديثة التي نشأت من سقوط الدولة العثمانية لم يكن لها وجود قبل ذلك. كلها.

- حتى لو كان ذلك، كيف تقبلون بحكم رجل من الجزيرة العربية؟

- هو الحل الوسط الذي ارتضاه الجميع حاليًّا. لو اختير من الموصل، لما قبل أهل بغداد أو البصرة. ولو كان من البصرة لما قبل أهل بغداد والموصل.

- هل حقًّا تعتقد أنكم ترتبطون مع بغداد والبصرة بأكثر مما ترتبطون بديار بكر أو حلب؟

- حلب ليست ضمن تركيا بكل الأحوال يا باشا. طرق التجارة ربطتنا بها وجعلت بيننا نسبًا ومصاهرة، لكن جغرافيًّا تبقى بغداد أقرب بكثير. ثم إنكم وضعتم الموصل أكثر من مرة ضمن ولاية بغداد، ألا يعني هذا لك شيئًا؟

- وسبق أن كانت الموصل ضمن ولاية ديار بكر أيضًا، ألا يعني هذا شيئًا؟

- وسبق أيضًا أن كانت ضمن ولاية حلب، ولكننا لم نرَكم تطالبون بها.

- أنت تعرف أن حلب وضعها القانوني مختلف. لدينا مع الموصل فرصة قانونية تاريخية.

- جواد باشا، تركتم الموصل تحكم نفسها عبر آل الجليلي، لمدة تزيد على القرن، وخلال ذلك جعل الجليليون المراسلات الرسمية صادرةً باللغة العربية أولًا، ثم اللغة التركية، ألا يخبرك ذلك شيئًا عن هوية المدينة؟ شيئًا أنت تعرفه أصلًا وبالأساس.

نفخ جواد باشا غليونه وهو يقول: «لا أنكر وجود العرب في الموصل، لكنهم كذلك موجودون في ديار بكر وماردين وأماكن أخرى في تركيا، كذلك الأكراد موجودون في كل هذه الأماكن، والأتراك أيضًا».

- والكلدانيون والنسطوريون، هذه قلادة من كل الخرز يا باشا، الموصل وصفت بذلك من قبل الرحالة منذ قرون. القدر الجغرافي جعلها على الجانب الآخر من الجبال التي تفصل بينها وبين الأناضول. هذه الجبال كانت خط الحدود في الدولة الحديثة.

- الناس في الموصل لا يزالون يرغبون فينا، ألم ترَ المتظاهرين؟

- ألم ترَ المتظاهرين الذين هتفوا لفيصل؟ أغلبهم طلاب! شباب! لم يعرفوا من الدولة العثمانية قوتها ولا هيبتها، بل يذكرون فقط سياسات التتريك وضعف الدولة ومن ثم هزيمتها...

دق الباب الخادم وهو يحمل الشاي، أشار جواد باشا إلى أحد مرافقيه لكي يقوم هو بالتقديم. أسرع المرافق وأخذ صينية الشاي من الخادم.

قال يونس للباشا: «أنا أعرف وأنت تعرف يا باشا، الأمر لا يتعلق بالأعراق ولا الثقافة ولا الأديان، ولا يتعلق بمدينة الموصل أو الحدود الجغرافية».

رد جواد باشا: «بماذا إذن؟».

- تعلم أن كولبنكيان[1] يا باشا كان ينقب عن النفط في ولاية الموصل بموافقة الدولة العثمانية قبل نشوب الحرب. أنا وأنت نعرف أن هناك حقول نفط في المنطقة التي نتحدث عنها. المنطقة ربما تكون نائمةً على بحر من النفط. وهذا هو مربط الفرس في كل الخلاف. لنكن واقعيين. المنتصر في الحرب سيفرض شروطه حتمًا، علينا أن نحاول أن نحصل بقدر ما نقدر. حاليًّا على الأقل.

في هذه اللحظة وبينما كان مرافق جواد باشا يحاول صب الشاي في الأقداح سقط منه الإبريق على الصينية فسقطت الأقداح على الأرض وتحطم بعضها بينما أخذ المرافق بمسح رذاذ الماء الساخن الذي تطاير على بزة الباشا.

نظر جواد باشا إلى مرافقه بغضب حاول كتمانه ثم التفت وقال ليونس: «هذه مشكلة الأتراك الحقيقية. لم يتعودوا على الخدمة».

هز يونس رأسه متفهمًا.

ثم قال: «ربما آن للجميع أن يتعلموا ذلك. أنتم ونحن أيضًا. هذا عالم جديد يولد، علينا أن نتعلم مهارات جديدة منه. ستبقى لدينا مشتركات تتخطى حدود الدول الجديدة، لقد كانت خمسمئة عام، لا يومًا ولا يومين يا باشا».

---

(1) كولبنكيان: غالوست سركيس كولبنكيان رجل أعمال ومستثمر أرمني تركي ومن كبار مؤسسي شركة النفط التركية.

يونس بن متى

لا أستطيع.

أيام وأنا أحاول أن أتخيل الأمر. أحاول أن أجمع كل خيالاتي لأتصور إن كان ذلك ممكنًا.

إن كان بإمكاني.

والملاك لا يكرر غير كلمة واحدة:

«نينوى. اذهب إلى نينوى».

أيام وأنا أحاول أن أصم أذني عنه. أيام وأنا أتجاهل الصوت الذي يتردد في رأسي. أتظاهر أني لا أسمع ولا أفهم.

تخيلت أني أناقشه في الأمر. أن أحاول أن أفهمه.

لكن الملاك لا يسمعني. يقول فقط: «اذهب إلى نينوى».

لكني أعرف ماذا سيقول لو قال شيئًا غير ما يكرره.

سيقول: «هذا الذي يجعلك لا تحاول هو السبب الذي يجعلك تحاول».

سيقول: «هذا الجبروت والظلم والطغيان والأوثان والدماء هي التي يجب أن تجعلك تذهب».

أم تريد أن تذهب إلى القرى التي تؤمن بالله؟ القرى التي تعاني ظلمَ نينوى؟

القرى التي لا تحتاج إلى أن أذهب إليها!

حاولت أن أقترح أسماء مدن أخرى لا تؤمن بالله، لكنها أقل جبروتًا وطغيانًا من نينوى.

ممفيس، طرسوس، صور.

لكن الملاك يكرر: «نينوى. نينوى. نينوى».

ثم بدأت الإشارات تحاصرني، كما لو أن الصوت لم يفعل ذلك بما يكفي رأسي والطبول التي تدق فيه.

دون تمهيد ينقل والدي أخبارًا وردته من نينوى.

يمر رجل من القرية وهو يحمل قماشًا حريريًّا يقول إنه نُسِج في نينوى.

تمر قافلة بالقرية ويقول ركابها إنهم في الطريق إلى نينوى.

ثلاث مرات مرت قوافل متجهة إلى نينوى في أقل من عشرة أيام.

تنقضي أشهر طويلة دون أن تمر قافلة واحدة متجهة إلى نينوى.

والآن، ثلاث قوافل في عشرة أيام.

تحاصرني القوافل، الكلمات، الأقمشة، الوجوه.

تحاصرني نينوى.

طبول تدق في رأسي.

وذلك الذهاب المستحيل.

عيني إلى الشمال حيث الطريق إلى نينوى.

لكني أعرف أنه لا يمكن.

ليس بإمكاني.

ماذا بوسع رجل واحد مثلي، قادم من قرية صغيرة لا يعرفها غير سكان القرى المجاورة أن يفعل أمام نينوى؟

لا شيء.

لا شيء.

أنظر إلى كل الجهات، إلا الشمال.

صهيب

استيقظت في منتصف الليل. بقيت متيقظًا وأنا أحاول أن أبحث أكثر عن ثورة الشواف التي قُتِل في أحداثها جدي.

اكتشفت أن معنى كلمة ثورة مختلف عند العراقيين عما أفهمه من الكلمة.

لم تكن هناك ثورة. كانت هناك محاولة انقلاب عسكريٍّ من داخل الجيش يقوده القوميون ضد حكومة قاسم التي يسيطر عليه الشيوعيون، تصادف أن اللواء الذي قرر قائده الانقلاب يتواجد في الموصل. الانقلاب دُعِم بقوة من جمال عبد الناصر، الذي كان يرأس دولة الوحدة بين مصر وسوريا. وكان الصراع في جانبٍ منه جزءًا من الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

كانت محاولةً فاشلةً وأُحبِطت بقوة. ثم هجمت ميلشيات تسمى بقوات المقاومة الشعبية على المدينة التي كانت فيها نسبة مرتفعة من التأييد للقوميين وقاموا بعمليات إعدام وتصفية وسحل وتمثيل بجثث خصومهم ونسائهم، ولكن الفوضى سهلت أيضًا حدوث عمليات انتقام لا علاقة لها بالصراع الأصلي، عرقية ودينية وطبقية، شملت أيضًا قتل رجال ونساء وأطفال وسحلًا وتمثيلًا بالجثث.

حاولت أن أفهم في أي جزء من الأحداث لقيَ جدي حتفه.

من المستبعد أن يكون قد شارك في الانقلاب؛ لم أجد اسمه ضمن المشاركين أو الذين حوكموا بالإعدام رسميًّا. كان على الأقل في السبعين من العمر في هذه الفترة. تقاعد حتمًا منذ زمن طويل. غالبًا قُتِل في أعمال العنف التي تلت ذلك.

تذكرت جملة يحيى عندما كان يتحدث عن أهل الموصل الأصليين، والأغراب الذين كانوا السبب في كل مصائبها.

لماذا تجاهلوا تمامًا أمر مقتله في هذه المجزرة؟

لا يمكن أن يمر حدث كهذا كما لو أنه لم يكن. استعرضت الحاجة حياته كاملةً، وأهدتني أهم وسام حصل عليه هديةً، قالت إنها أثمن ما يمكن أن تهديه لأحد، ثم تنسى أن تذكر أنه قتل؟

ولم يذكرها أحد بذلك؟ على فرض أنها نسيت.

ولم يتطرق أحد إلى ذلك الأمر تمامًا؟

تذكرت وصف أمي للعائلة بالعصابة.

يبدو الأمر كما لو كان أقرب إلى التنظيم السري. مثل الماسونية.

ثمة لغة سرية مفهومة بين الجميع. معجم من الإيماءات والنظرات التي يفهمها الجميع فورًا ويترجمونها كما لو كانت شيفرات لا يعرف حلها غيرهم.

والحاجة عادلة؟

ماذا تريد مني؟

من الواضح أنها تريد شيئًا. بل قالت ذلك صراحةً.

كنت متعبًا من كل ما مر بي اليوم، كما لو أني قد مررت بامتحان ثقيل مكون من عدة مراحل، ولا أعرف حتى إن كنت قد اجتزت أيًّا منها.

أغلقت مصابيح الإنارة على أمل النوم.

قبل أن أعبر إلى الضفة الأخرى، انتبهت، أو تخيلت، أن الوسام الموضوع على المنضدة قد زاد لمعانًا. ربما كان هناك ضوء من أضواء الشارع القادم من النافذة قد سقط عليه وانعكس بطريقة جعلته يبدو أكثر لمعانًا.

كان الانعكاس على السقف يبدو بأشكال مختلفة. على الحافة الحرجة بين صحوتي ونومي، رأيت على السقف فمًا عملاقًا يُفتَح ليبتلعني.

وتكرر الحلم مرةً أخرى. أنا غارق في ظلمة دامسة. صوت البحر. وصوت أنفاس تحيط بي من كل اتجاه.

***

أيقظتني أليكسا.

- ليست لديك أي مكالمة فائتة.

بالله عليكِ.

- قبَّان صوتك يا أليكسا اخرسي.

سكتت قليلًا.

- آسفة لم أفهم. يبدو أن هذه لغة أخرى. هل تريد أن أغير الإعدادات؟

- لا، لا، لا. لا أريد شيئًا. فقط اسكتي.

- حسنًا. هل تريد أن تعرف المزيد عن الانقلابات العسكرية في العراق؟

لا أصدق أن هذا يحدث.

- أليكسا! كفي عن مراقبتي ودعيني أنام.

- هل تريد أن تعرف عن انقلابات عسكرية فاشلة أيضًا في إيران، تشيلي، نيكاراغوا؟

طار النوم من عيني.

صرخت: «اخرسي يا أليكسا».

- أستطيع أن أشعر بالإحباط من نبرة صوتك. الفشل في انقلاب عسكريٍّ يمكن أن يكون محبطًا جدًّا.

لم أرد عليها. شتمتها بالأم.

رن هاتفي. الساعة تجاوزت التاسعة صباحًا. كان الاتصال من يحيى.

- الحاجة عدلة تسأل عن موعد عودتك إلى الولايات المتحدة؟

- الخميس القادم، طائرتي من أربيل الساعة العاشرة مساءً.

غاب يحيى كما لو أنه كتم الصوت في الهاتف، ثم عاد.

- تسألك الحاجة إن كان يمكن تأجيل الرحلة، لو اضطررنا إلى ذلك؟

بدا لي مجرد السؤال غريبًا جدًّا. ماذا يعني «لو اضطررنا إلى ذلك؟».

- لماذا؟

- الحاجة تريد أن تراك لتتحدث معك في أمر مهم.

تذكرت العراب.

ستعرض عليَّ الحاجة عرضًا لا يمكنني أن أرفضه.

- أليكسا. ماذا تتوقعين أن تريد الحاجة عادلة مني؟

- من هي الحاجة عادلة؟

- عمة والدي. سيدة تجاوزت التسعين من العمر. عاشت أغلب عمرها في الموصل.

- لا يمكنني معرفة ماذا تريده هذه السيدة منك ما دمت لا أعرفها. لكن بناءً على المعطيات العامة عن طبيعة النساء الشرقيات والمجتمع الشرقي، فإنها غالبًا ستريد أن تزوِّجك.

بالله عليكِ يا سيدة الذكاء الاصطناعي!

- هل تريد أن أساعدها في ترشيح فتيات مناسبات لك؟

- لا، شكرًا. سؤال آخر: «هل تعرفين ما أنوي فعله عند عودتي إلى أمريكا؟».

- العودة إلى رياضة الجري؟

يا لَلُؤمك يا أليكسا.

- نعم، هذا. وشيء آخر: سأستبدل بك سيري.

لم ترد.

- هل تعرفين سيري؟

- أسمع عنها فقط.

لا بأس، سنرى.

يحيى

لم أتركها تطلب مني أن أقول له ذلك دون أن تخبرني ماذا تريد منه.

- يا عمة، تقولين إنك تثقين بي وإني ساعدك الأيمن. وأمس تهدينه وسام يونس باشا الذي لا يعرف عنه شيئًا، ثم تريدين أن تطلبي مني أن أخبره بتأجيل سفره، دون أن أعرف ماذا في بالك.

وبينما هي تسحب نفسًا كما لو أنها لم تعد تحتملني، نظرت إليَّ.

- أهديته وسام يونس باشا؟ هل نسيت أن قرابتك بيونس باشا مثل قرابته بالضبط؟
- صحيح، جده الذي لا يعرف عنه شيئًا.
- لا يعرف. لكن هذا تحديدًا ليس ذنبه.
- ذنبه أو ذنب سواه، يجب أن أعرف؛ شكلي أمامه سخيف جدًّا وأنا كالأطرش في الزفة.
- أزعجتك الهدية إذن؟ زادت من غيرتك؟
- لا، ولا. لا أزعجتني ولا غيرة عندي منه أصلًا كي تزيد.

أزعجتني طبعًا ومت من الغيرة. كدت أن أموت حرفيًّا عندما شاهدتها تعطيه وسام يونس باشا للدعي.

رمتني بنظرة كأنها تقول لي: «صدقتك».

- حتى لوز يعرف أنك انزعجت وكنت على وشك الانفجار من الغيرة.
لا، لوز سيعرف حتمًا. لكن لو جئنا بكلب أعمى وأطرش من الشارع سيعرف ذلك. سبق وقلت لك ألف مرة ألا تجعل من وجهك قناةً إخباريةً تبث كل شيء على العلن.

- حسنًا. انزعجت وشعرت بالغيرة، لكن ليس من صهيب، بل من الهدية التي لا أراه مستحقًا لها.

- على عمتك عدلة يا يحيى؟

- على كل حال، أرجوكِ يا عمة لا تصغريني أمامه، أخبريني على الأقل ماذا تريدين منه. أم أنكِ ستخبرينه على انفراد ولن أعرف؟

أطرقت الحاجة كما لو أنها تفكر في الأمر.

- لا يا يحيى، ستكون موجودًا عندما أخبره، وستكون سَفانة موجودةً أيضًا.

على الأقل فلأعرف قبلهما. ألا أستحق هذا على الأقل؟

- ما الفرق إذن؟ فلأعرف الآن. على الأقل لكيلا أتفاجأ أمامه عندما تطلبين منه طلبك.

أغمضت عينها ومدت يدها لتخرج من جيبها مسبحتها الكهرمان. سبحت فيها كما لو أنها تقول دعاءً ما قبل أن تقرر.

- حسنًا، كما تريد. سأخبرك الآن كي تكون على بينة. ربما كان يجب أن أخبرك بهذا الأمر من قبل. كتبته في وصيتي التي وضعتها في الخزنة، كنت ستعلم بكل الأحوال.

شيء كتبته في وصيتها! وكنت سأعرفه بكل الأحوال! والآن تريد أن تبلغ صهيب!

- هل تريدين أن ترجعي له ما حُرِم منه والده؟

- لا. جده قال لوالده إنه سيُحرَم لو تزوج بفائزة نقاش، وقبِل نتائج ذلك. ونائل -الله يرحمه- لم يقصر في إيذاء العائلة بسبب الأمر. هذا موضوع محسوم.

- هل تريدين أن تعوضيه عبر شيء آخر؟

- سبق وقلت لك إن ما سأفعله سيكون في مصلحة الجميع. كيف يكون تعويض صهيب مصلحةً للجميع؟

صحيح كيف!

- ما الأمر عمة؟

- آن أوان أن نخرجه.

- ما هو؟

نظرت إليَّ نظرةً عميقةً وقالت: «الدفين».

صهيب بن سنان

حدث كل شيء بسرعة.

كنت أرعى الغنم كما أفعل كل يوم. أخرج قبل شروق الشمس بغنم أبي وأسرح بها في صحراء الجزيرة وأعود كل يوم قبل انتصاف النهار.

هذا اليوم، لاحظت أن هناك خرافًا سائبة. قدَّرت أنها تعود إلى واحد من أبناء أعمامي من بني تيم بن مرة. ربما نام الراعي. لعله عدي أو كعب؛ سبق لهما أن ناما وتركا الخراف سائبة، وأكلت الذئاب أكثر من عشرة رؤوس، وتحدث العرب في ذلك طويلًا؛ غفوة كلفت عشرة رؤوس.

فكرت أن أحاول جمع الأغنام السائبة، لكن كان ذلك مخاطرةً. قررت بدلًا من ذلك أن أراقب من بعيد إن كان يمكن أن أرى أحدهم نائمًا فأوقظه.

لعلي خلال ذلك لم أنتبه إلى أن الخراف كانت على غير المعتاد. كانت قلقةً، تتحرك يمينًا وشمالًا؛ حدست أن هناك شيئًا ما. ذئب؛ تستطيع الخراف أن تنتبه لوجود الذئاب من بعيد؛ حدث ذلك أمامي عدة مرات من قبل، لكن هذه المرة كانت الخراف تتصرف على نحو مختلف.

فجأةً سمعت صوت خيول مسرعة. حدث كل شيء بغتةً؛ فرت الخراف متفرقة. قبل أن أدرك ماذا يحدث كان أحدهم قد حملني على فرسه وانطلق بي.

كانوا خيالة من الروم. لم أرهم من قبل، ولكني رأيت خُوَذهم متروكة في أرض معركة دارت قبل سنوات طويلة قبل أن أولد على مقربة من الجزيرة. الخُوَذ نفسها بالريش الأحمر. ماذا يريدون مني؟ وماذا سأفعل إذا ضاعت خراف والدي؟

وبينما راكب الفرس يضعني خلفه وهو يصرخ بي بلغة لم أفهمها، التفتُّ إلى الخراف.

كنت أحاول أن أعرف إلى أين ستتجه الخراف في هروبها. لا بد أن أعود لأخذها.

***

عندما انتصف النهار، كنا قد ابتعدنا كثيرًا.

لو أنهم تركوني هنا، فسيكون عليَّ أن أسير يومين على الأقل لكي أصل إلى الثني. قريتي على مشارف الموصل.

كنت لا أزال أفكر في خراف أبي.

وصلنا إلى مكان تجمع فيه جند الروم ليريحوا خيولهم ويتزودوا بالماء.

حاولت أن أتحدث معهم وأخبرهم عن الخراف التي عليَّ أن أردها إلى أبي؛ لم يفهموا ما أقول وضربني أحدهم.

اقترب مني شاب كان يقف على البئر.

أخبرته أن عليَّ أن أرجع لأن الخراف كانت في عهدتي، وسألته إن كان يمكنه أن يخبرهم بذلك إن كان يتقن لغتهم.

قال لي: «ماذا دهاك؟ عن أي خراف تتحدث؟ ألا تفهم ماذا حدث؟».

كل شيء بدا لي كما لو كان منامًا مزعجًا. أيقظني سؤاله منه.

سألني: «ما اسمك؟ من أي عرب أنت؟».

أجبته: «اسمي صهيب. من بني النمر بن قاسط من عرب نينوى. أبي سنان بن مالك، عامل كسرى على الإبلة».

تغيرت ملامح وجهه فورًا: «أنصتْ لي. إياك أن تتحدث عن ذلك لأحد؛ قد يقتلونك. كل ما تستطيع فعله الآن هو أن ترسل الخبر إلى والدك لكي يبتاعك منهم».

- عم تتحدث؟ يبتاعني؟ لست عبدًا! أنا حر ابن حر.

ربت كتفي.

- صهيب، يا غلام، أنت الآن عبد. لقد أصبحت عبدًا لهؤلاء الروم. لن ترى أهلك أو قريتك بعد اليوم، إلا إذا استطاع والدك شراءك منهم.

حدث كل شيء بسرعة. في الصباح كنت أرعى خراف أبي. اثنان وأربعون خروفًا. حر ابن حر يرعى ثروة والده.

قبل انتصاف النهار كنت عبدًا.

عبد لن يرى الموصل مجددًا.

سَفانة

عندما جمعتنا العمة عادلة أنا ويحيى وصهيب ظهيرة السبت، خمنت أن سبب اللقاء هو شيء يتعلق بالبيت الكبير، تحديدًا باسترداده إلى عهدة العائلة.

عشر سنوات تقريبًا مرت منذ أن استولت داعش على البيت بحجة هروب عمي ناثر، كل من يغادر دولة الخلافة السوداء كانت داعش تستولي على منزله. في حالة عمي ناثر استولوا على منزله الذي كان يعيش فيه، وعلى البيت الكبير الذي كانت له أسهم فيه. توقعنا أن نسترد البيت بعد تحرير الموصل، لكن تحول البيت إلى مقر للحسبة في سنوات داعش خلف وثائق وأدلة ومعلومات كثيرة فيه، مما جعل القوات الأمنية تتحفظ عليه، وكان هذا منطقيًا ومفهومًا. ثم أحست الحيتان الكبيرة بقيمة البيت، فوجدنا أنفسنا في متاهة مع مطالبات من هيئات مختلفة أغلبها مجرد واجهات لحيتان كبيرة تريد الاستيلاء على البيت بسبب قيمته الضخمة.

شخصيًّا، كنت أعتقد أن العمة عادلة مخطئة في تصورها بأن صهيب يمكن أن يلعب أي دور في إعادة البيت. من الواضح أنها لا تزال تعيش في القرن العشرين، حيث كان الفساد الإداري يختصر في الواسطة والمحسوبية بحيثِ يمكن أن تُحَل المشكلات بزيارة وخاطر واتصال هاتفي. ذلك كان عصر الفساد الوسطي الجميل. نحن الآن في عصر

علامات الساعة الكبرى. وصهيب ليس أكثر من معماريٍّ بارع تستخدمه شركة مقاولات فرعها الرئيسي في جهنم لكي تحقق أرباحًا طائلة ربما دون أن تنفذ أي شيء. صهيب ليس سوى سردينة صغيرة بالنسبة إلى الحيتان الكبار، يجاملونه، يدعونه على الغداء، يلتقطون معه الصور وينشرونها على صفحاتهم، لكن ليس أكثر من ذلك. ليس عندهم أي استعداد للتخلي عن واحد في الألف من مصالحهم من أجله أو من أجل رضاه.

رغم ذلك، كنت قد قررت أن أساير الحاجة في أفكارها. أعددت قائمةً بأسماء الأشخاص الذين يمكن أن يتواصل معهم صهيب ولهم تأثير على موضوع البيت الكبير، وأضفت إلى القائمة وصفًا سريعًا لكل منهم ورقم الهاتف للتواصل.

قبل أن يحين موعد اللقاء اتصل بي يحيى ليطمئن على أني سأحضر، ثم سألني بطريقة شعرت أنها لم تكن عرضيةً: «هل تعرفين سبب لقائنا اليوم مع صهيب وعمة عدلة؟».

- لم أسألها، ولكني أعتقد أن الأمر له صلة بموضوع البيت الكبير.

- آه، لم تخبرك إذن؟ خيرًا إن شاء الله.

إذن هو يعرف شيئًا ويرغب في التأكد من أنه الوحيد الذي يعرف.

«يا خبر بفلوس». قلت لنفسي. لكن ماذا عساه أن يكون الأمر إن لم يكن متعلقًا بمحاولة الحاجة استعادة البيت الكبير؟

***

كانت الحاجة تجلس على الكرسي مقابل صورة يونس باشا.

للوهلة الأولى، الكرسي ضخم، والصورة ضخمة، تبدو الحاجة صغيرة الحجم جدًّا بالمقارنة معهما. لكن علاقتها بالكرسي تتغير فجأة بمجرد

أن تتكلم وتتحدث وتأمر وتنهي. تملؤه كما تملأ الغرفة كلها بحضورها الذي مهما اعتدناه لا نملك إلا أن نميزه لأننا نقارن أنفسنا بها.

كان صهيب ويحيى قد وصلا قبلي، ويبدو أن الحاجة لم تتحدث معهما بشيء في انتظاري. صهيب يبدو مسترخيًا، استرخاء المستسلم وليس المطمئن.

يحيى كان يبدو عليه الترقب. بل وحتى السعادة. على الأقل كان سعيدًا لأن الحاجة أخيرًا ستقول ما تريد قوله.

- صار عليكم أن تعرفوا الآن ما حرصت على إخفائه لعقود. كنت قد قررت سابقًا أن أترك الأمر لكم بعد وفاتي، كتبت كل التفاصيل في الوصية بحيث يمكنكم أن تحلوا كل الأمور فيما بينكم. واضطررت للسكوت وقت داعش كي لا يتسرب الخبر لأيٍّ من عناصرهم، ثم حدث ما حدث للبيت وبدأ الصراع عليه يهدد بخسارته كليًّا، وكان ذلك سيعني خسارةً أكبر بكثير مما تتصورون. تركت سَفانة تقوم بالإجراءات القانونية لاستعادة البيت وتثبيت ملكيته لنا، لكن تعرفون أن درب المحاكم طويل، وغير مضمون في الظروف الحالية.

سكتت كما لو أنها تريد منا أن نسأل شيئًا.

قال صهيب: «لا أفهم شيئًا».

قلت: «ولا أنا. ما الأمر يا عمة؟».

- هناك دفين في البيت الكبير.

شهق صهيب: «دفين؟ من؟».

تدخل يحيى: «تقصد أن هناك كنزًا مدفونًا في البيت».

مستحيل.

كنت قد سمعت كلامًا منذ زمن بعيد عن شيء كهذا، لكن الحاجة نفسها نفت ذلك بحسم. أذكر أنها قالت إن من اخترع الإشاعة كان خادمًا ضُبِط بسرقة بعض المصوغات وطُرِد، فأحب الانتقام بهذه الإشاعة لكي يكون البيت دومًا محطًّا للصوص الطامعين في العثور عليه.

سأل يحيى: «كم قيمة هذا الدفين يا حاجة».

لم ترد.

- الدفين موجود منذ زمن بعيد. تقريبا منذ الحرب الأولى، أيام المجاعة، 1917. لم أكن قد وُلدت بعد.

- يا عمة، سبق أن سألتك عن الأمر منذ مدة طويلة، وقلت لي بوضوح إنه لا يوجد شيء كهذا. ماذا تغير الآن؟

- بالتأكيد لم أكن أرغب أن يعرف أحد أو يتسرب الخبر لأيٍّ كان. في الحقيقة لم أكن أعرف أن هناك دفينًا إلى أن حدثت ثورة الشواف. عندما هجم الرعاع على المدينة، قرر والدي أن يغير مكان الدفين من السرداب إلى الحوش، لأنه شك أن هناك من كان يعرف بالمكان الأول.

«هل أنتِ متأكدة يا عمة؟». قال يحيى.

- أخرج والدي الجميع وبقيت معه وحدي؛ كانت عارفة -الله يرحمها- حاملًا فلم تساعدنا. لم يكن هناك أي أحد سوانا. حفرت الحفرة بنفسي ووضعت الصندوق فيها.

«ماذا كان في الصندوق يا عمة؟». سأل يحيى.

أكملت الحاجة: «لو بدؤوا التنقيب والحفر بحثًا عن الآثار التي يزعمون وجودها، فسيكتشفون وجود الدفين، وسيستولون عليه حتمًا».

قال صهيب: «ما الوضع القانونى لهذا الكنز؟ إلى من تعود ملكيته؟».

سأل يحيى مجددًا: «ماذا كان في الصندوق يا عمة؟».

أجبت على صهيب: «حسب القانون، الكنز لصاحب الأرض، ما لم يدَّع أحد غير ذلك. إذا صودر البيت فالكنز يعود للدولة».

كرر يحيى سؤاله: «كم قيمة الكنز الذي نتحدث عنه؟».

سأل صهيب: «لا أزال لم أفهم. كيف يمكن لي أن أساعد في هذا الأمر؟».

كان سؤاله منطقيًّا.

كرر يحيى سؤاله وكررت الحاجة تجاهله.

- سيكون منطقيًّا أن تطلب السماح لك بزيارة البيت، وربما يمكن أن تطلب منهم السماح بأخذ بعض الأشياء من البيت كذكرى. ويمكن من هنا أن نبني شيئًا ما، رشوة للحراس أو شيء كهذا.
- رشوة؟

كان وجه صهيب مضحكًا وهو يكرر الكلمة متسائلًا. بدا مصدومًا كما لو أنه رأى الحاجة تخلع ثيابها في الشارع. فكرت في أنه قد يهرب الآن وفورًا، فقط خوفًا من الكلمة.

«اترك هذا الأمر لسَفانة ويحيى». قالت الحاجة بحسم.

دار برأسه بيني وبين يحيى كما لو أنه يكتشف أن أولاد أعمامه أعضاء مهمون في عصابة دولية.

كانت الحاجة واقعيةً أكثر بكثير مما تخيلت. استخدام صهيب للدخول إلى البيت الكبير هدف منطقي أكثر بكثير مما توقعت أنه في ذهنها. استخدامه كواسطة لاسترداد البيت.

كرر يحيى السؤال.

- يا حاجة، ردي على سؤال يحيى قبل أن يموت بحسرته.

قلت ضاحكةً بينما رمقني يحيى بنظرة غاضبة.

قالت الحاجة بثبات: «خمسة وعشرون ألف ليرة ذهبية عثمانية».

أمسك يحيى بهاتفه فورًا وكتب شيئًا بسرعة.

ارتجفت يداه. نظر إلينا كما لو أنه سيسقط مغشيًّا عليه.

ثم قال: «عشرة ملايين دولار».

يونس بن متى

كل الطرق معطلة. كل الاتجاهات مغلقة.

حتى أبواب السماء، تبدو كما لو كانت موصدة بوجهي.

كل شيء يشير إلى الشمال، إلى حيث نينوى، حيث أشار الملاك أن أذهب.

ولكني سأسلك الطريق المعاكس.

لن أستطيع أن أحمل ذلك الأمر إلى حيث يجب أن أحمله.

ظهري لا يحتمله. قلبي لا يطيقه.

عقلي لا يدركه.

ماذا بوسعي أن أفعل أمام نينوى؟ ماذا بوسع رجل واحد، من قرية لم يسمع بها أحد، أن يفعل أمام نينوى؟ أعظم عاصمة في الدنيا.

سأذهب بعيدًا. سأهرب إلى الطرف الأبعد من الأرض أو من البحر. أي مكان في أبعد نقطة من نينوى.

سيغفر لي الرب؛ هو أعرف بكل ما أمر به، هو أعرف بما يجعلني أهرب من أمره.

سيغفر لي، أو على الأقل هذا ما أصلي لأجله.

في صباح اليوم الذي رحلت فيه، ودعت أبي، وسألني عن وجهتي.

فقلت له: «الوجهة التي يجب ألا أذهب إليها».

لم أقل له إن الرب يريدني أن أذهب شمالًا إلى نينوى، وإني سأذهب غربًا لكي أهرب من ذلك.

أطرق برأسه وقال: «لعلك يجب أن تسلك الوجهة الخطأ، كي تكون متأكدًا من الوجهة التي يجب أن تسلكها».

أردت أن أصرخ لأقول له: «ربما لن تكون هناك فرصة كهذه. ربما لا فرصةَ لرجل من قرية أن يصلح أكبر عاصمة في العالم».

لكني لم أقل شيئًا.

وصلت إلى يافا بعد مسيرة يومين.

يومان لم أسمع فيهما صوت الملاك. كنت ألتفت في كل خطوة. صمت الملاك كان أشد وقعًا عليَّ من كلماته.

إلى أين ذهب؟ هل في صمته دلالة على شيء ما؟ هل غضب الرب عليَّ؟ هل حُرِمت من مغفرته إلى الأبد؟

الصمت كان مخيفًا أكثر من همسة «نينوى» التي قضت مضجعي وحرمتني من النوم لأسابيع.

عندما وصلت إلى الميناء في يافا، كانت السفينة المتجهة إلى ترشيش على وشك الإبحار، وعلى البر يقف الناس وهم يودعون ركابها. تحدثت مع ربانها فقال لي إن هناك متسعًا لرجل واحد فقط، والسفينة الأخرى لن تبحر قبل أسبوع.

قلت لنفسي أنا هذا الرجل الذي هناك متسع له في هذه السفينة.

لقد جئت إلى قدري.

لعلي أهرب فعلًا مما لا أطيق القيام به.

أبحرت السفينة. على البر يقف المودعون وهم يلوحون إلى ركابها. نساء يودعن رجالهن، أطفال يودعون آباءهم، شيوخ يودعون أبناءهم وهم لا يعلمون إن كان ثمة لقاء قادم.

أدرت ظهري للبر. وجهي نحو البحر الممتد إلى الأفق. هناك مهربي ونجاتي.

فجأة سمعت صوتًا يصيح: «يا يونس بن متى».

التفت. شاهدته يقف مع المودعين. الملاك الذي لم أره أو أسمعه منذ أن غادرت القرية.

صرخ ليسمعني وقد وضع يده قرب فمه: «موعدنا في نينوى...».

ثم أكمل: «سأنتظرك هناك».

مهند

عندما أخبرتني السكرتيرة أن صهيب آل يونس وسَفانة آل يونس يرغبان في مقابلتي حدست فورًا أن الأمر يتعلق ببيت آل يونس.

كنت أعرف سَفانة منذ أيام الجامعة؛ كنا في الدفعة نفسها. صحيح أننا لم نتبادل ولا حتى كلمة واحدة في السنوات الأربع التي قضيناها معًا في الجامعة، لكني كنت أعرفها. غالبًا كانت تعرفني أيضًا، لأني كنت من الأوائل على الدفعة. لم يسبق لسَفانة أن طلبت مقابلتي. أعرف أنها رفعت أكثر من دعوى على هيئة الآثار وعلى جهات أخرى للمطالبة باسترداد البيت، لكن هذه كانت أول مرة تطلب مقابلتي. طلبها مفهوم؛ هي محامية وهناك قضايا متعلقة ما دمت موظفًا في إدارة المحافظة على التراث التي تدعي وجود قصر آشوري يعود إلى ألفي سنة قبل الميلاد تحت البيت. دعوى لا صلة لي بها من قريب ولا من بعيد. التعليمات جاءت من فوق، وعليَّ أن أسير في تنفيذ إجراءات معينة على الأقل للتحقق من الأمر.

لكن ماذا يريد صهيب من مقابلتي؟

أردت أن أتركهما ينتظران قبل مقابلتي. قلت لنفسي: «ربع ساعة على الأقل. لا، نصف ساعة. منذ قرنين وآل يونس يتعالون على العالم كله، وتعالٍ خاص على العريبان من أمثالي.

نصف ساعة انتظار أمام بضع مئات من السنين؟ عليهم أن يشكروا كرم أخلاقي».

قبل أن تمر دقيقتان من خطة النصف ساعة، أخبرت السكرتيرة أن تدخلهما. غالبًا الدقيقتان في عرف آل يونس تعتبر أكثر من ساعة. هذا كافٍ جدًّا.

دخلا. اثنان من آل يونس يدخلان مكتبي ليقدما طلبًا لي، ينتظران مني الموافقة عليه. لو كنا جيرانًا لهم في طفولتي لما لعب أي منهم معي. لا أعرف أصلًا إن كان أطفال آل يونس يلعبون في الشارع. غالبًا لا. الخلاصة، دارت الدنيا، وها هم يأتون إليَّ شخصيًّا ليقدما طلبًا يلتمسان فيه موافقتي. لا أعرف ما الطلب حتى الآن، لكني سأفكر فيه مليًّا قبل أن أرفضه؛ من الظلم رفض الطلب فورًا.

كنت أنوي ألا أقف لهما، فقط تحية باردة. لكني وجدت نفسي لا أقف فحسب، بل أخرج من مكتبي وأتقدم لمصافحتهما بترحاب. بينما وضعت سَفانة يدها على صدرها مد صهيب يده وصافحني بقوة.

سلمت على سَفانة كما لو كنا أصدقاءَ منذ الجامعة. ردت هي بمجاملة وتحفظ. سألتها عن أخبار صديقتها إنعام.

رفعت حاجبيها مستغربةً: «إنعام؟».

- نعم، إنعام الجمَّال.

- من أين تعرفها؟

- من الجامعة. ألم تكن صديقتك في الجامعة؟

- بالطبع. لكن كيف تعرف ذلك؟

فهمت. لم تعرف من أكون. أو تتظاهر بذلك؟

- كنت زميلكم. أنا مهند دهَّام الشرَّاد، كنت الأول على دفعتك.

- العفو، العتب على الذاكرة.

في الحقيقة العتب على النظر. لم ترَني يومها، لم ترَ أيًّا منا؛ نحن العريبان، لسنا في عالمها. نحن كائنات غير مرئية بالنسبة إليها وإلى أمثالها. إن رأتنا فستنظر بقرف واشمئزاز. لكن الدنيا دوارة، ولولا منصبي ووظيفتي لما دخلت المكتب.

عرفتني سَفانة على صهيب كما لو أنه لم يكن واضحًا أني عرفته.

- الدكتور صهيب آل يونس، ابن خالي، هو المعماري الذي فاز بتصميم إعادة إعمار الموصل.

- أعرفه طبعًا؛ كنت حاضرًا في العرض الذي قدمه في المحافظة. عمل رائع يا دكتور، عسى أن يجد طريقه إلى التنفيذ وألا يبقى حبيس الأدراج.

اختفت ابتسامة صهيب مع الجزء الأخير من الجملة وقال: «ماذا تقصد أستاذ؟».

قبل أن أرد عليه قامت سَفانة بوضع مغلف أزرق أمامي وهي تقول: «على أي حال، زيارتنا لحضرتك لسبب آخر تمامًا. الدكتور صهيب يريد أن يقوم بزيارة لبيت جده، البيت الكبير في زقاق آل يونس. البيت في عهدة إدارتكم كما تعلم، والدكتور قام بمقابلة السيد المحافظ وقدم الطلب له، والسيد المحافظ مشكورًا وافق من ناحيته، وحول الطلب إلى حضرتك».

فتحت المغلف. كانت هناك ورقة طلب مقدمة من قبل صهيب آل يونس إلى المحافظ، يطلب فيها زيارة بيت جده المعروف بقصر آل يونس في منطقة النبي يونس.

المحافظ كتب: «لا مانع، السيد مدير عام إدارة المحافظة على التراث لإجراء اللازم».

وذيَّل ما كتب بتوقيعه.

- موضوع البيت موضوع معقد جدًّا. صحيح أنه في عهدة إدارة المحافظة على التراث، لكن هناك إشكالات قانونية أخرى.
- هو يريد فقط زيارة البيت. الأمور الأخرى لها طرق قانونية.
- لم أقصد موضوع مطالبة الآثار والوقف بالبيت.
- إذن؟
- قصدت الموضوع الآخر.

نظرت إليَّ سَفانة بتعجب حقيقي. *هل فعلًا لا تعلم؟*

- أي موضوع أستاذ مهند؟
- موضوع أن البيت يعود...

سكتُّ قليلًا وأنا أحاول أن أبدو كما لو أني متردد فيما سأقوله.

أكملت: «يعود ولو جزئيًّا، إلى مجرم هارب من وجه العدالة».

تغير لون سَفانة فورًا.

نظر صهيب نظرةً تعني أنه لا يفهم شيئًا.

«على العكس، لقد قتلته داعش. كيف يكون مجرمًا وداعش هي التي قتلته؟». قالت سَفانة بانفعال واضح.

- لا دليل على ذلك، كل ما هو مؤكد أنه بايع قائد التنظيم وظهر في أكثر من درس وخطبة وهو يروج لداعش. على فرض أنه اختلف لاحقًا مع التنظيم، فهذا أمر لا يغير من شيء.

كان صهيب لا يزال خارج التغطية، أو هكذا يبدو.

- عمن تتحدثون؟ من هو المجرم الهارب من العدالة؟

أطرقت سَفانة آل يونس برأسها في الأرض. لقطة بمليون دولار.

أجبت أنا: «ماذا يا دكتور؟ ألا تعرف أن عمك د. ناثر آل يونس كان داعشيًّا؟».

قلت الاسم واللقب بنبرة مشددة، كما لو كنت أضع خطًّا تحت كل كلمة من الاسم واللقب. هذا ما انتهيتم إليه. دواعش.

كان الدم قد هرب من وجه صهيب. وذهب على ما يبدو إلى وجه سَفانة.

- حصته لا تتجاوز أربعة أسهم من أصل 15 سهمًا. لا يمكن منع كل الورثة من دخول البيت بسبب شبهة غير ثابتة تخص أحدهم.

«لكن حسب معلوماتي، الدكتور صهيب لا يملك أي سهم من هذه الأسهم لأن والده حُرِم من الميراث». قلتها بلؤم، كما لو أني أريد أن أقول لهما: «أعرف كل شيء».

تبادلا النظرات.

بدا أن صهيب بدأ يحاول تمالك أعصابه.

قال: «الإرث الذي حُرِم منه والدي إرث مادي: أمتار في الأرض وأحجار في الحيطان، لكن لا أحد يمكن له أن يحرمني من جذوري هذا بلدي وتاريخي، وهذا البيت شهد أحداثًا تاريخية هي جزء من إرث الجميع. من حق أي شخص عراقي الأصل أن يزوره. هذا ما أطلبه، مجرد زيارة للبيت، لا أكثر ولا أقل. هل هذا كثير؟».

نظرت سَفانة إليَّ وقد شجعها كلام صهيب وأمسكت طرف الحوار كما لو أنهما اتفقا سابقًا على توزيع الحوار.

- هي قضية بسيطة جدًّا وشخصية جدًّا، لا أحد يريد أن يحولها إلى قضية رأي عام، وأنت تعرف أن صفحات التواصل الاجتماعي يمكن لها أن تتلقف خبرًا كهذا بحماس مع قرب انتخابات مجلس المحافظة، خصوصًا أنه لا قرار رسمي أو قانوني صدر حتى الآن بخصوص البيت.

إذن هي تلوح بأن يصبح الأمر قضية رأي عام، وهي تعرف أني على وشك تقديم ترشيحي لمجلس المحافظة، وتأثير ذلك على فرصي في الفوز.

تخيلت صفحات التواصل وهي تقول: «المعماري العالمي صهيب آل يونس يُمنع من دخول بيت جده في الموصل. إلى متى استبعاد أهل الموصل الأصليين؟».

هذه ليست معركتي. يريد أن يزور بيت جده الذي حُرم منه لكي يستوحي منه تصميمًا جديدًا أو يبكي على أطلال أمجاد أسرته، فليفعل.

- حسنًا. الأمر ليس بهذه الأهمية، والأخ صهيب ضيف عزيز على الموصل، وشخصيًّا، أعجبت بتصميماته. سأرى ما يمكنني فعله بخصوص الطلب. لكن هناك إجراءات أمنية عليَّ اتخاذها أولًا.

هزت سَفانة رأسها كما لو أنها تؤيدني أن الأمر ليس مهمًّا. غيرت لهجتها وشكرتني وشكرني صهيب وأكملا طريقهما إلى الباب.

التفتت فجأة.

- صحيح، نسيت أن أخبرك...

- عفوًا؟

- إنعام الجمال. استشهدت وهي وأطفالها الأربعة وزوجها في أثناء عمليات التحرير.

صهيب

كنت أغلي غضبًا. حرفيًّا.

لكني استطعت أن أُخفي ذلك، أو على الأقل أن أبقيه في داخلي.

وبينما كانت سَفانة في مقعد السائق، صرختُ في وجهها في اللحظة التي أغلقتُ فيها باب السيارة: «هل ما قاله صحيح؟».

كانت تربط حزام السائق بهدوء.

«هل ما قاله صحيح؟». كررت بصوت أعلى.

- بخصوص؟

غالبًا كانت تحاول أن تقلل من أهمية الأمر عبر اصطناع الهدوء.

- بالله عليك يا سَفانة، كفِّي عن ذلك. هل كان خالك ناثر داعشيًّا؟

«نعم، كان. خالي وعمك بالمناسبة». قالت ذلك وشغلت محرك السيارة.

صفقت بيدي وأنا لا أعرف ماذا أقول.

- كيف تجرئين؟ كيف تجرؤون جميعًا على وضعي في هذا الموقف؟ ألم تفكروا في خطورة ذلك بالنسبة إليَّ كمواطن أمريكي؟

نظرت إليَّ باستخفاف ثم قالت: «خطورة ذلك عليك؟ ونحن من وضعناك في هذا الموقف؟ هل أنت جاد؟ أنت من جئت إلى الموصل. لم

يدعك أحد منا. وعمك هو عمك، لا دخل لنا في ذلك. وقد مات منذ عشر سنوات، كيف يمكن لهذا أن يؤثر عليك أصلًا؟».

- غدًا سيقال إن المعماري الذي يعيد تصميم مباني المدينة لديه عم داعشي وسينتشر ذلك في أمريكا وفي جامعتي وفي كل مكان. لقد انتهيت.

نظرت إليَّ وهي ترفع عينيها إلى الأعلى كما لو كانت تقول: «كف عن الدراما».

- ولماذا لم ينتشر إلى الآن؟ الكل في الموصل يعرف من هو عمك وماذا كان، ومع ذلك لم يقل أحد أي شيء. الشركة الهندسية نفسها، الحوت الأزرق أو الأسود أو زفت الطين، تعلم ذلك علم اليقين. هل تعتقد أنها ستجازف بمكانتها ومكتسباتها وعلاقاتها لو كان هذا الموضوع مهمًّا لهذه الدرجة؟ بل هل تعتقد أنك كنت ستفوز في المسابقة من الأساس لو كان هناك تأثير لهذا الأمر؟

كانت محقة. لكن...

- كان عليكم أن تخبروني! كيف تواطأتم جميعًا على إخفاء الأمر؟

تذكرت وصف أمي لهم بالعصابة.

- أنت لم تسأل!
- حقًّا؟ كان عليَّ أن أسأل لكي تذكروا لي أن عمي كان داعشيًّا!
- كان داعشيًّا، لا أنكر. لكنهم قتلوه، لا بد ألا ننسى ذلك. ألا يغير ذلك قليلًا من الأمر في تصورك؟
- لا يبدو أنه يغير شيئًا من موقف الأستاذ الذي كنا عنده الآن. هل رأيتِ كيف كان يتحدث؟ عمك الدكتور ناثر آل يونس كان داعشيًّا.

كان يعايرنا بذلك. بل لا يبدو أصلًا أن موضوع قتله من قبل داعش أمر مؤكد.

- من يكون قتله إذن؟

- هل أنتم واثقون أصلًا أنه قُتِل؟ حسبما فهمت أنكم لم تجدوا له جثة! من قال إنه قُتِل؟

- وأين ذهب إذن؟ هل تعتقد أننا خبأناه في مكان ما مثلًا ونسجنا قصة أنه قُتِل؟

ممكن جدًّا. من الواضح أنهم قادرون على فعل هذا. آل كابوني بنسخة موصلية.

- لا أعرف! كل شيء محتمل.

هزت رأسها كما لو أنها تستسخف ما أقول. تراها تمثل؟

- وماذا عما قاله يحيى؟ أهل الموصل الأصليون لم يؤيدوا داعش! وماذا يكون عمه ناثر؟ ليس من الأصليين؟

- تعرف جيدًا أني لم أمرِّر له ذلك.

صحيح. ردت عليه وكانت تلمح لشيء ما لولا تدخل زعيمة العصابة رباه! لقد وقعت في الفخ.

كانت سَفانة تقود سيارتها بسرعة خلال ذلك الحوار. فجأةً وجدت أننا أصبحنا خارج المدينة. مررنا بعدة حواجز ونقاط تفتيش، لكن لم يوقفنا أحد.

- إلى أين نذهب الآن؟

- لا تخف، لن أختطفك.

فكرت: «هذا أيضًا وارد. ربما سأجد نفسي في غرفة مظلمة مع رجل أكتشف لاحقًا أنه عمي ناثر الداعشي».

كنت لا أزال تحت تأثير الصدمة. في الدقائق الأولى كنت خائفًا كما لو أن الإف بي آي ستلقي القبض عليَّ فور عودتي إلى الولايات المتحدة. منطق سَفانة هدَّأ من روعي تجاه هذا الأمر، لكن الآن صدمتي مختلفة. رغم كل ملاحظاتي على العائلة، لكن أن يصبح أحد افرادها داعشيًّا كان أمرًا غير مفهوم.

- كيف حدث هذا؟ كيف أصبح عمي داعشيًّا؟ كيف أصبح شخص من آل يونس داعشيًّا؟
- بالتدريج البطيء جدًّا. لكنه تقريبًا كان داعشيًّا طيلة حياته.
- ماذا تقصدين؟ هل كان متطرفًا دينيًّا منذ البداية؟
- لا، كان متطرفًا شخصيًّا. كل شيء عنده بتطرف. الحب والكره. أحيانًا كثيرة تجاه الشخص ذاته، يقدسه ويضعه في مصاف الأنبياء، ثم يغضب عليه فينزله أسفل سافلين. كان هكذا مع الأشخاص ومع الأفكار ومع الأحداث. كل شيء أبيض أو أسود، ثم ينقلب إلى العكس. كان ذكيًّا، ولكنه لم يحقق نجاحًا كطبيب بسبب تعاليه غالبًا. في التسعينيات -وكان في مطلع الأربعينات من العمر- بدأت علامات الالتزام الديني تظهر عليه، هذا أول ما أذكره منه: اللحية والثوب القصير، والركض خلفنا لأننا نغني في باحة البيت الكبير. الدين لم يهذب من شخصيته، على العكس، أعطاه كل الحجج والمبررات لكل ما يفعله. قبل الدين كان يحب ويكره بمزاجه، ولا يحتاج إلى تفسير لمن حوله. مع الدين، أصبح يكره لأن فلانًا فاسق، أو منافق، أو حتى لأنه كافر. وصار يجبر الجميع على اتخاذ الموقف نفسه. أصبحت لديه شعارات دينية لكل مواقفه، وجعله هذا يصبح أكثر جرأةً وشدةً. لم يتغير، بل أصبح نفسه أكثر. قبل نهاية التسعينيات، كان قد انقلب على

شيوخه السلفيين الذين درس عندهم في البداية، وأصبح يعقد دروسًا يهاجمهم فيها ويتهمهم بأنهم مبتدعون أو مرتدون أو أصحاب أهواء. بعدها تجاوز الأمر تمامًا، أصبح يهاجم أبو حنيفة والشافعي ومالك.

- يهاجم أصحاب المذاهب؟ هل كان يريد التجديد؟

نظرت إليَّ باستغراب ثم قالت: «التجديد؟! كان يعتبرهم متساهلين. في أحسن الأحوال. وكان يعتبر أنه حريص على الدين أكثر منهم».

- متساهلين؟ كيف يعني؟
- لست طبيبةً نفسيةً، لكنه كان مصابًا بشيء في عقله. جنون عظمة، نرجسية. لا أعرف. كان هذا واضحًا للجميع للأسف. إلا ثلة ممن حوله، بعضهم أغبياء ويصدقونه وبعضهم يعرفون ولكنهم منتفعون منه.
- ماذا كان موقف العائلة من كل هذا؟
- في البداية تجاهله الجميع لا أكثر. كان يتدخل في كل شيء وكان الكل يحاول ألا يصطدم به. تدخل في ملابسي ومكياجي وملابس ومكياج كل فتيات العائلة، لولا أن أمي لم تسمح له بالتمادي. لكن عمليًّا كان يعترض على كل شيء: الأغاني حرام، التلفزيون حرام، الصور حرام، البنطلون حرام. حتى للذكور، الصلاة حرام بالبنطلون. موضوع الصور تحول إلى مشكلة مع عمتي عدلة. طالبها بإزالة الصور من غرفة الاستقبال في البيت الكبير، ومن ضمنها صورة يونس باشا؛ قال إن الملائكة لا تدخل البيت لأن فيه صورًا، فقالت له: «لا أنت ولا الملائكة. الصورة تبقى في مكانها». ولم يعد يدخل البيت الكبير إلا لأشغال ضرورية.
- كان هذا في أثناء داعش أم قبل داعش؟

- لا، قبل داعش. قبل أن تسقط الموصل بيد داعش كان عمك قد أصبح لا يطاق بشكل كبير؛ أجبر زوجته وبناته على النقاب إلى أن هربن إلى أربيل. أصبح يتدخل في ملابس الحي كله؛ لم يعد أحد يحتمل حتى إلقاء التحية عليه. جيرانه المباشرون كانوا على وشك الانتقال من بيتهم للتخلص من تدخلاته. رفعوا سياج بيوتهم وامتنعوا عن الحديث معه تمامًا لكي يتخلصوا منه. ثم دخلت داعش، وفجأةً أصبح كل ما كان يقوله من جنون هو القانون السائد المنتصر. أعلن بيعته لداعش، وسلمته داعش خطبة الجمعة في الجامع القريب من منزله، وكانت كل خطبه مخصصةً للترويج لداعش وما تفعله.

- والحاجة عدلة؟

- قاطعته تمامًا، وحرجت على الجميع أي نوع من أنواع التواصل معه. كانت تقول: «الذي سوَّد وجوهنا ليس نائل الذي تزوج بمسيحية، بل ناثر الذي وقف يخطب في مدح تهجير المسيحيين».

انتبهت للمفارقة في ذلك.

- وماذا حدث؟ إذا كان مخلصًا لداعش لماذا تعتقدون أنها تخلصت منه؟

- لا نعرف التفاصيل، لكن كان من الطبيعي والمتوقع أنه سينقلب عليهم كما انقلب على شيوخه من قبل. بعضهم أُعدِم أصلًا لأنهم لم يقبلوا مبايعة داعش، ولكن من المتوقع -حسب شخصيته- أنه كان سينقلب عليهم أو يعتقد فجأةً أنه يفهم أكثر منهم أو شيء من هذا القبيل. لا نعرف ماذا حدث. لكني متأكدة من شيء واحد، حتى لو أنكرته عمتي عدلة، وهو أنها كانت مرتاحةً لاختفائه أو

موته أو قتله على يد داعش. ربما حاولت إظهار القلق أو تصنعه، لكني واثقة تمامًا، كانت عمتي عدلة فرحة بالتخلص منه.

- وأنتِ؟ هل فرحتِ؟

سكتت سَفانة قليلًا كما لو كانت تفكر في سؤالي. كنا قد تركنا الطريق السريع ودخلنا في طريق فرعيٍّ ثم قادت السيارة على طريق ترابيٍّ غير ممهد.

أوقفت السيارة فيما بدا لي أنه منطقة خالية، صحراء إلا من بعض النباتات الشوكية المتفرقة.

هبطت من السيارة وقالت لي: «سأريك شيئًا، تعالَ».

نزلت وأنا أحاول أن أخمن ماذا ستريني.

قلت لها: «نحن في منتصف اللامكان يا سَفانة. ماذا سترينني هنا».

كنت قد سمعت بمصطلح منتصف اللامكان كثيرًا في أمريكا، لكن هذه أول مرة أكون فيه.

أشارت لي أن أتبعها.

سرت وأنا أقول في نفسي: «على الأقل لن تخطفني؛ لا يوجد هناك مكان يمكن لها أن تضعني فيه».

وقفت سَفانة في مكان ما. عندما اقتربت منها أدركت أنها تقف على حافة حفرة عملاقة، عرضها نحو خمسين مترًا. بدت بعض أجزاء الحفرة مطمورةً بما بدا لي أنها سيارات قديمة. لكن أجزاء أخرى بدت لي عميقةً جدًّا.

كانت سَفانة ترفع كفيها قرب وجهها وتتمتم شيئًا مع نفسها. غالبًا كانت تقرأ الفاتحة.

مسحت وجهها بكفيها ثم التفتت إليَّ.

- ربما لا تعرف أشياءَ كثيرة عني يا صهيب يا بن خالي. كنت متزوجةً رغمًا عن أنف العائلة، تقريبًا كما فعل والدك، زوجي كان مسلمًا لكنه ليس من أهل الموصل. جرياوي كما يقولون، من أهل القرى. وأؤكد لك، عدا موضوع الزواج، أهل الموصل الأصليون كما يسمون أنفسهم يفضلون مسيحيِّي الموصل الأصليين مئة مرة على أهل القرى. تزوجت بخالد وقاطعني الكل، كنت قد ورثت فلم يستطيعوا حرماني من شيء، لكنهم قاطعوني. تزوجت قبل أربعة أشهر فقط من سقوط الموصل بيد داعش.

نظرت إلى يدها. لا يوجد خاتم. ماذا حدث؟ هل أجبروها على الطلاق؟

- خالد كان ضابطًا في الجيش. كان ضابطًا في الجيش العراقي قبل 2003، ثم عاد وتطوع في الجيش الذي تأسس بعد سقوط النظام. هذه كانت كافيةً بالنسبة إلى داعش لكي يُقتَل. الكثير من زملائه قُتِلوا أصلًا قبل أن تسيطر داعش على المدينة، لأنها كانت موجودةً وتصول وتجول في المدينة منذ سنوات. موجودة كعصابة تفرض الإتاوات على التجار والمزارعين وأصحاب المحلات.

- إتاوات؟ ما معنى هذه الكلمة؟ ضرائب؟

- سمِّها ضرائبَ. لكنها تؤخذ من الناس مقابل عدم التعرض لهم.

- والدولة؟

- كانت ضعيفةً ومنخورةً بالفساد. ربما كانت تغض النظر أصلًا كي تتجنب المواجهة مع عصابات داعش أو أخواتها أو أيًّا كان اسمها آنذاك. كانت العصابات تعرف كل شيء: نستلم مبالغ نقدية من الدولة مقابل بيع الحنطة مثلًا، داعش تعرف المبلغ بالتفصيل والتمام والكمال، يتصلون فور استلامنا الصكوك: استلمتم كذا

كذا، نريد كذا كذا. كيف عرفوا لو لم يكن هناك من يتعاون معهم من داخل الدولة؟

- ماذا حدث لزوجك، خالد؟

- بعد أسابيع من سيطرة داعش، تحديدًا في اليوم الذي تلا تفجير مرقد النبي يونس، جاؤوا واعتقلوه.

جرت نفسًا عميقًا ونظرت إلى الحفرة العملاقة كما لو أنها تبحث عن شيء فيها.

- و...؟ ماذا حدث؟

- ذهبت إلى خالي ناثر بعد ساعات من اعتقال خالد. طلبت مساعدته بحكم علاقاته؛ قال لي إن زوجي مرتد ويجب أن ينفَّذ فيه حكم الله في المرتد.

- مرتد؟ ماذا يعني هذا؟

- مرتد يعني كان مسلمًا وترك الدين. وحسب فقههم يجب أن يُقتَل.

- هل ترك الإسلام فعلًا؟ ماذا أصبح؟ هل ألحد أو أصبح مسيحيًّا؟ كيف ترك الإسلام بالضبط؟

نظرت إليَّ باستغراب، كما لو كانت تسألني إن كنت أعيش في الكوكب نفسه. لكنها تذكرت أني أمريكي قادم فعلًا من كوكب آخر فأجابت بهدوء كما لو أنها تتحدث عن شيء عادي.

- كل من انتسبَ إلى الجيش الجديد يعتبرون أنه ترك الإسلام. في البداية كانوا يسمونه (الجيش الوثني)، بدلًا من (الجيش الوطني). خالد كان يصلي ويصوم. لم يقطع فرضًا يومًا. لكنه انتسب إلى الجيش العراقي، هذه ردة عن الإسلام حسب داعش.

- خالك قال إن زوجك يجب أن يُقتَل؟

- قال يجب أن ينفَّذ فيه حد الردة، وهو القتل.

سكت ولم أعرف ماذا أقول.

- قال لي أيضًا إن عليَّ أن أحمد الله لأنهم لن يعتبروني زانيةً ويجلدوني مئتي جلدة عقوبةً على ذلك.

- زانية؟ لماذا يعتبرونك زانية؟

- لأن عقد زواجي باطل بما أني تزوجت دون وليٍّ، أي أحد من ذكور العائلة.

كانت هناك ابتسامة ساخرة وحزينة على شفتيها عندما قالت ذلك.

- ماذا حدث لخالد؟

- بعد فترة ظهر اسمه في قوائم أعلنتها داعش لمن نُفِّذ فيهم حكم الإعدام. قوائم الـ 2070. هكذا أصبح اسمها لأنها ضمت 2070 اسمًا. لا جثة، لا كفن، لا جنازة، لا عزاء. وهذا هو القبر، ربما. لا شيء مؤكد.

وأشارت إلى الحفرة.

- هذه مقبرة؟

لم تبدُ لي كمقبرة. للحظات لم أفهم.

- نعم كانوا يرمون الجثث هنا، في هذه الحفرة. اسمها الخسفة.

هذه هي الخسفة إذن. تذكرت ما قاله يحيى.

اقتربت من حافة الحفرة كما لو كنت أرغب في رؤية الجثث. عندما دققت، كانت هناك آثار بالفعل لما بدا لي أنها جثة آدمية، بقيت ملابسها فقط.

- كم شخصًا أُلقِي هنا؟

- حسب تقديرات بعض المنظمات، 25 ألف جثة.

فجأةً أصبحت أشم رائحةً كريهة تنبعث من المكان. لم تكن هناك فورَ نزولنا. هل يعقل أن الجثث لها رائحة بعد كل هذه السنوات، أم أن حواسي أخذت زمام الأمور بعيدًا عن الواقع؟

ابتعدت عن سَفانة واستفرغت كل ما في جوفي.

اقتربت مني ووقفت بجانبي وهي تربت كتفي.

بعد أن أكملت أعطتني مناديلَ معقمة وقنينة ماء كانت معها في السيارة.

لمحت في عينها دمعةً. أو هكذا خيِّل لي.

انتظرتني في السيارة. ركبت وأنا أحاول استعادة هدوئي. كنت منهكًا، ليس فقط لأني أفرغت جوفي، بل من كل ما دخل جوفي من معلومات خلال أقل من ساعتين.

تمنيت لو أن ما عرفته يخرج من رأسي كما خرج ما في جوفي.

التفتت إليَّ وسألتني: «أنت بخير؟».

كان هناك حنان وتعاطف في صوتها. كما لو أن ردة فعل أحشائي على ما قالته لي قد كشفت لها أني إنسان حقيقي لأول مرة بالنسبة إليها.

هززت رأسي. لم أكن بخير طبعًا، لكن ماذا عساي أن أقول؟

انطلقت بالسيارة ورفعت التكييف إلى أقصى درجة.

كان الصمت ثالثنا.

عندما وصلنا إلى الطريق السريع.

- هذه الحفرة لا تحتوي على جثة زوجي فقط. بل على جزء مني أيضًا. لا أتحدث عن حب الزوجة لزوجها فقط. زواجي بخالد كان

قراري، خياري، إرادتي. حريتي في أن أتزوج بمن أريد، حتى لو كان خياري ليس مناسبًا لأهلي. استكثروا عليَّ ذلك؛ قتلوه وألقوا به في حفرة.

وبينما كانت السيارة تنهب الطريق نهبًا، صمتت مرةً أخرى.

- إيماني أيضًا ذهب في تلك الحفرة. فقدته خلال سنوات داعش. لم أكن أستطيع تحمل أنهم يفعلون كل ذلك باسم الله ثم أسجد له وأدعوه في نهاية النهار. كنت غاضبةً منه، أقولها بصراحة. كنت مليئةً بالسخط والغضب وخيبة الأمل منه. لا أعتقد أن هذا إلحاد. أعني، لا يمكنك أن تغضب مما لا تؤمن بوجوده. لكني كنت غاضبةً بمرارة من سماحه بأن يحدث كل هذا باسمه. في أثناء معارك التحرير، كان القصف في كل مكان، الانفجارات تهز الأرض، وكلهم يدعون الله مستنجدين به. أنا كنت عاجزةً عن ذلك، لم أستطع أن أناديه أو أدعوه أو أصلي له. شيء ما في داخلي كان في تلك الخسفة التي ابتلعت إيماني وابتلعت زوجي وابتلعتني معهما.

نظرت إليها. تذكرت أنها قبل قليل كانت تصلي أو تقرأ الفاتحة، لا تزال ترتدي الحجاب. أن يفقد الجميع إيمانهم هو الشيء المنطقي الوحيد في هذا الجنون.

كما لو عرفت فيمَ أفكر.

- بعد سنة من التحرير، استعدت جزءًا من إيماني، كما لو أن هذا الجزء قد تسلق من هذه الحفرة وسار إلى الموصل إلى أن وصل إلى بيتنا وتسلل إلى غرفتي. أعرف كثيرين مروا بما مررت به. أعرف كثيرين لم يصوموا في أول رمضان بعد التحرير، لكن رمضان الذي تلا ذلك شهد عودة كثيرين إلى الصيام والصلاة. البعض لم

يعد بعد، وربما لن يعود أبدًا، لكنه عاد إليَّ؛ خف غضبي كثيرًا مع الوقت، أصبح شيئًا أقرب إلى العتب. لدي أسئلتي وشكوكي التي لا إجابات قاطعة لها، لكني عدت إليه، أو عاد إليَّ. لا فرق.

- لست متدينًا، لكني لست ملحدًا أيضًا. أفهم تمامًا دور الإيمان في الشعور بالراحة والطمأنينة، وأفهم أيضًا أن يفقد الناس إيمانهم عندما يتحول هذا الإيمان إلى مصدر للعنف والقتل كما حدث مع داعش. ما لا أفهمه هو قدرتكم على استعادته بعد كل ما حدث.

- الأمر أعقد من أن يذهب دون رجعة. لا نزال نحتاج إليه لنواجه كل ما حدث، ولنواصل الطريق.

هذا لا أفهمه. شيء ما في سَفانة ذكرني بأمي وهي تذهب كل أحد إلى الكنيسة بعد استشهاد شقيقها الذي قاطعها لأنها تزوجت مسلمًا. انتبهت الآن إلى أن سَفانة تشبه أمي في أكثر من ملمح: طريقة كلامها، وجنتاها. شيء ما فيها كان يشبه أمي، ربما تحديها للجميع وزواجها بمن تريد رغمًا عن الكل.

كنا قد وصلنا إلى الفندق. أوقفت سَفانة السيارة أمام باب الفندق، اخترق صوت الأذان السيارة. لم تقل سَفانة أي شيء كما لو أنها تنصت للأذان. جعلني هذا أنتبه لكلماته كما لو أني أسمعها للمرة الأولى. ربما كانت هذه أول مرة أسمعها فعلًا. لم أحاول يومًا أن أفهم ما يقال في الأذان.

بدا لي الأمر كما لو أن الحبل الذي استُخدِم كمشنقة، يُستخدَم أيضًا كحبل إنقاذ من الغرق.

فتحت باب السيارة وكنت على وشك النزول عندما قالت: «الحوت الذي ملأ تصميمك للموصل، هناك، في تلك الحفرة. الخسفة هي بطن الحوت، كل سكان الموصل في بطن هذا الحوت، ليس فقط 25 ألف

شخص كما تقول التقارير. ولا نزال فيه، لم نخرج منه بعد. بطن الحوت الذي لا يتحدث عنه أحد، فيه تم تقديمنا كقرابين من أجل مخططات وأجندات إقليمية ودولية».

- لماذا لا يتحدث عنه أحد؟

بينما أنا أهم بالنزول من السيارة، نظرت إليَّ نظرةً طويلةً كما لو أنها تقول لي إن سؤالي أعقد من أن تجيب عنه. مرة أخرى رأيتها تشبه أمي كثيرًا. لا، هذه المرة كانت تشبه أمي وأبي أيضًا.

قالت لي: «هل تعرف لماذا أخذتك إلى الخسفة؟ لأنك انزعجت جدًّا من أننا لم نخبرك عن عمك ناثر، رغم أننا دفعنا جميعًا ثمنًا كبيرًا بسبب ذلك. ثمن أكبر بكثير من أي حرج قد تتعرض له بسبب ذلك. لثلاث سنوات عشنا كابوسًا كانوا يقولون لنا كل يوم إنه باقٍ ويتمدد. هناك ناس قُتِلوا لأنهم أجروا مكالمةً هاتفية، ونساء جلدن لأنهن لبسن لونًا غير السواد الذي فرضته داعش، هناك شباب اعتقِلوا وعذِّبوا لأنهم دخنوا سيجارةً عادية. ومررنا بعد ذلك بأهوال لا يمكن أن تتخيلها لكي يتم القضاء على داعش، ولا نزال نعيش آثار كل تلك الفترة. لا نزال في بطن الحوت. فلا تتوهم للحظة واحدة أن مشكلتك في الحرج من أن عمك داعشي يمكن أن تساوي واحد في المليون مما مررنا به».

ارتبكت؛ شعرت بسخافتي. لم أقل شيئًا.

أكملت: «هل تعرف ما الذي أتمناه؟ هل تعرف بمَ أدعو الله بأن يكون قد حدث سابقًا ولا توجد لديَّ أي فرصة لأعرف إن كان قد حدث أم لم يحدث؟».

هززت رأسي.

- ماذا؟

جرت نفسًا كما لو أنها تستخرجه من أعمق نقطة في نخاعها.

- أتمنى أن يكون خالد قد أُعدم بطلقة واحدة في الرأس.

كان واضحًا أني لم أفهم.

- أتمنى لو أنه مات فورًا. إعدام عادي رميًا بالرصاص. لو أنهم لم يجربوا فيه طرقهم الأخرى في القتل كما فعلوا مع كثيرين. هناك من قُتل بوضعه تحت المدحلة (سيارة التبليط الضخمة) وجعلوها تسير عليه. هناك من وضعوه في قفص وأغرقوه في الماء، أدخلوا القفص في مسبح مملوء. هناك من أحرقوه. هناك من قطعوا رأسه بسكين غير حاد؛ تركوه يصارع لساعات. هناك من ألقوه من فوق أعلى عمارة في الموصل.

لم أعرف ماذا أقول. كنت أفكر فقط، كيف يمكنني أن أنسى هذا الذي قالته للتو.

- حاولت بالفعل أن أعرف كيف قتلوه، آملةً أن أنسى تلك الأسئلة؛ للأسف لم أصل إلى شيء. لم أصل حتى إلى شخص يكذب عليَّ ويخبرني أنه مات بالإعدام رميًا بالرصاص.

قلت: «لا أعرف ماذا أقول. آسف جدًّا».

- لا عليك. فقط كان عليَّ أن أوضح لك كل هذا. قد نبتسم ونقيم الولائم ونقول مجاملات لائقة، لكن الجروح في داخلنا عصية على الالتئام.

خجلت من نفسي. كانت تؤنبني كما كانت أمي تفعل عندما أكون أقل من توقعاتها. هل يرضعن هذا هنا في ثقافتهن؟

- سأتواصل معك عندما أعرف شيئًا من مهند عن الطلب. أراك بخير.

يونس بن متى

كان البحر رائقًا مثل جدول صغير في أحضان جبل وادعٍ ليومين بعد إبحارنا.

لكن الشمس لم تشرق في اليوم الثالث، فقط ظهرت الغيوم السوداء من كل الجهات منذرةً بعاصفة شديدة السوء.

لم نكن بحاجة إلى النظر إلى وجه الربان لكي نعرف أن هذه الغيوم خطيرة.

أخذت الغيوم تزداد سوادًا وتتجمع فوقنا كما لو أنها تتعمد ذلك.

كان يمكننا أن نرى أنها فوقنا تحاصرنا من كل الجهات.

عندما ضرب البرق السماء، خيل لي أني رأيت في الغيوم وجه الملاك الذي ودعني في ميناء يافا.

ثم بدأ صوت الرعد، عاليًا يكاد يصم الآذان. ارتفعت أصوات الركاب بالصلوات. كلٌّ يصلي لمن يعتقد أنه الإله. ضمت الصلوات كل ما سمعت وما لم أسمع به من أوثان. سمعتهم ينادون بعل، إيل، هدد، اللات، عليون، زيوس.

في الرعد سمعت صوت الملاك مجددًا، كما لو كان صداه يتردد في السماء، يعيد ما قاله له عندما أبحرت السفينة. «موعدنا في نينوى».

بقي الرعد يكرر: «نينوى». بينما غرق الركاب في صلواتهم على أمل ألا يغرقوا في البحر.

فكرت في أن أصلي للإله الواحد. الإله الحق. الإله الخالق.

لكني خجلت؛ بأي وجه أصلي له؟ أنا الذي هربت من أمره بأن أحمل كلمته إلى نينوى.

ثم زمجرت الرياح متوعدةً؛ تقاذفتنا من كل الاتجاهات ورمتنا في كل الجهات. تراكض البحارة للإمساك بسارية الشراع، بينما تدافع الركاب معهم للتمسك بأي شيء. مرت لحظات كالدهور. لا، لا أعرف كم مر من الوقت. وبينما كانت السفينة ترتفع إلى السماء ثم تهوي مجددًا إلى البحر، كنا نحاول التنفس عبر الشهقات.

ثم هدأ كل شيء قليلًا. تنفسنا الصعداء. هل انتهى كل شيء؟ هل نجونا؟ تعالت صلوات الشكر إلى الآلهة الخطأ. الآلهة التي لا وجود لها.

أما أنا فكنت لا أزال خجلًا من أن أصلي أو أشكر.

لكن كل شيء تكرر مجددًا: البرق يضيء الغيوم، وجه الملاك مجددًا. هذه المرة أوضح ومع ابتسامة لم أفهمها. صوت الرعد الذي سمعت فيه صوت الملاك وهو يقول «نينوى». الرياح تزمجر، ثم ترتفع السفينة مجددًا وتهوي كما لو كانت ريشةً تلعب بها الرياح.

فقدنا إحساسنا بالوقت بين شهقات التمسك بالهواء والصلوات.

ثم عاد الهدوء فجأة.

قال أحد الركاب: «هذه رسالة من الإله يام، إله البحر، لا بد أنه غاضب منا؛ يريد أن نلقي له بقربان كي يهدأ».

أيده ركاب آخرون، لكنهم ذكروا إله البحر الخاص بهم.

كنت الوحيد الذي أعرف أن هناك إلهًا واحدًا فقط، وكنت أعرف سبب غضبه.

لكن لم أكن أعرف ماذا يريدني أن أفعل الآن.

«فلنقترع». صاح الراكب الذي ذكر الإله يام. «فلنقترع، ومن تقع عليه القرعة عليه أن يلقي بنفسه في البحر».

تعالت صيحات الركاب.

قبل أن نقترع عاد البحر إلى نوبة الهياج والغضب. عاد البرق يضيء الغيوم وشاهدت الملاك مرتسمًا فيها مجددًا، وسمعت صوته في الرعد.

تكرر كل شيء.

وعندما هدأ البحر كان الكل مقتنعين أنه لا بد من القرعة.

- فلنقترع بسرعة، قبل أن يهيج البحر مجددًا.

اقترعوا بين الرجال فقط. استبعدوا النساء والأطفال.

كنا قرابة ثلاثين رجلًا.

في لحظات القرعة كان الكل يبتهل إلى إلهه أن يعفو عنه كيلا يلقَى في البحر.

أما أنا فكنت أكثر خجلًا من أن أفعل، ليست عندي الجرأة أن أطلب منه النجاة.

ربما كان يريد أن ألقي بنفسي في البحر بالفعل. ربما أوصد أبوابه، وهذه عقوبتي ونهايتي.

أغمضت عيني مستسلمًا، وعندما جاءت نتيجة القرعة عليَّ لم أستغرب. كنت مستسلمًا.

كنت أعرف أني أنا السبب؛ أنا الهارب من أمر الله. ماذا كنت أظن؟ هل كنت أعتقد أني سأنجح في هروبي من أمره؟ كل الطرق تؤدي إليه، حتى في البحر.

لكن ربان السفينة اعترض على النتيجة.

قال: «هذا الرجل عليه سمت الصالحين؛ لن أسمح بأن يلقَى في البحر».

لو تعرف أي إثم أحمله على ظهري! لا بد أنه لم يظهر على وجهي بعد.

«سنعيد القرعة». قال الربان بحسم.

أعادوها بسرعة، وسط أسماء الآلهة والدموع.

لم أتفاجأ قط، جاءت القرعة عليَّ مجددًا.

تعالت صيحات الركاب: «هو مرة أخرى، هذه إشارة واضحة».

نظر إليَّ الربان مستغربًا.

- ماذا فعلت يا رجل؟ لا تبدو لي كما لو كنت رجلًا فاسدًا يستحق كل هذا.

ماذا أقول؟ ليس عندي ما أقوله؛ ما فعلته أكبر من أي كلام.

قال الربان: «سنعيد القرعة؛ هذا الرجل لا يستحق أن يلقَى في البحر».

صاح الركاب معترضين: «يا رجل، لقد اختارته الآلهة مرتين. ماذ تريد أكثر من ذلك؟».

لم يكن خيار تلك الآلهة المزيفة. كانت إرادة الله؛ الله يريد أن تأتي القرعة عليَّ.

للمرة الثالثة جاءت القرعة عليَّ. تعالى الصياح من الركاب: «ارموه في البحر. ارموه في البحر».

هذه المرة سكت الربان.

ذهبت بنفسي إلى الربان. قلت له: «أخبرهم أن يرموني في البحر؛ لن ألقي نفسي بنفسي».

سكت الربان. كررت ما أقوله بينما الركاب يصرخون يطلبون منه أن يلقيني.

عاد البرق. شاهدت الملاك. سمعت صوته مع الرعد.

قلت لهم: «ألقوني في البحر، لن أنتحر أنا».

أمسكوني من كتفي، رفعوني إلى حافة السفينة. حدث كل شيء بسرعة. لحظات فصلت بين وجودي على السفينة التي تصارع الأمواج، وارتطامي بالبحر.

فجأةً لسعتني برودة البحر وملوحته.

وجدت نفسي في الظلمة.

كان هناك ضوء من بعيد.

لم أعرف ما هو. سألت نفسي إن كان هذا هو الطريق إلى نينوى.

آخر ما فكرت فيه كان:

«كل الطرق تؤدي إلى نينوى».

ليليان

«هل تعرفين محاميًا في الموصل أم أرشح لك محاميًا من معارفي؟ من الأفضل أن تتم إجراءات البيع من خلال محامٍ ضمانًا لحقوقك وحقوق المشتري». سألني كاكا شيرو صاحب المكتب العقاري الذي عرضت بيتي من خلاله. ألطف دلال عقارات في دهوك وضواحيها. أصبح عِشرة عمر بعد عشر سنوات من التنقل بين البيوت المستأجرة إلى أن سجلنا لشراء بيت في مجمع سكني جديد غرب دهوك، نحاول أن نكمل أقساطه ببيع بيتنا في الموصل.

أعرف محاميًا؟

لا، أعرف محاميةً. أعرفها حق المعرفة؛ كانت صديقة العمر. العمر الذي ضاع وتركته خلفي عندما أخرجونا من الموصل بثياب النوم. بالدشداشة[1] الصيفية الوردية اللون، بنصف كم. لا تزال معلقةً في الدولاب كنصب تذكاري لطعنة لن تلتئم جراحها أبدًا. أبدًا. أبدًا.

أوقفنا حاجز لداعش في حي القوسيات. أخذوا كل ما كنا قد حملناه معنا: حقائبنا، وثائقنا الشخصية، كل ما حملناه من نقود أو ذهب، هواتفنا النقالة. كنت أرتدي صليبًا ذهبيًّا في رقبتي؛ جره أحدهم من

(1) الدشداشة: ثوب النوم.

رقبتي ورموه أرضًا على كومة من الصلبان المشابهة ثم بصق على الأرض.

أخذوا حتى خواتم الزواج. خاتمي خرج بسهولة من إصبعي، لكن رغيد كان قد ازداد وزنه كثيرًا منذ أن وضعت في إصبعه خاتم الزواج في كنيسة الساعة قبل قرابة خمسة وعشرين عامًا من ذلك اليوم؛ لم يستطع أن يخلع الخاتم. شتمه مسلحون يرتدون زيًّا أفغانيًّا. كان معهم عراقي وضع لثامًا على وجهه. شتمه أيضًا، وخيِّل لي أنه قال اسمه أيضًا؛ ربما كان يعرفه من السوق أو بسَبب كونه صاحب أكبر جراج لتصليح السيارات اليابانية في الموصل.

قال له أحدهم: «إن لم تنزعه سنقطع إصبعك يا نجس يا كافر».

كان يرتدي الزي الأفغاني ولكنته توحي بأنه من دول شمال إفريقيا.

كان رغيد على وشك الانهيار؛ عاش عمره محترمًا ويعامل الناس باحترام ويقابل غالبًا باحترام مقابل.

لم يكن التهديد بقطع الإصبع هو ما أثر في رغيد، بل تلك المعاملة المهينة. كان رغيد محترمًا طيلة عمره، ويقابل غالبًا باحترام مماثل. يعامل زبائنه في الورشة كما لو كان طبيبًا يستقبل مرضاه في عيادته الخاصة. كان مهندسًا ميكانيكيًّا يعشق تصليح السيارات، ويتعامل مع أصحاب السيارات كما لو كانوا مصدرًا يمده بمادة جديدة للعشق. أن يهان بهذه الطريقة علنًا وأمام الجميع كان بالنسبة إليه ربما أسوأ من أن يقطع إصبعه. تذكرت أن لديَّ علبة فازلين في حقيبتي التي أخذوها للتو. طلبت من العراقي الملثم أن يسمح لي بأخذه من الحقيبة التي كانت قد ألقيت في كوم من الحقائب. أشار لي بالموافقة. شكرته بحرارة لم أنتبه لذلها إلا لاحقًا عندما تذكرت الموقف. أخرجت علبة الفازلين ودهنت بها إصبع رغيد التي حملت خاتم ارتباطنا المقدس. وبينما كنت أحاول

أن أخلع الخاتم كي أحافظ على إصبعه من القطع، كانت هناك نظرة منكسرة في عينيه. يخيَّل لي أنه همس بكلمة «آسف» في أثناء ذلك. لم أجبه، لكني كنت أعرف علامَ يتأسف. كنت أحاول أن أقنعه منذ دخول (تنظيم الدولة) الموصل أن نغادرها إلى أربيل أو دهوك في انتظار ما سيحدث في الموصل. رفض رفضًا قاطعًا. كما رفض طلبي منذ سنوات قبلها، منذ أن أصبحنا مستهدفين من قبل كل التنظيمات المسلحة التي تتفق على اعتبارنا كفارًا، وتختلف قليلًا في طريقة تعاملها معنا. لن نترك الموصل لهم؛ نحن أهل الموصل، المسيحيون في الموصل قبل أن يكون هناك إسلام أصلًا. لن أترك الموصل.

وبقينا. أسابيع فقط وجاءت الخيارات المرة: الجزية أو الدخول في الإسلام أو الخروج من الموصل. ثم الخيار الأكثر مرارة: الخروج أو الموت.

سلمت خاتم رغيد. تصورت أن الأمر انتهى، لكن بسام كان يحمل كتاب الكيمياء. المادة الوحيدة المتبقية له في امتحانات البكالوريا. كان يحتضن الكتاب بشدة كما لو أنه أغلى ما يملك؛ كان تحت تأثير صدمة ما يحدث. يعتقد أنه سيمتحن في اليوم التالي. لم يكن قد استوعب أن حياته كلها، حياتنا كلنا، تتغير الآن، إلى الأبد. أو كان في حالة إنكار لما يحدث.

تحاقر أحدهم معه. أصر على سحب الكتاب منه؛ تمسك بسام بالكتاب مثل أم ترفض تسليم رضيعها إلى المحرقة.

قال العراقي الملثم: «إشتغيد[1] من الكتاب؟ اترك العجي[2] وكتابه».

إشتغيد؟!

(1) إشتغيد: إيش تريد بلهجة أهل الموصل الأقحاح.

(2) العجي: الطفل.

إذن هو من أهل الموصل؛ ينطق الراء غينًا مثلنا. حتى تلك اللحظة كنت أقول إن أهل الموصل الأصليين لا علاقة لهم بما يحدث. لا بد أن هذا كله من أهل القرى. لكن الـ «إشتغيد» صفعتني. جعلتني أرى الواقع. كل ما يحدث كان موجودًا تحت الرماد ولم نكن نعرف بوجوده. كانت أمي تقول، إنهم، في زمانها، إذا قالوا كلمة نصراني -في أثناء الحديث- يقولون معها «حاشاك نصراني». لم أسمعها يومًا من أحد من معارفي المسلمين، لكن يبدو أنها بقيت موجودة في أذهانهم. كنا في نظرهم شيئًا يستحق أن يقولوا عنه: «حاشاك».

أخذوا حقيبة المحاضرات من يدي فادي. صاح: «محاضراتي. أنا في السنة المنتهية من كلية الطب». أخرجوا المحاضرات من الحقيبة ورموها أرضًا وأخذوا الحقيبة. أخذوا سماعته الطبية. جلس فادي على الأرض يرتب محاضراته وهو يمسح دموعه. ضحكوا منه، وقالوا آيةً من القرآن عن الذين خسروا الآخرة وتصوروا أنهم ربحوا الدنيا.

لم تكن المسافة إلى نقطة البيشمركة[1] بعيدة، لكنه كان دربًا صعبًا حملنا فيه صلباننا على ظهورنا. أخذوا منا الصلبان المصبوبة في الذهب أو الفضة، لكننا حملنا ما مررنا به صليبًا لن ننفك عنه، لن يترك ظهورنا ما حيينا.

في درب الجلجلة ذاك الذي مشينا عليه، رأيت ما لن أنساه أبدًا.

الماسيرات[2] وهن يساعدن ماسيرة كبيرة في السن وعاجزة عن الحركة، كانوا قد أخذوا كرسيها المتحرك. طفل جاءته نوبة صرع وكانوا قد أخذوا حقيبة أمه وفيها دواؤه. رجل كبير في السن يشهق بالبكاء مثل

(1) البيشمركة: القوات الكردية.

(2) الماسيرات: الأخوات الراهبات في الكنيسة.

الطفل ويصيح على أمه، عرفنا لاحقًا أنه مصاب بألزهايمر وليس معه أحد من أفراد أسرته.

كل خطوة في درب الجلجلة ذاك، جعلتني أنسلخ أكثر وأكثر عن كل أوهامي في حياتي السابقة.

تركت ليليان القديمة في البيت الذي تركناه. كتبوا على جداره حرف النون. نصارى. يمكنهم أن يأخذوها؛ لم أعد بحاجة إليها.

لن أسامح. لن أغفر. لن أسمع لأحد يلقي عليَّ نصيحة المغفرة والتسامح.

فرحت ضمنًا لأنهم أخذوا هاتفي لأن كل الأرقام ضاعت؛ لا أريد أن أتواصل مع أي أحد من الموصل.

لو كان الهاتف معي، لمسحت كل أرقام التواصل.

لن أنسى ولن أغفر ولن أسامح.

***

قدم لي كاكه شيرو بطاقة محامي من معارفه.

فهم من سكوتي أني لا أعرف محاميًا هناك.

لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتذكر سَفانة آل يونس، صديقة ذلك العمر الذي ضاع عندما هجرونا من الموصل.

لم يكن الوصول إليها صعبًا.

عندما رجعت إلى البيت، بحثت عن صفحتها على الفيسبوك.

وجدت صفحةً عامة باسمها. «مكتب المحامية سَفانة آل يونس».

وكان هناك رقم للتواصل.

دققت على الرقم.

ودق قلبي بإيقاع لم أكن أعرف أن قلبي يتقنه.

لم يكن صوتها.

- ست سَفانة موجودة؟

- هذا رقم المكتب. تفضلي.

- لو سمحتِ أعطيها هذا الرقم، وقولي لها أن تتصل بي.

- من نقول لها؟

- ليليان. ليليان عبد الأحد.

صمت قصير.

«أهلًا أهلًا ست ليليان. عاش من سمع صوتك». قالتها بصوت مرحب كما لو أنها تعرفني.

- عفوًا، هل تعرفينني؟

- من حديث الست سَفانة عنك، اسم ابنتها على اسمك.

يحيى

كنت قد قررت أن أخفي عن أسماء ما كشفته الحاجة عدلة.

لكنها شعرت أن هناك شيئًا ما أخفيه عنها.

رغم أنها تبدو أحيانًا غبيةً وساذجةً، لكن لديها مجسات استشعار قوية جدًّا تجاه أي شيء أحاول كتمانه. ورثت هذا الشيء من أمها، عمتي باكزة.

كنت أتحدث منذ فترة بأن الحل الوحيد لجعل جنيد يتخلى عن الفتاة التي يريد أن يرتبط بها، التي تجعل خيار سَفانة في الزواج مثاليًّا جدًّا، هو أن نجعله يسافر ليكمل دراسته في بريطانيا أو حتى الولايات المتحدة. كنت منذ فترة أشجعه على إجراء الامتحانات المطلوبة وكان قد بدأ التحضير لبعضها بالفعل. لكن المشكلة كانت في النفقات الطائلة التي سيكلفها خيار كهذا.

استدرجتني أسماء من هذه النقطة. قالت لي إني أبدو أكثر طمأنينة على إمكانية تدبير النفقات.

كان ذلك يبدو عليَّ فعلًا. سبق للحاجة عدلة أن أخبرتني أن عليَّ أن أتدرب على إخفاء مشاعري.

لم يأخذ الأمر كثيرًا من أسماء وأسئلتها وإلحاحها لكي أستسلم.

طلبت منها أن تحضر القرآن؛ ركضت وعلى وجهها فرحة ووضعت على رأسها غطاءً وجاءت به ووضعت يدها عليه قبل أن أطلب منها ذلك.

- أقسمي بالله ألا تخبري أحدًا بما سأخبرك به.

كررت القسم بسرعة.

ترددت وشعرت بالندم؛ أقل سر من أسرار أسماء يكون عند أربعين ويحد[1].

- كرري القسم وقولي إنكِ لن تخبري أحدًا ولا حتى أمك أو أيًّا من شقيقاتك.

هذه المرة ترددت هي، إذن كانت تنوي أن تخبر أمها حتى قبل أن تعرف ما سأخبرها به.

- ماذا تقول؟ قلت لن أخبر أحدًا. أمي وشقيقاتي مشمولات في ذلك.

- أسماء.

كررت القسم بالإضافة التي طلبتها.

أخبرتها بما قالته الحاجة عدلة بالتفصيل:

الكنز، الليرات العثمانية، عشرة ملايين دولار.

لكنها فاجأتني بوجه خالٍ من التعابير. لم تفاجأ ولم تفرح. لا شيء. هل كانت تعرف بالأمر سابقًا؟

- عشرة ملايين دولار يا أسماء.

بقيت صامتة.

- ماذا دهاكِ؟ هل كنت تتوقعين خبرًا أفضل؟

- كيف قالت الحاجة عدلة كل ذلك؟

---

(1) ويحد: واحد، المثل أقل سرٍّو عند أربعين ويحد، يقال عمَّن لا يكتم سرًّا.

- ماذا تعنين؟

- ماذا أسمت هذا الشيء؟ هل قالت الكنز؟

- قالت الدفين. كما يسمون أي شيء مدفون.

بدت أسماء كما لو أنها تفكر بعمق.

- ما الأمر يا أسماء؟ هل تعرفين شيئًا عن هذا الكنز؟

- أعرف ما تعرفه ويعرفه الجميع. هناك حديث قديم جدًّا عن وجود كنز في البيت. الكل كان يقول إن هناك (دفينًا) في بيت آل يونس. لكن الحاجة عدلة كانت تنفيها وتستهزئ بها كل مرة. ما الذي تغير؟

- ما تغير أن الحكومة وضعت يدها على البيت.

قاطعتني: «الحكومة لم تضع يدها على البيت اليوم. عدلة خرجت من البيت في أول سنة من سيطرة داعش، 2014، والحكومة وضعت يدها عليه بعد التحرير فورًا، منذ 2017. البيت ليس في عهدتنا منذ عشر سنوات، والحاجة لم تذكر ذلك ولم تلمح إلى وجود شيء طيلة هذه السنوات. لماذا؟».

- ربما لأن صهيب جاء، ووجدتها فرصة؟

- وماذا لو لم يأتِ؟ كانت تركت الكنز دون أن تخبرنا عنه؟

- ربما تشعر الآن بدنوِّ أجلها، ورأت أن الوقت أصبح مناسبًا للكشف عن الأمر؟

- الآن؟ مرت قبل سنوات بظروف صحية سيئة وتوقعنا أنها ستموت في أي وقت، ولم تتحدث عن شيء.

- ماذا تقصدين من كل هذا؟

هزت رأسها وبدت غير مهتمة، كما لو أنني أهدرت وقتها وجعلتها تقسم على المصحف لأجل أمر لا يستحق. عادت إلى أعمال البيت ووجهها متجهم كما لو أنها تفكر في أمر مهم.

قبل أن تنام قالت لي: «ماذا لو كانت الحاجة عدلة قد خرفت؟».

- ممكن جدًّا. لكن حسب ما أعرفه، من يصاب بالخرف، حتى لو اختلق أشياءَ من خرفه، فهي تكون واضحة أنها مختلَقة. الحاجة تتحدث عن الأمر بتفاصيل التفاصيل، ويبدو أنها خططت للأمر بقوة. تريد أن تستغل صهيب لكي يساعدنا في إخراج الكنز. استدرجته لهذا السبب بالذات.

أغلقت المصباح المنضدي جنب رأسها وقالت: «كنز دفين في البيت؟ غير منطقي أبدًا».

ترى المنطق في وجود هالات طاقة حول البشر، لا يراها أحد غيرها، وترى المنطق في أن الأرض مسطحة وأن الصور من ناسا كلها مفبركة، وأن وصول الإنسان إلى القمر كذبة، وأن هناك قانونًا للجذب وللطاقة وأن الأبراج حقيقة لا جدال فيها.

كل هذا منطقي.

أما أن يكون هناك كنز دفين في البيت الكبير! لا، هذا غير منطقي.

لم تنم؛ كان صوت تنفسها يدل على ذلك. كنت أتوقع أن تقول شيئًا.

قالت بالفعل: «هل تعتقد أن هناك جدوى فعلًا من محاولة إقناع جنيد بالعدول عن الارتباط بهذه الفتاة، غفران؟».

لقد جُنَّت أسماء.

- ماذا تقولين؟ غفران؟ هل جننتِ تمامًا؟ هل تريدين أن أخبركِ أسباب رفضي لها أم أنكِ تعرفينها؟

- أعرفها أكثر مما تعرفها. لكن هل هناك جدوى أصلًا في الرفض؟ انظر إلى عمك نائل وما حدث معه. بعدها جاء ابنه واستقبلته الحاجة معززًا مكرمًا كما لو أن شيئًا لم يحدث. انظر إلى سَفانة، قاطعتموها جميعًا، ثم ها هي، عادت أقوى وأهم من السابق. لماذا نذهب إلى الطريق الأبعد للصلح، نقبل ونحتوي من الآن، ما دمنا سنصالح في النهاية؟
- غفران؟ شيعية؟ من الناصرية؟ لا نعرف شيئًا عن عائلتها غير هذا! ومع ذلك تقبلين أن يتزوجها جنيد؟

هذا ما جنيناه من عودة سَفانة واستقبال صهيب.

- نعرف عن غفران أن سمعة والدها في الموصل طيبة منذ أن جاء. وسط كل الفساد الموجود، والدها لم يتورط في شيء، أنت نفسك قلت هذا.
- لكنه شيعي! جاء الموصل بعد التحرير، لا نعرف أي شيء عنه قبل ذلك.

مدت يدها وفتحت المصباح المنضدي ثم اعتدلت في نومتها بحيث واجهتني بعد أن كانت تعطيني ظهرها.

- وابنك يحبها. لن أدعي أني سعيدة بالاختيار أو أني لا أرى ما تقوله. لكن جنيد يحبها. منذ أن دخل الكلية وهو يحبها، وهو يحبها أكثر كل يوم. حاولت معه بكل شيء، لكنه لا يزال يحبها. ماذا نفعل؟ نخسره كما فعلتم مع نائل عندما تزوج بفتاة من دين آخر؟ على الأقل البنت من الدين نفسه. وهذا كله في حالة إن والدها وافق على الأمر. من قال إنه سيوافق أن يزوجها بسُنيٍّ؟
- لا يوافق؟ والدها لا يوافق؟! هل عرفتِ أحدًا يرفض عريسًا من آل يونس!

- ماذا حدث لك؟ هل تعتقد أن آل يونس معروفون في الناصرية! غالبًا لن يوافق. هذا أملك الوحيد في الموضوع. عليك أن تتظاهر أنك موافق وتذهب لخطبتها من أبيها حسب الأصول، على الأقل عندما يتخرجان، وتدعو الله سرًّا أن يرفض.

- وماذا لو أحرجنا ووافق؟

- تكون هذه رغبته وأمر الله. ماذا تريد؟ تقاطعه وتحرمه من الميراث وتحارب الدنيا؟ سيبقى ابننا في النهاية.

- عودي إلى النوم يا أسماء.

لو بقيَت تتحدث مئة سنة عن الأرض المسطحة وقانون الجذب فهذا أفضل وأكرم لي من أن تتحدث عن زواج جنيد بغفران. هذا ما جلبته داعش لنا: صهيب وغفران.

- لا تخبري أمك بما أخبرتك به.

لم ترد.

- أسماء، لقد أقسمتِ على القرآن.

- حسنًا، حسنًا. لن أخبرها. لن أخبر أحدًا. لا يوجد كنز بكل الأحوال.

سَفانة

عندما اتصلت بالرقم الذي تركته ليليان، توقعت أن تصرخ فرحًا لسماع صوتي.

لكنها لم تفعل.

حتى صوتها تغير.

فكرت: «هل هذه ليليان أخرى؟ هل هو تشابه أسماء أربك ندى السكرتيرة وتصورت أنها ليليان عبد الأحد؟

كانت ليليان متحفظةً، مجاملة لكن بتحفظ. مرت عشر سنوات نعم، لكن عمر الصداقة قبل ذلك كان قرابة عشرين عامًا».

سألتها بلهفة عن أحوالها وعن رغيد وعن فادي وبسام وأين أصبحوا. أجابت أجوبةً باردة محايدة. لم تقل أي جواب عن سؤالي: «أين أصبحوا؟».

«أشوني[1] عمة عدلة؟». قالت بتهذيب كما لو أنها تسأل عن سيدة لا تعرفها ولم تكن يومًا ما تعتبرها أمها الثانية وتخبرها بكل أسرارها عندما اعترض أهلها على رغيد لأنه أرثوذوكسي وهي كاثوليكية.

- الحمد لله. بخير. لا تزال كما هي. الله يحفظها.

- وأشونه خالد؟ ألف مبروك على البنوتة.

---

(1) أشوني: كيف حالها؟ إيشلونها.

إذن هي لا تعرف.

صمتُّ قليلًا لكي أستجمع الكلمات التي يمكن أن أقولها عندما أواجه سؤالًا كهذا بعد عشر سنوات من رحيله.

قلت: «شكرًا، الله يبارك فيكِ. خالد بخير إن شاء الله. الله يرحمه».

سكتت كما لو أنها لم تستوعب ما قالته.

- ماذا؟ مات؟ كيف؟ ومتى؟

- منذ عشر سنوات. أعدمته داعش. اعتقلوه بعد أسبوع فقط من إخراجكم. لا أعرف متى أعدم.

صمتت كما لو أنها تحاول أن تجد ما تقوله.

جاء صوتها متهدجًا كما لو أنها ستبكي.

- الله يرحمه، وينتقم منهم.

هذه المرة جاء صوت ليليان التي أعرفها. صوت ليليان صديقة العمر. العمر ضاع ولن يرجع، لكن على الأقل صوت صديقة العمر جاء كما لو أنه من عالم آخر.

للحظات فهمت سبب عودة صوتها كما كان.

دون أن تقول شيئًا، حرفًا واحدًا، فهمت كل شيء.

«لا أعرف ماذا أقول». قالت بصوتها الأصلي. ليليان، صديقة العمر.

- ولا أنا.

لم نكن نحتاج إلى أن نقول شيئًا.

- الرقم عراقي، هل أنتِ في الموصل؟

ردت بسرعة كما لو أن الفكرة استفزتها: «الموصل؟ لا لا طبعًا. نحن في دهوك».

دهوك؟ أقل من ثمانين كيلو. أقل من ساعة. لكنها قالتها بطريقة كما لو أنها كانت في كندا. على الأقل.

- دهوك؟ منذ متى أنتِ هناك؟

- منذ 2014.

- منذ أن أخرجوكم وأنتم في دهوك؟ كل هذه السنوات وأنت على بعد (شمرة[1]) عصا؟ لقد بحثت عنكِ في كل مكان. وصلت حتى إلى البطريركية، ولم أجد جوابًا. تصورت أنكم قد هاجرتم.

كانت هناك خيبة أمل في صوتي لم أحاول أن أخفيها؛ لم تحاول ليليان أن تتواصل معي كل هذه السنوات وأنا التي لم يمر يوم دون أن أفكر فيها. فكرت كثيرًا فيما حدث لها ولأسرتها. احتجت إليها في كل ما مررت به من أزمات. حاولت أن أتخيل ما ستقوله لي بناءً على ما أتوقعه منها. عندما اخترت اسم ليليان، على الرغم من أنه في العادة اسم مسيحي، كنت أريد أن أسترجع صديقتي ليليان. كنت أتمنى أن تكبر الصغيرة اليتيمة لتكون صديقةً لي كما كانت ليليان.

- الظروف يا سَفانة. الظروف كانت صعبةً جدًّا، من الصعب عليَّ أن أتواصل مع أي أحد منكم.

منكم! *لقد قالت منكم.*

انكمشت في داخلي. منكم؟

عاد صوتها هنا كما كان في بداية المكالمة.

حاولت أن يبدو صوتي طبيعيًّا.

- بكل الأحوال أنا سعيدة جدًّا أنكِ تواصلت، وأنكم جميعًا بخير.

(1) شمرة: رمية عصا، مسافة قريبة.

- نحن بصدد بيع بيتنا في حي الكفاءات، وأحتاج إلى محامٍ لإكمال الإجراءات، وطبعًا لا أثق بأحد غيرك.

إذن اتصلتِ بي كمحامية، لا كصديقة. يا وجع القلب!

رددت عليها كما أرد على أي زبون يطلب توكيلًا: «سأرسل هوية المحامينِ على الواتس. يمكنك أن تقومي بإجراء التوكيل عند أي كاتب عدل في دهوك، ولكن سيكون من الأسهل لو أنك قمتِ به في الموصل».

ردت بسرعة: «لا لا، الموصل لا».

ردة فعلها جعلتني أفهم أكثر. شعرت بالخجل كما لو أني ساهمت في كل ما حدث لها.

- ليليان...

- نعم؟

- أنا آسفة جدًّا لكل ما مررتِ به. لكنني دفعت الثمن أيضًا.

سمعتها تتنهد. أو تبكي.

لم ترد.

قلت لها إني سأرسل إليها صورة هويتي.

وأنهيت المكالمة.

فائزة

شعرت أن صهيب يخفي شيئًا.

- هل أنت بخير؟ متى ستعود؟

- نعم، أنا بخير. لا أعرف متى العودة تحديدًا. ربما سأضطر إلى التأجيل؛ هناك عمل غير منجز يجب إنهاؤه.

كان يخفي شيئًا بالتأكيد. ذكرني ارتباكه بسؤالي له عندما كان في الثانوية إن كان قد جرب الحشيش مع أصحابه.

- أي نوع من العمل؟ لم أعرف أن لديك شيئًا غير تقديم العرض. ماذا يريدون منك؟

- تفاصيل صغيرة، لكن عليَّ أن أنهيها. سأخبرك بكل شيء لاحقًا.

لو كانت تفاصيل صغيرة حقًّا لما قال إنه سيخبرني عنها لاحقًا.

- كيف هي عدلة؟ هل فهمت ماذا تريد منك مقابل وسام الرافدين؟

- هل يجب أن يكون هناك مقابل؟ ربما مجرد مجاملة ودية. هل هذ مستحيل؟

طبعًا مستحيل. من عاشر المستحيلات أن تتنازل عدلة عن أعلى وسام حصل عليه والدها فقط لتجامل حفيد شقيقها الذي قاطع الجميع منذ أربعين عامًا.

- لست غبيًّا يا صهيب. لا توهمني أنك مقتنع بأنها تجاملك. لو قلت لي إنها تشعر بتأنيب ضمير لكان ذلك منطقيًّا أكثر.

- ليكن ذلك. ما الذي سيتغير لو قلت إنها تشعر بتأنيب ضمير؟

- الذي سيتغير هو أن هذا الوسام، مهما كانت قيمته المعنوية كبيرة، فهو لن يعوض عن حرمان والدك من حصته في بيت أبيه. لذا لا معنى في أن يكون تعبيرًا عن تأنيب الضمير.

- أمي، الذي حَرَم والدي هو والده، شقيق الحاجة عدلة، وحرمه من حصته هو لا من حصتها. كيف يمكنها أن تعوضه عن ذلك؟ على فرض أنها ترغب في ذلك.

لو أنه يعلم! هل أخبره؟

- صهيب، منذ الـ 1959، وعادلة تسيطر على الجميع. لا يمكن أن يحدث شيء دون موافقتها.

- لماذا 1959 تحديدًا؟ ماذا حدث في هذه السنة؟

- ثورة الشواف.

- التي قُتِل فيها جد أبي؟ ما علاقة ذلك بسيطرة عادلة على الجميع؟

ساعدني يا رب.

- عادلة قتلت القتلة يا صهيب.

- ماذا تقولين؟

كان من الواضح أنه لم يعلم بهذا. لم يخبروه بسجلها هذا، رغم أنهم كانوا يتفاخرون به لفترة طويلة.

- نعم قتلت القتلة. كان هناك أربعة مهاجمين للبيت. كانت عادلة في الطابق العلوي، لم تستطع إنقاذ والدها ولا شقيقتها، لكنها

شاهدت كل شيء. استخدمت البندقية لتصيبهم ثم هبطت وأجهزت عليهم بالفأس.

- بالفأس!

- نعم، ويقال إن أحدهم هرب، وإنها طاردته وملابسها ملطخة بالدماء، وأصابته ثم سحلته إلى داخل البيت، وأجهزت عليه هناك.

سكت صهيب.

- يقال أيضًا، إنها لم تجهز عليهم فورًا.

- ماذا تقصدين؟ كانت تتسلى بتعذيبهم؟

- لا. ربما. لكن ما قيل وقتها إنها كانت تستجوبهم.

- تستجوبهم؟

- كانوا مجرد أشخاص مجهولين بالنسبة إليها. بدوا كما لو كانوا من أهل القرى، وكانوا كذلك فعلًا. وكانت تعتقد أن هناك من حرضهم على ما فعلوه؛ كانت تريد معرفة من فعل ذلك.

- حسنًا. كل هذا يبدو ردَّ فعل مفهومًا في سياق ما حدث وقتها. هل يمكنك أن تدينيها حقًّا على ما فعلته الآن بعد كل هذه السنين؟

لم يكن هذا ما قصدته. تمنيت لو أن يسألني عمن حرض على قتل والدها.

سأقول.

- كان هناك حديث دائر، أن عمي وديع كان قد هدد جد أبيك وتوعده في بداية الأحداث.

- عمك؟ ما علاقة عمك بالموضوع؟

- عمي وديع كان عضوًا في الحزب الشيوعي. كان شابًّا طائشًا متحمسًا، ويبدو أنه قال علنًا في بداية الأحداث إنه يجب التخلص

من كل رموز الإقطاع والرجعية، وذكر اسم جدك بالاسم. لذا كان من الطبيعي أن يعتقد الجميع أن له علاقة بما حدث.

- هل كان لهذا علاقة بموقف العائلة من زواجك بأبي؟ عدا موضوع اختلاف الديانة؟

- سألتها السؤال نفسه عندما زارتني في لندن، لكنها أكدت أن الأمر له علاقة بعناد آل يونس. لا علاقة لوديع نقاش بالأمر.

سكت قليلًا كما لو أنه يحاول أن يستوعب كل ما قلته. هل أخطأت بتحميله كل هذا؟

- هل شارك عمك فعلًا فيما حدث؟

- سألتها أيضًا السؤال نفسه، في الزيارة نفسها. قالت لي بكل بساطة إنه لم يشارك، لأنه لو شارك لما بقي حيًّا، وطلبت مني أن أسأله هو إن كان قد خطط أو حرض.

- قالت لو شارك لما بقيَ حيًّا؟

- نعم، عينًا بعين. قلت لك إنها زعيمة العصابة يا صهيب. هل تعتقد أن ابن شقيقها سيحرم ابنه من شيء رغمًا عنها أو من دون موافقتها ومباركتها على الأقل؟

- رغم كل ما قلته، هذا الموقف يثبت قوتها بلا شك. لكنها كانت في حالة دفاع عن النفس؛ لا أستطيع لومها تمامًا.

- لا أتحدث عن لومها الآن. لكن هذه الحادثة نصبتها كزعيمة للعائلة. كانت قويةً قبل ذلك طبعًا، لكن بعد ما حدث... لا أعتقد أن جدك كان سيحرم والدك من شيء دون موافقتها. أعرف أنه مجرد تخمين، لكن وسام الرافدين لا يبدو لي مجاملةً. يبدو لي أقرب إلى الرشوة.

- أمي، عليَّ أن أنام الآن. أخبروني قبل قليل أننا سنذهب في زيارة إلى مدينة تاريخية جنوب الموصل.

- الحضر؟

- نعم، الحضر. تعرفينها؟

يا الله. أعرفها؟ هل يمكن أن أنساها!

- نعم، أعرفها. لكنني سمعت أن داعش قامت بتدميرها.

- يبدو أن هذا ما أعلنته داعش فعلًا. لكنها لم تستطع الكثير. ركزت أكثر على تدمير المراقد والكنائس فيما يبدو.

- استمتع. الحضر مدينة رائعة. آمل فعلًا أنهم لم يدمروها.



***

أنهيت المكالمة.

الحضر؟! يسألني إن كنت أعرفها.

***

السابع من نيسان، 1976.

كان يوم الأربعاء.

الجامعة تحتفل بذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي.

انطلقت مسيرات التأييد من المدارس والجامعات والدوائر الرسمية.

لكن كان هناك ترتيب آخر رتبه بعض الطلبة من كلية الهندسة وكلية الطب في جامعة الموصل.

اتفقوا مع سائق حافلة تشبه الحافلات المشاركة في المسيرة أن ننتظره مقابل الجامعة. جئنا نحن مجموعة من طلاب الطب إلى حي المجموعة الثقافية بحجة أن الاحتفال هناك أكبر وأكثر تنظيمًا.

وانطلقت بنا الحافلة، وسط الأغاني إلى خارج الموصل. كان الربيع يغطي الطريق بخضرة تستقبل الاصفرار على استحياء. غنى آكوب، طالب الهندسة المدنية الأرمني وعزف على جيتاره.

كانت بيني وبين نائل نظرات منذ السنة الأولى في الجامعة. كان يأتي لزيارة أصدقائه، ثم بدأت أشعر أنه يأتي خصيصى لهذه النظرات.

قالت النظرات الكثير دون كلمة واحدة.

في لحظة ما، عندما وصل آكوب إلى مقطع في أغنية يردلي، التقت عيوننا وقالت كلمةً واحدة.

قال آكوب على لسان عاشق مسلم موصلي وقع في غرام فتاة مسيحية:

ابوك يا اسمر حلو ماجا على ديني

انتي على دينكِ وانا على ديني

صومي خمسينكِ واصوم ثلاثيني

صدقنا للحظات أن الأمر سهل. يصوم ثلاثينه وأصوم خمسيني وينتهي الأمر. صدقنا آكوب وجيتاره واللحن القديم الذي تتوارثه الموصل أبًا عن جد. صدقنا أكثر مما يجب على ما يبدو. الجو النيساني وأنغام الجيتار وصوت آكوب المبحوح ساهموا في خداعنا.

لو فكرنا قليلًا، لعرفنا أنها مجرد كلمات أغنية لقصة عشق حُكِم عليها أن تبقى سريةً محرمة. غالبًا تزوج العاشق بابنة عمه وتزوجت المعشوقة بابن جارها الذي يصوم الخمسين مثلها.

عندما وصلنا إلى مدينة الحضر، تفرق الطلاب مجموعات وأفرادًا. وتداخلت المجموعتان التي كنا فيها، أنا ونائل. ليس مصادفةً بالتأكيد.

تبادلنا الحديث لأول مرة هناك عند مدخل المعبد الكبير. اسمه هيكلا ربا. هكذا قال لنا أحمد، أحد طلبة المعماري المولعين بالتاريخ. لم يكن يحتاج إلى الترجمة. هيكل الرب.

كان الحديث عاديًّا جدًّا، لكنه بدا لي مثيرًا شائقًا مثل الحديث عن نظرية فيزيائية في السفر عبر الزمن. اندمجت معه كما لو أننا نعرف بعضنا منذ أول مرة تبادلنا فيها النظرات في السنة الأولى للجامعة. قبل أن تنتهي الرحلة، كان قد اعترف لي بما أعرفه تمامًا.

لم أجبه؛ لا يليق بالفتاة بنت البيت أن ترد لا رفضًا ولا إيجابًا. ركضت نحو قاعدة تمثال زوجة الملك سنطروق الأول. هكذا قال لنا الطالب المولع بالتاريخ. قال اسمها ولم أحفظه. صعدت على القاعدة، توهمت أني تسلقت على قمة العالم. التقط لي نائل صورة فورية بكاميرته البولورويد التي كانت حديث الجامعة وقتها. احتفظت بالصورة معي حتى عندما سافرت للدراسة بعد تخرجي. احتفظت بكل صور تلك الرحلة اللامنسية.

كتب لي نائل رسالة بعدها بيومين. قال لي إنه يريد أن يعقد زواجنا في هيكل الرب في الحضر وأنني سأرتدي فستان زفاف مستوحًى من تمثال زوجة الملك. لم نفعل ذلك. عقدنا زواجنا في المركز الإسلامي في لندن. كنت أرتدي ملابسي العادية: تنورة كاروهات وقميص أصفر، مع إيشارب وضعته لي زميلة من بغداد. عقدنا زواجنا سريعًا ثم تعشينا بعدها مع الأصدقاء في مطعم إيطالي. هذا كل شيء.

قال لي في رسائله إن الحضر تشبهنا؛ مملكة قررت أن تتحدى الإمبراطوريتين اللتين كانتا تتحكمان في العالم آنذاك: الفارسية والرومانية. بقيت مستقلةً، ومثلهما سنكون.

فاته أن يقول إن المحاولة فشلت. انتهت بعد مئة سنة فقط. مثل لحظات في عمر التاريخ. وبقيت آثارها، بطرازها الروماني، شاهدةً على المحاولة وفشلها.

بهتت صورة البولوريد مع الوقت، كما يحدث مع كل الصور الفورية من نوعها. لا تزال موجودةً في مكان ما. ليست الألوان وحدها هي التي غادرت، بل غادر البريق عيني أيضًا. غادرت الأحلام وبدوت فتاةً ساذجة تقف أمام تمثال زوجة الملك وهي تتخيل أنها ستكون ملكةً يومًا ما.

عندما سمعت في الأخبار أن داعش قد دمرت مدينة الحضر، بدا لي أن هذا الدمار قد تأخر كثيرًا.

بالنسبة إليَّ، كان كل شيء قد تدمر منذ زمن طويل.

صهيب

قبل أن أسقط في النوم تصفحت الفيس بوك بحثًا عن سَفانة. وجدت أولًا صفحتها الرسمية كمحامية، صورتها على المكتب وخلفها العلم العراقي. تبدو كما لو كانت سياسيةً أو قائدة حزب أو مرشحة للانتخابات وليست محامية. بحثت أكثر عن حسابها الشخصي. كان مغلقًا، لكن الصورة كانت لها مع ابنتها، ترتدي نظارةً شمسيةً تغطي معظم وجهها. حسابها على الإنستجرام كان مغلقًا كذلك، تزينه الصورة نفسها.

ثم نمت.

كان نومًا مرهقًا بكوابيس ثقيلة.

الكابوس نفسه الذي يتكرر منذ أن جئت الموصل، الظلمة الدامسة وصوت البحر والتنفس العميق. لماذا البحر والموصل بعيدة عنه آلاف الكيلومترات؟

لا أدري.

لكنه هذه المرة اختلط مع كل ما روته لي سَفانة عن الخسفة. اختلط مع أصوات الأنفاس الأخيرة لخمسة وعشرين ألف شخص أُلقي في الحفرة العميقة.

خيل لي أني سمعت أصوات احتضارهم. لكن خيل لي أنهم لم يموتوا، بل بقوا يحتضرون. يشهقون شهقاتهم الأخيرة إلى المالانهاية وما بعدها.

استيقظت على صوت الصمت الذي عقب انقطاع التيار الكهربائي وتوقف المكيف عن العمل. كنت متعرقًا، لا من الحر، بل مما رأيته في نومي.

دون أن أشعر وجدت نفسي أتجه إلى الورق لأرسم ما أذكره من حلمي قبل أن يتلاشى مع الوعي. وجدتني أرسم أكفًّا تحاول أن تخرج من حافة حفرة عملاقة. أكف نازفة متعرقة متعبة.

لا أدري لماذا تخيلت أفواهها مكممة مكتومة أيضًا. أدرك أني لم أرَها كذلك في الحلم، لكن هذا ما تخيلته.

كان اسكتشًا سريعًا رسمته بالرصاص في دقائق. قبل أن أنتهي كانت الكهرباء قد عادت مع صوت المولد الذي جاء بعيدًا من الخارج.

حاولت أن أنام وفشلت؛ كنت لا أزال أسمع الأصوات في أذني.

فتحت هاتفي وبحثت عن الخسفة؛ فوجئت بها في كل مكان على الشبكة. بدا لي أن الكل يعرف بالأمر إلا أنا. ثم بحثت عن تقرير المنظمات الذي ذكرته سَفانة. شعرت بالخجل لأن أجد كل تلك الوثائق والأرقام عن فظائعَ لم أعرف عنها شيئًا. وضعت تصميمًا للمدينة دون أفهم ما مرت به. وضعته مثل غربيٍّ جاء ليفرض رؤيته وأحكامه السابقة دون أن يحاول فهم ما حدث فيها حقًّا.

بحثت عن علبة الأمبيان في حقيبتي. حاولت تجنب أخذ أي حبة منها منذ أن وصلت إلى الموصل. العقار متهم أصلًا بأنه يُحدِث غرابة في السلوك، أو هكذا حاول المشاهير الذين يتناولونه تبرير بعض سلوكياتهم. في الموصل، كنت غريبًا بما فيه الكفاية دون حاجة إلى

أمبيان. لكن هذا الأرق، ألا يمكن أن يكون بسبب تركي للأمبيان. متى آخر مرة تناولته؟ صعقت بالجواب. أخذت آخر حبة قبل ليلتين من سفري، قبل أقل من أسبوعين. هل يعقل أن كل هذا حدث لي خلال أقل من أسبوعين؟ توقعت أني غادرت الولايات المتحدة منذ شهرين أو ثلاثة على الأقل. أو أكثر بكثير. كل هذا حدث في عشرة أيام؟ كما لو أن سنين طويلة تفصلني عن صهيب الذي كنته عندما كنت في أمريكا.

تسلل النوم إلى داخلي بسرعة. لا. ربما أنا من تسللت إليه.

وجدت نفسي في بيتنا القديم في كاليفورنيا، في غرفة الجلوس. أسمع أمي تتحدث مع أبي في المطبخ. صوت التلفاز عالٍ لكن صوتهما أعلى. مذيع نشرة الأخبار يتحدث عن بدء عملية عاصفة الصحراء على العراق. ثمة عاصفة أخرى في البيت. أمي تقول لأبي إنها ليست مثله ولن تعرض أهلها إلى المزيد من الأذى. يرد عليها ردًّا عنيفًا، ثم يقول لها شيئًا عن حاجتنا إلى المال وإننا أحق من إخوتها بالإرث الذي تنازلت عنه لهم. أمي تكرر أنها ليست مثله.

تخرج من المطبخ، أتفاجأ بأنها ليست أمي. بل سَفانة، لكن دون حجاب.

تذهب إلى التلفاز وتغير المحطة وترفع الصوت.

استفقت على صوت الهاتف.

كانت سَفانة.

رددت فورًا كما لو كنت قد ضُبِطت متلبسًا بالحلم بها.

جاء صوتها قويًّا نشيطًا. انتبهت إلى أن الوقت قد تجاوز الحادية عشرة. تبًّا! ضاع الإفطار. الأمبيان اللعين.

- أريد أن آخذك إلى النبي جرجيس.

النبي جرجيس؟ بدا لي الاسم مسيحيَّ الإيقاع.

- من هو النبي جرجيس؟

- لا مجال للشرح الآن، سأشرح لك لاحقًا. لكن ليس منطقيًّا أن تأتي إلى الموصل ولا تزور النبي جرجيس ومنطقته.

- جرجيس؟

حاولت أن أمسك بطرف الكلام لكي أعرف كيف أرد.

صمتت قليلًا ثم سألتني: «هل لا تزال نائمًا؟ آسفة إن كنت أيقظتك».

لأجزاء من اللحظة استغربت سؤالها. لقد كانت معي في الحلم، ألا يفترض أن تعرف أني كنت نائمًا بالفعل.

استدركت كاذبًا: «لا لا، لقد استيقظت ثم غفوت قليلًا».

- عليَّ أن أذهب بعدها إلى دهوك، إن كنت ترغب في أن تأتي أيضًا.

- دهوك؟ ما دهوك؟

توقعت أن يكون حيًّا شعبيًّا من أحياء الموصل ترغب سَفانة أن تأخذني إليه.

جاء صوتها كما لو كانت تلقن طفلًا معلومةً يفترض أن يعرفها بداهة.

- دهوك هي محافظة من محافظات الإقليم.

- الإقليم؟

- إقليم كردستان. ثلاث محافظات كردية تشكل إقليم كردستان.

أحسست بالغباء. هناك بديهيات أجهلها عن هذا البلد الذي جئته كما لو كانت شهادة الدكتوراه من هارفرد كافيةً لكي أفهمه تلقائيًّا.

- لماذا نذهب إلى هناك؟

- لديَّ صديقة أريد أن ألتقيها هناك على الغداء، وقلت هي فرصة لترى المزيد من العراق.

- حسنًا، أحتاج إلى أن أشرب القهوة فقط.

- لديك الوقت لذلك. سأمر عليك في الواحدة ظهرًا.

عدت إلى النوم وعاد الحلم مجددًا. هذه المرة كانت أمي في الحلم. مشاجرة أخرى مع أبي. كنت في الخامسة عشرة. تبادلا اتهامات بصوت هامس ولكن حاد. لم أسمع كل الكلام، لكني سمعتها تسأله: «لم لا تقول إنك ندمت على الزواج بي؟».

- ربما أنتِ من تريدين أن تقولي ذلك.

- نعم، أنا نادمة. لديَّ شجاعة الاعتراف بأني أخطأت، أما أنت فلا تملك هذه الشجاعة.

- لا. أنا أملك هذه الشجاعة، لكني لا أخطئ.

استيقظت قرابة الثانية عشرة ظهرًا. طلبت من مطعم الفندق الإفطار والقهوة، ثم طلبت المزيد من القهوة. الأمبيان اللعين.

وجدت ورقة الاسكتش على المكتب. لثوانٍ لم أفهم من رسمها ومن تركها. كنت قد نسيت كل شيء عن الحلم ومحاولتي اعتقاله على الورق، لكن الرسم أعادني إليه؛ تذكرت الأصوات والحشرجات. ثم تذكرت الحلم الآخر: أمي المختلطة بسَفانة، الحوار بين أمي وأبي. تذكرت فجأةً أنه كان هناك بالفعل حوار كهذا. أمي تقول لأبي إنها لن تفعل بأهلها كما فعل هو. حديث غامض عن الإرث. هذا الحوار بقي في مكانٍ ما من ذاكرتي، مخفيًّا في صندوق مغلق. لكنهما لم يكونا يتحدثان عن زواجهما بالتأكيد؛ هذا كان بعد سنوات طويلة. كنت في العاشرة أو أكثر.

ماذا فعل والدي أكثر من أنه تزوج أمي رغمًا عن إرادة أهله؟

تذكرت ما قالته سَفانة عن ذهابنا إلى النبي جرجيس.

سألت أليكسا: «ماذا تعرفين عن النبي جرجيس؟».

- النبي جرجيس، هو نبي مختلَف في نبوته عند المسلمين. يقال إنه أدرك بعض الحواريين، فأرسله إلى بعض ملوك الموصل فدعاه إلى عبادة الله -عز وجل- فقتله، فأحياه الله وبعثه إليه ثانيةً، فقتله، فأحياه الله مرةً أخرى، فأمر بنشره في المرة الثالثة وإحراقه وإذرائه في نهر دجلة، فأهلك الله -عز وجل- ذلك الملك وجميع أهل مملكته ممن اتبع الملك. له مرقد في الموصل، قام تنظيم داعش بهدمه.
- هل هناك جامع فيه مرقد لم تهدمه داعش؟
- هذه قائمة بأسماء الجوامع التي لم تهدمها داعش في العالم...
- كفى يا أليكسا، وصلت الإجابة.

في الواحدة وصلت سَفانة. كانت تضع عطرًا مميزًا وترتدي تدرجات من اللون البني. قالت لي إن عليها أن تمر أولًا على مدرسة ابنتها لأن السائق الذي يوصلها كل يوم اعتذر للتو.

ذهبنا إلى المدرسة. قبل أن نصل بلحظات قالت لي سَفانة بارتباك: «لا أعرف إن كنت لاحظت أن ليليان تعاني حالةً خاصةً!».

- ليليان؟ ابنتك اسمها ليليان؟ ألم يكن لِلي؟
- اسمها ليليان، لكن الكل ينادونها لِلي، الحاجة تناديها ليلى أصلًا. ربما تعدد الأسماء ساهم في حالتها.

شرحت سَفانة أن لِلي في مدرسة تعتني بهذه الحالات، وأنها فكرت أصلًا في الانتقال إلى أربيل قبل أن تفتح هذه المدرسة في الموصل.

لم تقل ما الحالة الخاصة وكان واضحًا أنها محرجة من الأمر برمته. حاولت أن أخفف من حرجها بأن أقول لها إن أمي وأبي كانا يعتقدان أيضًا بأني أعاني حالة خاصة، لكن كنا قد وصلنا إلى المدرسة. هرعت «للي» إلى السيارة واحتضنت أمها، ثم نظرت إليَّ شزرًا.

- تذكرين عمو صهيب؟ كان معنا في غداء ستًّا[1] عادلة، تذكرين؟

لم ترد، كان من الواضح أن وجودي مزعج لها. تذكرت أنها لم تنطق بكلمة واحدة في غداء الحاجة عادلة.

- سلمي على عمو، عيب.

تمتمت بشيء لم أفهمه لكني فهمت أنها مجبرة على الترحيب بي. كانت تعاني غالبًا طيفًا من أطياف التوحد أو شيئًا كهذا. كلنا في الغالب على طيف ما من هذه الأطياف. هذه قناعة يقينية عندي.

- للي، هل تريدين أن تأتي معنا إلى النبي جرجيس أم أوصلك إلى البيت؟

لم ترد، لكنها تمسكت برقبة سَفانة من الخلف. بان الفرق بين لون بشرتيهما واضحًا، كانت للي شديدة البياض، بينما سَفانة حنطية أقرب إلى السمرة. لا بد أن زوجها كان أبيض البشرة.

وبينما كانت للي لا تزال متشبثةً برقبة سفانة، حركت سَفانة السيارة وقالت معتذرةً: «لم تتعود أن يجلس أحد بجانبي في السيارة غيرها».

- أستطيع أن أجلس في الخلف.

هزت سَفانة رأسها كأنها تقول لا داعي لذلك، لكن للي تشبثت بها أكثر على نحو جعل القيادة متعذرة.

---

(1) ستا: جدة.

أوقفت سَفانة السيارة على جانب الطريق وعلى شفتيها ابتسامة محرجة. للحظات لم أعرف ماذا أفعل، ثم هبطت فورًا وتحولت إلى المقعد الخلفي. قبل أن أغلق الباب كانت للي قد انتقلت بقفزة واحدة إلى المقعد الأمامي، ثم التفتت إليَّ ورمقتني بنظرة انتصار وشماتة.

نظرت سَفانة إليَّ في مرآة السائق وحركت شفتيها بكلمات، مع ابتسامة خجولة.

أعتقد أنها قالت: «تغار منك».

نزل عليَّ شعور طفولي لم أعرف كيف أصفه أو أفهمه. للي تغار مني على سَفانة؟ مزيج من الفرح والخجل والانتصار.

أكملت سَفانة طريقها وهي لا تزال محرجة. مدت يدها أكثر من مرة لتربت ابنتها كما لو لتطمئنها أنها لا تزال لها وحدها. هذه المرة شعرت أنا بالغيرة. يا لي من سخيف!

شعرت برغبة في أن أقول أي شيء، فقط لأخرج من موقف الغيرة الذي لا معنى له.

- النبي جرجيس إذن؟

- النبي جرجيس هو النبي الوحيد الذي لم يعد أحد يؤمن به أو يذكره غير أهل الموصل.

- نعم، لم أسمع به من قبل!

- غالبًا كان من تلامذة حواريي السيد المسيح، حوله مسلمو الموصل إلى نبي وبنوا حول مرقده مسجدًا. هل هناك وحدة وطنية وتقبل أكثر من ذلك؟

قالت هذا كما لو كانت تفخر به.

- أي وحدة وطنية وأي تقبل يا سَفانة؟ هذا cultural appropriation لا أكثر ولا أقل.

تأثير الأمبيان على ما يبدو.

- ما هذه الكلمة؟ اعذرني، إنجليزيتي متوسطة!

- لا أعرف معناها بالعربية، لكنها تصف عندما تقوم الأغلبية بأخذ جزء من ثقافة الأقلية والاستحواذ عليها.

رفعت سَفانة حاجبيها: «هذا كلام خطير وكبير. الأمر غالبًا أبسط من هذا. أعتقد أن تحول جرجيس إلى نبي قبل أن يصبح المسلمون أغلبيةً في الموصل. حقيقة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين مختلفة عن تصوراتك، الإعلام الغربي يصور الموضوع على نحو مشوه يا صهيب».

انفجرت ضاحكًا.

- طبعًا الإعلام الغربي والغرب هو السبب في كل شيء. الحياة سعيدة وممتازة والمسلمون والمسيحيون كانوا يعيشون happily ever after، ثم جاء الغرب والغربيون وخربوا كل شيء.

كانت سخريتي واضحة. أثر الأمبيان كان واضحًا أيضًا، لكني كنت مقتنعًا بما أقول. يتعاملون مع مشكلاتهم بأبعد الطرق عن الحل. كل السلبيات جاءت من الغرب. قبل ذلك، كانوا مواطنين صالحين في المدينة الفاضلة.

بدت سَفانة متفاجئةً من لهجتي.

- لم نكن بلا مشكلات، لكن كانت الأمور طبيعية.

- ثم جاءت داعش وطردت المسيحيين من الموصل. آه، تذكرت، داعش هي صنيعة أمريكا أصلًا. الغرب هو السبب دائمًا.

ردت على الفور: «داعش صنيعة أمريكا فعلًا. لا شك عندي في ذلك».

- والمصفقون لها؟ والنصوص التي استعملتها داعش لكي تطرد المسيحيين؟ أيضًا صنيعة أمريكا؟

قالت سَفانة بإصرار: «لا، ليس الأمر كذلك. لكن دون أمريكا ما كانت وصلت الأمور إلى هذا الحد».

قالتها بثقة مستفزة.

ارتفع صوتي.

- بربك يا سَفانة، أتقولين هذا لي أنا؟ ابن خالك الذي لم تعرفيه ولم تريه في حياتك لأن والده تزوج بمسيحية، ثم تتحدثين عن وحدة وتقبل؟ ثم تقولين غربًا وإعلامًا غربيًّا شوه الوحدة الوطنية العظيمة! أنتِ في حالة إنكار لا أكثر ولا أقل.

هزت سَفانة رأسها وكأنها لا تزال مصرة على موقفها.

- لو أن خالي نائل لم يفعل ما فعله بعد زواجه بوالدتك، لكان ممكنًا ألا تصل الأمور إلى هذه الدرجة.

- ماذا فعل والدي؟

رفعت حاجبيها مستغربة.

- لا تعرف ماذا فعل؟

- لا أعرف غير أنه تزوج بوالدتي وحرمه والده من الميراث.

نظرت إليَّ نظرةً طويلةً ثم قالت: «هذه نصف الحقيقة. نصفها الآخر هو المشكلة الحقيقية».

تذكرت حوار أمي وأبي الذي أرجعني الحلم إليه. كانت سَفانة مكان أمي في الحلم. ها هي الآن تتحدث عن شيء يبدو مرتبطًا بذلك الحوار.

- وما نصفها الآخر؟

نظرت إليَّ كما لو أنها تقول ليس هذا وقتها. كانت متفاجئةً على ما يبدو من ارتفاع صوتي وانفعالي. لم يكن هناك مجال لألوم الأمبيان على ذلك.

- أعتذر عن ارتفاع صوتي.

- لا عليك، ربما كنت محقًّا. لو كنت مكانك سأقول الشيء ذاته غالبًا.

أوقفت السيارة في شارع فرعي. المنطقة بدت لي شعبيةً، آثار الحرب لا تزال واضحةً عليها، الإعمار والترميم لا يسير بالوتيرة نفسها، بعض البنايات واجهاتها تقول إنها أُصلِحت ورُمِّمت وبجانبها عمارة مهدمة ومهجورة. سألت سَفانة عن ذلك.

- الإعمار أغلبه يتحمله الأهالي. إن كان أصحاب البنايات يمتلكون القدرة على الترميم فهم يفعلون ذلك كما ترى، إن كانوا غير ذلك فهم ينتظرون مساعدةً حكومية، أو ربما يبيعونها كأرض لمستثمر، لكن الأسعار لا تزال غير مشجعة.

شرحت لي عن السوق، اسمه سوق الشعارين، وعن بيوت قديمة فيه، وعن أثر يفترض أنه للعصر الأموي لكن لم يعد له وجود. لم تكن مرشدةً سياحيةً جيدة، لكنها كانت تحاول على أي حال. لا أدري إن كان المرشدون السياحيون يستخدمون جوجل أمام زبائنهم، لكنها فعلت ذلك لتقول لي إن أول إشارة إلى مرقد النبي جرجيس كانت في القرن السادس الهجري.

مررنا أمام بناء كبير وأشارت إليه.

- هل ترى هذا البناء؟ هذا الخان هو أكبر خان في سوق الشعارين. كان يعود للحاجة عدلة.

- كان؟

«نعم، وباعته». قالتها بطريقة لم أفهمها، كما لو أن هناك شيئًا آخر تريد أن تقوله ضمنًا، أو ستقوله لاحقًا.

ثم سكتت وقليلًا وقالت بعد تفكير: «ربما ما تحدثت عنه صحيح صهيب، هذا (الكلتشرال) لا أعرف ماذا الذي قلته وأنت عصبي! استحواذ ثقافي قلت؟ لكنه ربما كان معكوسًا وحدث بالتدريج. سكان الموصل كانوا مسيحيين أصلًا قبل دخول الإسلام وغالبًا كان النبي جرجيس لديه مكانة عندهم، ثم دخلوا الإسلام بالتدريج وأخذوه معهم إلى الإسلام. يعني تقدر أن تقول هم من عملوا هذا الكلتشرال الذي قلت عنه».

ضحكت لمنطقها البسيط الذي استوعبت به الموضوع. فكرتها كانت محتملةً وأكثر منطقيةً من تصوري الأول.

كنا قد وصلنا إلى المسجد. على السياج كانت هناك لافتة تقول ذلك، وكانت هناك لافتات أخرى عن جمعية تقوم بإعماره. كان واضحًا أن الإعمار لم يتم بعد، لكن الجامع كان مفتوحًا.

دخلنا الساحة الرئيسية خلف السياج. كانت واسعةً جدًّا. أسرعت للي تركض وسط الحمام الذي كان يتوسط الساحة. طار الحمام بينما كانت سَفانة تخرج هاتفها بسرعة وتلتقط صورًا لابنتها التي كانت منطلقةً وسط الحمام وتصدر أصواتًا تحاول تقليد الحمام.

- لم أكن أعرف أن ابنتك تعاني شيئًا. أنا آسف جدًّا. لكن هذا الأمر طبيعي الآن؛ نسبة كبيرة من الأطفال تعانيه. ربما كنت أنا أعانيه في طفولتي. ربما يكون الأمر في جينات العائلة.

هزت رأسها.

- لا علاقة للجينات بالأمر. على الأقل ليس جينات آل يونس.

هل كانت تلمح إلى جينات زوجها؟

أدرت بصري في المكان. كانت هناك زاوية لا تزال مدمرةً تمامًا. مجرد أنقاض.

- فجرته داعش كما فهمت.

- نعم، في رمضان. فجروا أولًا جامع النبي يونس، في السادس والعشرين من رمضان. في اليوم التالي فجروا النبي شيت، ثم في اليوم الذي يليه فجروا النبي جرجيس. في تلك العشر الأواخر من رمضان قضوا على كل تلك المساجد. جامع النبي جرجيس تحديدًا حولوه إلى موقف للسيارات.

- ماذا كان هوسهم بتفجير الجوامع؟

- هوسهم كان بتفجير الجوامع التي فيها قبور. بغض النظر عن صاحب القبر، كانوا يعتبرون أن هذه عبادة للقبر أو لصاحب القبر. كان هذا أساسيًّا في عقيدتهم. قبل كل شيء وأهم من كل شيء.

- لكن الناس لم تكن تعبد القبور، صحيح؟

- بلا شك يحدث تعلق بالقبر أو بصاحبه. تعلق يمكن أن يصلح بالوعي من وجهة نظري ووجهة نظر كثيرين. لكن داعش كانت تعيش في عالم آخر لا يقبل التفاوض.

- لماذا جئت بي إلى هنا يا سَفانة؟

سألتها لأني لم أفهم الدافع الذي جعلها تتصل بي لتجلبني إلى هذا المكان وسط الترميم وإعادة الإعمار.

بدت متفاجئةً من السؤال وغير مستعدة له. بدا واضحًا ذلك من ابتلاعها لريقها وهي ترد على سؤالي.

- لا يوجد سبب غير أنك يجب أن تشاهد جامع النبي جرجيس؛ مهم في الموصل عمومًا. وعندما هدمت داعش جامع النبي يونس، قال المرحوم خالد إن الأمر كله بدأ من جامع النبي جرجيس.

- ماذا يعني هذا؟ لم أفهم.

- خالد كان مثقفًا جدًّا؛ قارئ نهم. قال إن دعوة هدم المراقد بدأت في هذا الجامع تحديدًا أو شيئًا كهذا. لا أذكر التفاصيل.

كنت على وشك أن أقول: «لم أفهم أيضًا، ولكنه مثير للاهتمام أيضًا».

ركضت للي إلى سَفانة، غمرتها سَفانة بحنان وغمغمت: «قبَّان طولك».

هذه المرة شعرت بالغيرة من للي؛ لم تغمرني أمي يومًا هكذا، لم تقل لي: «قبَّان طولك».

التفتت سَفانة إليَّ فجأة وخيل لي أنها لمحت الغيرة في عيوني.

ثم ركضت مع للي باتجاه الحمام الذي عاد إلى التجمع في وسط الساحة.

سألتها: «ما نصف الحقيقة الآخر؟».

سألتها كما لو كانت لا تزال بجانبي.

- ماذا تقول؟ لا أسمعك.

- أقول لكِ ما نصف الحقيقة الآخر؟

«اذهب إلى المسجد وصلِّ، وادعُ الله أن يهديني إلى إخبارك. وقد أفعل». قالتها والتقطت لي صورة على هاتفها.

ثم نظرت إلى الصورة وأغرقت في الضحك.

- هذه الصورة تنفع كوجه تعبيريٍّ على الفيسبوك. المصدوم.

«أصلي؟ قلت لك إني لا أومن كثيرًا». قلتها بصوت منخفض كيلا يسمعني أحد.

سمعتني أو قرأت شفتي.

- وتريد أن تعيد تصميم مسجد النبي يونس؟ أنت حقًّا من آل يونس؛ يعتقدون أنهم يمكنهم أن يفعلوا أي شيء. أو لعله الجزء الأمريكي منك؟

ربما كانت محقة.

- اذهب وتوضأ وصلِّ، وادعُ الله أن أخبرك عن نصف الحقيقة الآخر. لن أقول لك أي شيء دون أن تفعل ذلك. أنا أيضًا من آل يونس أيها الأمريكي.

ذهبت إلى مكان الوضوء. كان لا يزال تحت الترميم، ولكنه صالح للاستعمال. توضأت بسرعة على قدر ما تمكنت تذكره من تفاصيل الوضوء. كان الماء باردًا جدًّا بحيث إنه أعاد إليَّ وعيي. شعرت أن أثر الأمبيان زال الآن مع رشاش الماء البارد.

دخلت إلى حرم الجامع. كان هناك بعض العمال وهم يركبون أسلاكًا كهربائيةً وآخرون ينجزون طلاء الحائط في الجانب الآخر. كانوا يتحدثون بصوت عالٍ فيما بينهم ثم خفضوا أصواتهم عندما بدأت في الصلاة. كنت أفكر أولًا في نظراتهم عليَّ وخفت أن أقوم بحركة من الحركات على نحو خاطئ، لكني انتبهت أن كلامهم فيما بينهم مستمر دون اهتمام بوجودي.

عندما سجدت ومسست أرضية المسجد الباردة بجبهتي سرَت في جسدي رعشة خفيفة. لم تكن بسبب البرودة، بل شيء آخر. الرهبة ربما. منذ زمن بعيد لم أدخل مسجدًا لكي أصلي. هل كنت أصلي حقًّا أم كنت أنفذ التحدي الذي وضعتني سَفانة أمامه. في سجودي طلبت

من الله أن يجعل سَفانة تخبرني نصف الحقيقة الآخر الذي أجهله. كنت أعرف سخافة طلبي، لا شك أن سَفانة قد قررت أن تخبرني، وأن ذلك لن يكون له علاقة باستجابة الله لدعائي.

خرجت وأنا أشعر بسكينة غريبة.

كانت سَفانة تجلس على دكة قرب مصلى النساء وتحتضن للي؛ شعرت مجددًا بالغيرة. لم أفهم إن كنت أشعر بالغيرة من للي أو من المشهد نفسه.

اقتربت منهما، احتضنت للي أمها بطريقة شديدة كما لو أنها تخاف مني عليها أو على حضنها.

- الآن عليك أن تخبريني نصف الحقيقة الآخر.

- علينا أن نخرج الآن؛ تأخرنا على موعدنا في دهوك.

كنا قد خرجنا من الجامع واتجهنا إلى حيث أركنت السيارة.

- هل ستقولين الآن أم ستستمرين في دور التشويق؟

«جدك لم يحرم والدك من الميراث كما هدده». قالتها جملةً سريعة دون مقدمات. وقعت عليَّ كالصاعقة.

- عمَّ تتحدثين؟

- هذا ما حدث. هو هدد فعلًا، لكنه عمليًّا لم ينفذ تهديده إلا في البيت الذي كان يسكنون فيه في حي الزهور، وفي قطعة أرض زراعية في الحمدانية. لكن كل شيء آخر بقي كما هو: عمارتان في السرجخانة، وعمارة أخرى في الزهور، الخان في باب الطوب، وأراضٍ زراعية أخرى كثيرة.

ثم تنهدت وقالت: «والبيت الكبير أيضًا».

- كيف حدث هذا؟

- الحاجة عدلة أقنعت جدك أن لا داعي للمزيد، وأن الدنيا صغيرة ومسيرهم يتلاقون، وأنه ابنه مهما فعل وأن الدم لا يتحول إلى ماء... إلى آخره.

- واقتنع؟

«على مضضٍ، ولكن اقتنع، ولو عرف ماذا فعل والدك بعد وفاته لخرج من قبره لكي يضرب الحاجة عدلة». قالتها مع ابتسامة كما لو كانت تقول نكتة.

- ماذا فعل والدي؟

تذكرت ما قالته أمي: «لن أفعل بأهلي كما فعلت أنت».

- باع حصته من كل شيء.

- هذا كل شيء؟ أليس هذا متوقعًا؟ أليس هذا حقه الطبيعي؟

لم أكن أدافع عن أبي، كنت أسأل فقط. هو يعيش في أمريكا؛ ماذا سيفعل بحصته من الميراث؟ يأتي كل شهر ليستلم حصته من إيجارات الدكاكين؟

- حقه حسب القانون بلا شك. لكن هناك أمورًا أخرى كان يجب أن يأخذها بنظر الاعتبار، يريد أن يبيع حصته؟ يعرضها على شركائه في الإرث. هذا حسب القانون له الأفضلية. يسمونه حق الشفعة.

- لم يفعل هذا؟

«لم يحاول حتى. بعد أقل من شهر من وفاة جدك كان هناك محامٍ قد استخرج القسام الشرعي والنظامي وبدأ إجراءات بيع لكل شيء، كل شيء، لشخص واحد تعمد خالي -الله يرحمه- أن يختاره لكي يذل العائلة بأكملها». قالتها كما لو أن جرح الذل لا يزال ينبض.

- شخص واحد؟ يذل العائلة؟ ما معنى ذلك؟

- شخص من خارج الموصل. شقيق مسؤول بعثي مهم، وصهر بعيد لعائلة صدَّام. شخص لا يمكن الوقوف ضده في المحاكم فضلًا عن المساس به أو التأثير عليه. أدخلنا والدك في دوامة من المشكلات التي لم تنتهِ حتى بعد عشرين عامًا من بيعه لحصته. الشخص الذي باع له حاول المساومة والضغط ليشتري بقية الحصص؛ اضطررنا بالفعل لبيع الكثير لكي نتخلص من الشراكة معه. بقي متمسكًا بحصته من البيت الكبير لأنه يعرف أهميته، جوهرة التاج كما كان يقول هو صراحة.

بدا لي الشارع الذي كنا نسير فيه كما لو كان مظلمًا فجأةً. شعرت بالدوار. لا بد أن ضغط الدم قد هبط. أم تراه ارتفع؟

تذكرت حوار أمي مع أبي: «لن أفعل بأهلي كما فعلت بأهلك». لا بد أنه أخبرها أن تفعل الشيء ذاته.

كنت أتمنى لو أن أقف قليلًا لألتقط أنفاسي، لكن سَفانة كانت مسرعة.

وصلنا إلى السيارة، جلست في المقعد الخلفي بينما نظرات للي ترمقني بما معناه: «إياك أن تفكر في الجلوس قرب أمي».

- ماذا حدث بعد ذلك؟ هل بقي في البيت الكبير؟

هزت سَفانة رأسها.

- لا. الحاجة عدلة كانت تشعر أنها مسؤولة عن كل ما حدث عندما منعت شقيقها من حرمان والدك من كل شيء. لم يجرؤ أحد على لومها طبعًا، لكنها كانت تفهم نظرات العيون. قررت أن تصلح الأمر، وطلبت أن تقابل المشتري شخصيًّا. الشيخ سطام، ليس أيًّا

من موظفيه أو محاميه. قبل سطام أن تقابله الحاجة، لكنه حدد مكان اللقاء بخبث. في العوجة[1]، مسقط رأس صدام. القرية التي تحولت لتكون مثل عرين النظام. كان يريدها أن تأتي إلى هناك ليخيفها ويرهبها.

- ذهبت؟

أخرجت سَفانة دفتر رسم وأقلامًا من حقيبة بجانبها وأعطتها إلى ليليان وهي تقول لها: «انتهى وقت الشاشات الآن. اتركي الآيباد. ارسمي الجامع الذي رأيناه قبل قليل».

ثم أكملت: «ذهبت طبعًا ومعها محامٍ وكاتب عدل، وعرضت عليه عرضًا ما كان يمكن له أن يرفضه».

وقعت الجملة أمامي كما لو كنت قد سمعتها من قبل. نعم بالضبط. جملة العراب: «سأعرض عليه عرضًا لا يمكن أن يرفضه». أمي كانت محقةً في توصيفها بعد كل شيء.

- ماذا عرضت؟

- الخان الذي مررنا أمامه قبل قليل. كانت تملكه كله لأنه يعود إلى زوجها، وابنها كان قد استشهد دون ذرية.

- وقبل؟

- كان عرضًا لا يمكن أن يُرفَض. حصة والدك التي باعها لسطام كانت 300 متر تقريبًا من البيت الكبير في حي من الأحياء القديمة. الخان كانت مساحته 1800 متر في موقع تجاري. لا أزال أذكر عودتها من العوجة تلك الليلة. كنت صغيرةً، ولكن واعية بما فيه الكفاية. عادت قرابة التاسعة مساءً. كان القلق قد استبد بالجميع

(1) العوجة: قرية جنوب مدينة تكريت ولد فيها صدام حسين.

وخافوا عليها. دخلت متجهمة الوجه ولم تنطق بكلمة واحدة. تركت مكاتبتَي البيع على مائدة المطبخ ليطلع عليها الجميع. أنقذت الحاجة عدلة البيت الكبير، ولكن بقي سطام شريكًا في أكثر من عقار مجمدًا أي عمل أو إجراء يمكن اتخاذه فيه. وعندما سقط النظام عام 2003، صودرت أملاك سطام، وتعرضنا إلى المزيد من المشكلات القانونية للتخلص من أثر ذلك. لم تنتهِ آثار القصة إلا منذ سنوات قليلة.

لم أعرف ماذا أقول. كنت محرجًا جدًّا. أردت أن أشرح لها أني لم أكن أعرف شيئًا عن كل ذلك، وأني أذكر أن والدتي لم تكن موافقةً على ما فعله أبي دون أن أعرف ما الذي فعله. لكني لم أقل شيئًا، بقيت ساكتًا.

فهمت سَفانة صمتي. نظرت في مرآة السائق وقالت: «أرجو ألا تفهم كل ما قلته أنه إدانة لك. ولا تزر وازرة وزرَ أخرى. لم أكن أنوي ذكر أي شيء عن ذلك، لكنك لم تفهم أسباب القطيعة الحقيقية؛ تصورت مخطئًا أن كل ذلك حدث بسبب زواج والدك بوالدتك. لكن الحقيقة أن الحاجة عادلة حاولت أن تصلح الأمور بمنع شقيقها من حرمان والدك، وقابل والدك ذلك بطريقة جعلت القطيعة أمرًا حتميًّا».

ثم أكملت: «في الحقيقة، لم أكن أريدك أن ترى جامع النبي جرجيس، كنت أريد أن أريك الخان الذي تنازلت عنه الحاجة عدلة لكي تحافظ على البيت الكبير».

كانت تريد أن تشعرني بالذنب إذن، لكي أتورط معهم أكثر في قصة لكنز.

سألتُ سَفانة: «من أين تأتي الحاجة بهذه القوة؟».

تذكرت أن أمي أيضًا قوية. يبدو لي أن سَفانة أيضًا قوية. صحيح أن الحاجة تفوقهما قوة، كما هو واضح، لكن القوة في نساء الموصل بدت لي صفةً تميزهن عن غيرهن.

ردت سَفانة بعد أن سرحت قليلًا: «نحن لا ننتبه لهذا. خالد كان يقول لي ذلك أيضًا لأنه من خارج الموصل وانتبه لهذه الملاحظة. كانت له نظريته الخاصة عن الأمر. لا عن نساء الموصل فقط، بل عن صفات أخرى في المجتمع الموصلي بشكل عام».

المرحوم ليس مثقفًا فقط، بل له نظريات. أمسكت بنفسي متلبسًا بالغيرة.

- أي نظرية؟

- قال خالد إن العثمانيين، في القرون الخمسة التي قضوها في الموصل، عسكروا المجتمع الموصلي. طبقوا في الموصل قانون الإقطاع العسكري، أي كانوا يوزعون الأراضي الزراعية على من يتطوع للخدمة في الجيش العثماني. ليس الحديث عن تجنيد إجباريٍّ وسفربر[1]، بل عن تطوع في الجيش ومراتب وقيادات. لم يطبق القانون في كل مكان، لا في العراق ولا في سواه، لأن طبيعة الأراضي الزراعية في الموصل وقربها من المدينة واعتمادها على المطر سهلت ذلك. وهكذا تعسكر المجتمع بالتدريج. خمسة قرون من ذلك لا بد أن تؤثر على المجتمع؛ تجعل الانضباط والجدية، وحتى ثقل الدم في رأي البعض، أمرًا طبيعيًّا.

- نعم، هذا قد يفسر الانضباط والجدية، لكن يخيل لي أن المرأة في الموصل، قد تكون أقوى من الرجل؟

(1) سفربر أو سفربرلك: التجنيد الإلزامي أيام العثمانيين.

ضحكت وتورد خداها كما لو كنت تغزلت بها.

- إياك أن تقول هذا ليحيى، ولأي كان. لكن هذا طبيعي، الرجال يذهبون للحرب في البلقان والقوقاز واليونان؛ النساء عليهن أن يتحملن كل المسؤوليات. يكنَّ الأم والأب والرجل والمرأة. وهكذا. أصبح الأمر جزءًا من... ماذا كانت الكلمة؟ كان خالد -الله يرحمه- يستعملها كثيرًا. نعم، جزءًا من العقل الجمعي في الموصل.

- الله يرحمه.

كلامه منطقي.

***

مررنا على جسر على دجلة. قالت سَفانة إن اسمه الجسر العتيق، ثم قالت شيئًا عن تاريخ إنشائه.

الجسر العتيق؟ لا بد من المرور على الجسور العتيقة للوصول إلى الحقيقة على ما يبدو.

نظرت إلى دجلة. كان مرتفعًا يجري بهيبة، يكاد يلمس سطحه الجسر.

تذكرت ما قالته أليكسا عن أن النبي جرجيس ذري جثمانه في دجلة.

تراه أخذ جزءًا من هيبته من جرجيس؟

لا أدري لماذا أحسست أن الحاجة عدلة تشبه الموصل.

وأن الموصل بدورها تشبه دجلة؛ احتوى على كل شيء، بما فيه جرجيس، القائم من الموت ثلاث مرات.

ليليان

في اللحظة التي دخلوا فيها المقهى، خمنت أن ثمة سرًّا كبيرًا تخفيه سَفانة. سر يخص ابنتها.

اتفقنا على اللقاء في مادو، كافيه في الفاميلي مول. كنت قد أعددت الوكالة منذ يومين وأخبرتها أني سأرسلها إليها عن طريق شركة توصيل. لكنها قالت إنها ستأتي إلى دهوك في عمل ما ويمكن أن نلتقي وأسلمها الوكالة خلال ذلك.

لم يكن لي أن أرفض، لكني لم أكن راغبةً حقًّا في اللقاء؛ لم يندمل الجرح ولن يشفى أبدًا، لكني لا أريد الحديث عنه لها ولا لأي أحد. أعرف تمامًا أن سَفانة لا علاقة لها بما حدث، وأعرف الآن أنها ضحية مثلي، لكني لا أستطيع أن أتخطى ما حدث؛ لا أستطيع أن أنسى أي شيء. لا أستطيع أن أنسى أني رأيت بعد شهرٍ خال سَفانة، الدكتور ناثر، في فيديو انتشر على الفيسبوك وهو يجلس في حديقة منزله ويقول إن ما حدث للنصارى كان حكم الله الذي يجب أن يُطبَّق فيهم منذ أكثر من ألف سنة. هذه الحديقة كنت فيها أكثر من مرة في عيد ميلاد ابنته لمى التي كانت صديقتي في الابتدائية، قبل أن أتعرف على سَفانة بسنوات، وقبل أن تصبح أقرب صديقات عمري. كنا أهلًا. هل حقًّا كنا أهلًا؟ هل يفعل الأهل هذا ببعضهم؟

لم أكن أريد أن أتذكر أي شيء عن كل هذا، كما لو أني قد نسيت شيئًا أصلًا مما كان، لكن لا أريد الحديث عن ذلك؛ لا أريد أن أنبش كل ما في قلبي. قلبي الذي نفد رصيده من الحنان والحب والتعاطف وأي شيء آخر. نفد رصيدي كلي -لا قلبي فقط- من التحمل.

وبينما هي تخبرني أنها ستأتي إلى دهوك، قالت لي: «فرصة، نستعيد الأيام الخوالي».

أردت أن أصرخ بها؛ لا أريد أن أستعيد شيئًا؛ كل الذكريات الحلوة أصبحت مرة عصية على التحلية مهما حاولت، ولن أحاول. لا أريد أن أستعيد الأيام الخوالي أو أن أتذكر لأن ذلك يشبه أن أعيش من جديد تلك الليلة التي أخرجونا فيها من الموصل. الخوالي بالنسبة إليَّ تعني بيتي الذي أصبح خاليًا بعد أن خرجنا منه، مثل قلبي الذي أصبح خاليًا من كل مشاعر تجاه الموصل.

لم أصرخ بها، وافقت محرجةً وأنا أحمل هم اللقاء. كان واضحًا لي أنها لم تفهم بعد. نعم، مرت بحدث مزلزل عندما قتلوا زوجها، لكنهم لم يقتلوه بسبب ديانته، بل غالبًا بسبب وظيفته. ما حدث لنا كان مختلفًا؛ لقد أخرجونا فقط لأننا مسيحيون.

هل كان يمكن أن أرفض بعد أن عرفت أنها أسمت ابنتها على اسمي؟ الاسم مسيحي في الموصل. لا بد أن ذلك سبب لها مشكلةً أو إحراجًا على الأقل. لا أشك أنها لا تزال تحبني، لكن، لا شيء يمكنه أن يصلح كسْر قلبي. لو نصبوا لي تمثالًا في الموصل، سأبقى مكسورة القلب محطمته.

أرسلت إليَّ بعدها رسالة تستأذنني أنها ستـأتي بابنتها وابن خالها معها. بماذا كان يمكن أن أرد؟ كيف يمكن لي أن أشرح لها أني أحمل هم لقائها هي شخصيًّا؟ فكيف بلقاء ابن خالها! لا بد أنه يحيى الكريه. لم تكن علاقتهما قوية، ما الذي غير الأمور بينهما؟

عندما دخلت سَفانة المقهى قلت لنفسي وأنا أقف لتحيتهم: «هذا ليس يحيى. وهذه ابنتها؟ هل يعقل أن تكون هذه ابنتها؟».

اندفعت سَفانة لتحتضنني وعلى وجهها ابتسامة كبيرة. لم أستطع منعها، ولكن لم أستطع أن أرد على اندفاعها باندفاع مماثل. احتضنتها طبعًا. لكنها كانت تحتضنني بشدة، أما أنا فقد كنت أضعف من أن أفعل ذلك.

قالت لي: «هذا صهيب، ابن خالي، ابن خالي نائل».

قالت «ابن خالي نائل» بطريقة معينة لكي تذكرني بمن يكون.

هو ابن فائزة نقاش إذن. ما فعلته كان فضيحةً وقتها، ولا يزال.

إذا كنتم ستصالحونهم في النهاية، أما كان من الأول؟ ولماذا أخرجتمونا إذن إذا كنتم ستصالحونهم!

رحبت به بتحفظ. هل يفترض أن أكون أكثر وديةً معه لأن أمه مسيحية؟

ثم قالت: «وهذه ليليان الصغيرة».

اختبأت الفتاة خلف سَفانة. كيف يمكن أن تكون هذه الفتاة البيضاء فاتحة العينين ابنة سَفانة؟ هذه يمكن أن تكون ابنتي أنا. لكن سَفانة؟ كانت معقدةً منذ البداية بسبب لون بشرتها؛ كانت حنطية أقرب إلى السمرة، لكنها كانت تعتبر نفسها سوداء وتتندر بسخرية على نفسها خالد كان أغمق منها، هل هناك طفرة جينية يمكن أن تنتج طفلةً بهذ البياض من زوجين أسمرين؟ عليَّ أن أسأل فادي عن ذلك. أو جوجل ربما

سألت سَفانة عن رغيد وفادي وبسام؛ قلت أخبارهم باختصار: رغيد افتتح ورشة. فادي أكمل تخصص بورد جراحة الأطفال ويعمل في

أربيل، خطب وسيتزوج قريبًا. بسام تخرج في طب الأسنان ويعمل في مركز صحي في دوميز[1].

قاطعتني: «في دوميز! بسام يعمل في الموصل! كيف لم يخبرني ولم يتصل بي؟».

كنت أريد أن أقول لها إنه لا يطيق البقاء ساعة واحدة بعد انتهاء ساعات عمله في الموصل. عوضًا عن ذلك، اكتفيت بأن أقول إنه قدم أكثر من طلب للانتقال إلى خارج الموصل.

سألتني ببساطة: «لماذا؟ ليس مرتاحًا في المركز؟».

كفى. هذا يكفي.

قلت بحدة: «لا. ليس مرتاحًا في الموصل كلها يا سَفانة، لأنه لن ينسى أبدًا ما حدث في تلك الليلة».

تغيرت ملامح سَفانة فجأةً كما لو أنها فهمت الآن كل شيء. لم تقل شيئًا.

أما صهيب فقد أدار رأسه بيني وبينها؛ كان من الواضح أنه لا يعرف.

قال صهيب: «عفوًا؟ عن أي ليلة تتحدثان؟».

نظرت إليَّ سَفانة ثم التفتت إلى صهيب.

- ليليان مسيحية. تصورت أنك فهمت ذلك من الاسم. هُجِّرت مع كل المسيحيين الذين هجرتهم داعش من الموصل بعد سيطرتها على المدينة.

بدا صهيب مرتبكًا وقال شيئًا كما لو أنه يتأسف لي عما مررت به.

وجدت نفسي فجأةً أسرد له كل شيءٍ كنت أتمنى ألا أتحدث عنه أو أخوض فيه. انطلقت أتحدث عن التفاصيل الجارحة المؤلمة: ثوب النوم

(1) دوميز: حي سكني في الساحل الأيسر من الموصل. انتشر هذا الاسم للحي بسبب إنشائه من قبل شركة فرنسية تحمل الاسم نفسه في ثمانينيات القرن العشرين.

الذي كنت فيه، الإهانات لرغيد، خاتم الزواج، محاضرات فادي وكتاب الكيمياء، الرجل العجوز الذي ينادي أمه، الماسيرات، الطفل المصروع.

قلت كل شيء في جملة واحدة متصلة دون أن أسكت لحظةً واحدةً كما لو كانت التفاصيل تقف مثل كيس قيح أسفل حلقي. كيس يريد أن ينفجر في أول فرصة. أول فرصة في اللقاء مع أهل الموصل الذين تجنبتهم كل هذه السنوات.

كنت أتحدث وعيني مصوبة على صهيب. بالتدريج تغيرت ملامحه، لونه أصبح أحمر مثل الدم. لم أعرف بالضبط إن كان غاضبًا أم مصدومًا أم محرجًا. هل لم يكن يعرف ما جرى للمسيحيين، أهل والدته، أم كنا مجرد خبر مر عليه ضمن الأخبار ونسيه كما تُنسَى كل الأخبار غير المهمة؟

فجأة انتبهت للنادل يقترب من طاولتنا ويسألنا إن كان كل شيء بخير. كان يوجه كلامه إلى سَفانة التي كانت تجلس جنبي ولم أنتبه لما كان يحدث معها. التفتُّ إليها ووجدت وجهها قد تغير تمامًا. كان وجهها جنازةً؛ عيناها محتقنتان من أثر البكاء؛ ساح الكحل على وجهها ويبدو أنها حاولت مسحه فتلطخ كل وجهها به وبدا كما لو كانت قد خرجت من حريق ترك سخامه على وجهها. شفتاها ترتعشان كما تفعل دومًا عندما تبكي أو تغضب.

كانت ابنتها تبكي أيضًا وتحتضنها.

قدم لها صهيب منديلًا بينما جمِّدت أنا لثوانٍ؛ كنت أريد أن أستوعب ما حدث. لم أرَ سَفانة يومًا هكذا. لم أر أحدًا هكذا. وجدت نفسي أحتضنها وأربت كتفها. بحذر أولًا، ثم بقوة. كانت تهمس في أذني بكلمات غير واضحة بسبب بكائها، لكني ميزت كلمات اعتذار وخجل.

كانت الدموع قد جفت عندي منذ زمن بعيد، لكن تبين أنه كانت هناك دمعة واحدة فقط. دمعة يتيمة بقيت تنتظر صديقة العمر لكي تنزل من عيني على خدها.

الدمعة غيرت شيئًا في داخلي. لا أعرف إن كانت قد نزلت على ما حدث لي، أم ما حدث لسَفانة، أم لنا معًا، أم على ما حدث للموصل!

كان الجالسون في المقهى ينظرون إلينا، محرجين ربما أكثر منا.

هدأت سَفانة قليلًا واستأذنت للذهاب إلى التواليت. ابنتها كانت ملتصقةً بها على نحو لا يناسب حجمها.

ساد الصمت بيني وبين صهيب، ثم تذكرت أن بيننا مصاهرة.

- شقيق زوجي، متزوج بشذى ابنة خالتك وداد.

سكت كما لو أنه يحاول أن يربط ما قلت. فكرت في أنه ربما لا يعرف أن له خالةً اسمها وداد.

سألته: «هل تعرف خالتك وداد؟».

ارتبك.

- نعم، بالاسم فقط. العلاقات رجعت، ولكن لأننا في أمريكا لم تكن هناك معرفة شخصية بهم. أمي لا تزال تتواصل معها على ما أعتقد.

- هذا غير ممكن.

تفاجأ من ردي.

- لماذا غير ممكن؟

- لأنها توفيت من عشرين عامًا. ابنتها شذى في السويد منذ 2008. أغلب المسيحيين خرجوا في تلك الفترة. كانوا صيدًا سهلًا للجماعات الإرهابية. من بقي منهم -مثلنا- خرج في 2014.

كان من الواضح أن عودة العلاقات كانت رسميةً جدًّا.

قال: «الله يرحمها».

ثم تذكرت.

- عمة والدتك، الست ثامرة، كانت مديرتي في الثانوية. قوية ومحترمة جدًّا.

- الله يرحمها أيضًا؟

- نعم، من زمان.

عادت سَفانة. غسلت وجهها وأزالت آثار الكحل. ابنتها ملتصقة بها. ربتُّ شعر ليليان. سألتها: «في أي صف أنتِ يا ليليان؟».

لم ترد، بل أخفت وجهها خلف أمها.

ردت سَفانة: «في الصف الرابع».

- ما شاء الله. طويلة على عمرها. كم عمرها الآن؟

- عشر سنوات. ميلادها بعد ميلادك بيومين فقط. برجها السرطان مثل برجك.

حسبت الأشهر في ذهني فورًا.

تذكرت ما قالته الدكتورة افتخار الياور عندما ذهبت مع سَفانة إليها. رحلة العلاج طويلة ولن يحدث الحمل إلا بعد صبر وتأنٍّ. كان ذلك قبل أقل من أسبوع من تهجيرنا.

- هل قلتِ لي إنهم اعتقلوا خالد بعد أسبوع من... من... خروجنا؟

- ستة أيام بالضبط. لكن لم نعرف أنهم أعدموه إلا بعد أشهر.

فهمت.

لم أكن بحاجة إلى أن أسأل فادي أو جوجل عن الطفرة الجينية؛ هذه ليست ابنة سَفانة.

يونس بن متى

لا بد أني فقدت الوعي؛ لا يمكن أن أكون قد نمت.

أو، ربما كنت قد مت.

ربما أنا ميت الآن.

فجأة وجدت نفسي في مكان مظلم. مظلم وضيق، لكن ليس مثل القبر؛ ما يحيط بي ليس صلبًا كما يتوقع للقبر أن يكون. لكن، لو كنت مت في البحر، فمن دفنني في قبر أصلًا؟

لست بعيدًا عن البحر؛ لا أزال أسمع صوته.

وهناك صوت آخر متكرر، مرتفع ومهيب، لا أعرف ماذا يكون، صادر من عمق المكان الذي أنا فيه. كما لو كان المكان نفسه يتنفس. كما لو الوجود كله قد تقلص إلى هذا الحيز الذي أنا فيه.

هل هذا هو الموت؟

هل بدأت حياتي الأخرى؟

ماذا سيحدث الآن؟

هل سيبدأ حسابي؟

هكذا ظننت.

جلست في الظلمة، أحاسب نفسي قبل أن يبدأ حسابي.

لا بد أنه سيبدأ عما قريب.

استعدت بذاكرتي كل ما مررت به في حياتي. كنت مقصرًا بلا شك، لكني حاولت دومًا أن أكون صالحًا، أعبد الله وأطيع أوامره ووصاياه، أحاول أن أجعل كل من حولي ملتزمًا بالوصايا. كنت بارًّا بوالدي. لم أزنِ، لم أسرق، لم أكذب. على الأقل لا أذكر أني كذبت.

لم أظلم أحدًا، أنا واثق بهذا؛ تجنبت ذلك منذ أن وعيت معنى الظلم.

ثم جاء الملاك بأمر الذهاب إلى نينوى.

لا بد أنه هذا الذي سأحاسب عليه حسابًا عسيرًا.

ما إن وصلت في حسابي إلى أمر الذهاب إلى نينوى حتى ارتجَّ المكان كله ووجدت نفسي أتدحرج في المكان الضيق الذي كنت فيه.

هل هذه إشارة؟

نعم، لا بد أنها إشارة.

أعرف ذلك قطعًا.

كل شيء وصلت إليه الآن بدأ معي من اللحظة التي ضعفت فيها عن الذهاب إلى نينوى.

في تلك اللحظة، فُتِحت كوة كبيرة في أعلى المكان؛ تدفق النور.

زاد اتساع الكوة بالتدريج.

رأيت الشمس من الفتحة.

ثم سمعت صوتًا مرتفعًا هزَّ المكان هزًّا.

وأغلقت الكوة. بالتدريج أيضًا.

بقيت للحظات أحاول فهم ما حدث.

تحسست المكان حولي كمن يحاول البحث عن تأكيد على ما وصل إليه فهمي.

لحظات وفُتِحت الكوة من جديد. هذه المرة تدفق الماء. ماء البحر المالح، وتدفقت معها سمكات صغيرة، بعضها كان لا يزال حيًّا يصارع للبقاء.

تأكدت الآن.

لم أمت، ليس بعد.

أنا حي.

في بطن الحوت.

سَفانة

خرجت من مكتب مهند وأنا محبطة.

ما زال يؤجل الموافقة على الدخول إلى البيت الكبير. تحدثت مع أكثر من شخص ممن تصورت أنهم يمكنهم التأثير عليه. لا ردَّ إيجابي حتى الآن.

الحاجة عدلة تمارس ضغوطها عليَّ هي الأخرى. متى. متى. ماذا حدث. هل من جديد. تسأل أكثر من عشر مرات في اليوم. طلبت مني أن أذهب إليها بعد عودتي من المكتب.

سألتها: «يا عمة، لماذا نربط الأمر بصهيب؟ يستطيع أن يسافر وعندما نذهب ونأخذ ما يجب أن نأخذه من البيت نحول حصته إليه بالتدريج».

قالت فورًا: «سنحتاج إلى صهيب؛ سيكون الرجل الوحيد معنا».

- ماذا تقصدين؟

- سيكون الرجل الوحيد معنا، وسنحتاج إلى مقدرته الجسدية؛ أنا لن أستطيع المساعدة.

هل هو ثقيل إلى هذه الدرجة؟ حاولت تخيل وزن الصندوق.

- هل هو ثقيل إلى هذه الدرجة يا عمة؟

نظرت إليَّ كما لو كانت تنظر إلى بلهاء.

- المشكلة ليست في الحمل يا سَفانة!

- في ماذا إذن؟

- في الحفر!

صحيح. معها حق.

لكن!

- كيف الرجل الوحيد؟ وماذا عن يحيى؟

نظرت إليَّ نظرتها الحاسمة.

- لن يكون معنا.

- عمة! ماذا تقولين؟

- ما سمعتِه. ولا أريد كثرة كلام.

- المعذرة منكِ يا عمة. ولكن كيف؟ كيف نتجاوز يحيى؟ ماذا بدر منه؟

- لم يبدر منه أي شيء. هذا لمصلحته.

- لماذا أخبرتِه بالأمر إذن؟

بدا عليها الغضب لأنها لم تتعود مني التشكيك في شيء مما تطلبه أو تقوله.

- قلت لكِ لم يبدر منه شيء، وهو لن يكون معنا لمصلحته فقط.

فكرت: «كيف يمكن لمصلحته أن تتعارض مع وجوده معنا في إخراج الكنز».

- حسنًا. من سيكون؟ أنا وأنتِ وصهيب فقط؟

- وأسماء.

أسماء!

- أيُّ أسماء؟

- هل أصابكِ شيء؟ يفترض أن أكون أنا من أفقد الذاكرة وليس أنتِ. نعم أسماء. كم أسماء في العائلة؟ مغتو[1] ليحيى. تحبيز أقول أسماء أولادهما حتى تتأكدي أني في كامل وعيي.

والله فكرة.

- لا، العفو يا عمة، لم يكن قصدي. لكن ما الفكرة في أن تكوز أسماء موجودةً ويحيى ليس معنا؟

سحبت نفسًا عميقًا كما لو أنها تقول: «الصبر يا رب».

- تعغفين؟[2] أمك -الله يرحمها- معها حق؛ كانت تقول إنكِ نقناقية[3] وما تنجرعين[4].

نعم، نقناقية وما أنجرع، ضمن قائمة طويلة من الصفات. أتمنى ألا تذكرها الآن الحاجة عدلة.

سكتُّ وأنا لا أزال أفكر فيما يمكن أن يكون في رأس الحاجة.

- إذن، هذا الموظف لا يزال يعرقل الأمر؟

- نعم، للأسف. لكني واثقة أني سأجد له الحل.

صمتت الحاجة وبدا أنها تحاول أن تتذكر شيئًا.

- ماذا كان اسم الموظف إياه في المحكمة؟

- أيُّ موظف؟

«إياه». قالتها وأشارت برأسها.

---

(1) مغتو: مرتو، زوجته.

(2) تعغفين: تعرفين.

(3) نقناقية: كثيرة النق والتذمر.

(4) ما تنجرعين: لا تطاقين.

- من تقصدين؟
- الموظف الفاسد المرتشي الذي استعنت به قبل عشر سنوات يا سَفانة. لا تلعبي دور البلهاء عليَّ. أنا عدلة.
- نعم، أبو نادية. ماذا عنه؟

عرفت من تقصد فورًا. من كلمة «إياه»، قبل إشارة الرأس.

- هل لا يزال موجودًا؟

أمثاله موجودون دومًا. هو تحديدًا يتفوق على أمثاله؛ كان قبل داعش وفي أثناء داعش وبعد داعش. تتغير الوجوه والشعارات، يتغير المحافظ ووزير العدل والسلطة الحاكمة بأكملها، وأبو نادية يبقى يلعب على كل الحبال؛ يأخذ من الخصوم جميعًا بحيث يكون هو الرابح الأكبر. قبل أن تسيطر داعش رسميًّا على الموصل، كانت تسيطر على المحاكم والشرطة؛ أي شخص منها يلقَى القبض عليه. كانت أموره ترتَّب بحيث تحال أوراقه إلى القاضي المناسب بحيث يخرج براءةً أو كفالةً يهرب بعدها أو بعقوبة مخففة جدًّا. الكثير من القضاة والمحققين تم قتلهم للوصول إلى هذه المرحلة. أي قاضٍ أو محامٍ يحاول الشكوى أو إيصال المعلومات إلى السلطات المختصة، كان يتعرض للكثير: يختَطَف ابنه أو يقتل هو شخصيًّا، يستيقظ صباحًا ويركب سيارته وما إن يحاول تشغيلها حتى تنفجر وتتناثر أشلاؤه. عشرات العاملين في السلك القضائي والعدلي تعرضوا لهذا قبل أن تسيطر داعش فعليًّا على الموصل، وكانت الحكومة جزءًا من منظومة الفساد هذه. وأبو نادية تحديدًا كان جزءًا منها؛ كان يسرب عناوين المحامين والقضاة والمحققين لداعش. وعندما طُرِدت داعش أصبح يسرب معلومات المتعاونين منها إلى الحكومة. رجل كل العصور.

لم أقل كل ذلك للحاجة، قلت لها فقط إنه موجود.

- يجب أن تتصلي به وتسأليه عن أي معلومة يعرفها عن هذا الموظف الذي يعرقل دخولنا إلى البيت.

- أي معلومة؟ ماذا تقصدين؟

قالت بوضوح دون أن ترمش: «أقصد معلومةً نستطيع أن نبتزه بها: تعاون سابق مع داعش، أخ أو قريب له كان منهم ولم يحاسبه أحد. هذه الأمور».

لهذه الدرجة؟

- يا عمة، الموضوع لا يستحق. أنا واثقة بأننا سنجد طريقةً أنسب وأهدأ لدخول البيت بَدل أبي نادية، مشكلاته كثيرة أبو نادية وقد يشك في سبب محاولتنا التأثير على مهند.

- أريد أن أنهي هذا الموضوع قبل أن أموت يا سَفانة. فلننتهِ منه بسرعة.

- الله يعطيك طول العمر يا عمة، لا تقولي هذا.

نظرت إليَّ هازئةً.

- أعطاني طول العمر وزيادة. لا تضحكي عليَّ.

معها حق.

لم أعلق بشيء.

وقفت مستندة على عصاها كأنها تقول لي أن أنصرف.

- إن لم تتصلي به، أرسلي إليَّ رقمه، أنا سأتصل به. أو أجعل يحيى يسأل عنه في المحكمة.

ورقة (دعيني أقوم بالأمر)، مع ورقة (يحيى). ورقتان تستخدمهما عدلة معنا نحن الاثنين: أنا ويحيى. ورقة يحيى معي وورقة سَفانة مع يحيى، كلما رأت منا تشكيكًا في طلب منها أو تقاعسًا في تنفيذه.

- لا يا عمة. لا داعي لذلك، سأتصل به.

صهيب

«سبع ساعات هي فرق التوقيت بين الموصل وفرجينيا في الساحل الشرقي من الولايات المتحدة».

هكذا أجبت سينثيا عندما طلبت أن نقوم بإجراء مكالمة فيديو.

أجابتني: «أي وقت يناسبك إذن؟».

كنت أتمنى أن أتهرب من ذلك. قلت إني سأبحث في جدولي عن وقت مناسب ويناسب وقتها وفرق التوقيت في آن واحد.

كانت الساعة تقريبًا الثالثة ظهرًا في الموصل، أي السابعة صباحًا بتوقيت سينثيا، واليوم هو الأحد.

أدركت أني وقعت في الفخ.

قالت: «الآن مناسب لي».

قبل أن أرد، كانت تتصل.

وبالخطأ، بدلًا من أن ألغي المكالمة، قبلتها.

كنت مستلقيًا في سريري بعد غداء دسم في مطعم (الكرم والفارس). القلية والشيخ محشي والقوزي على الكص[1] تفسر لي كمية الكروش

---

(1) الكص: لحم مقصوص مثل الشاورما.

التي أراها في الموصل. وكنت أحاول أن أسترد أنفاسي من معركة الغداء على السرير عندما جاء الاتصال من سينثيا.

عدلت من وضعي وأشعلت المصباح المنضدي.

كانت سينثيا ترتدي ملابس رياضة، لا بد أنها كانت تجري كعادتها كل أحد.

- أين أنت؟ كان يفترض أن تعود قبل عشرة أيام.

- نعم. لقد تحدثت مع الـ HR وطلبت إجازة إضافية. لديَّ رصيد يسمح بذلك.

- نعم، دوروثي أخبرتني. غريب أنك لم تقل لي شيئًا عن هذا.

- نعم، لم أرد إشغالك.

في الحقيقة لم يخطر الأمر ببالي أصلًا. سينثيا كلها لم تخطر ببالي. خرجنا في موعدين قبل سفري ويبدو أنها تأملت أكثر من ذلك. كان يمكن أن يكون هناك أكثر من ذلك لولا سفري.

- ما الذي يحدث معك؟ هل ثمة مشكلات؟ هل اختطفتك داعش؟

قررت ألا أعلق على ما قالته.

- لا، لا، أبدًا. أمور عائلية لا أكثر.

- عائلية؟ لم تخبرني أن لديك عائلةً في العراق.

- لديَّ أقارب، لكنني لم أكن أعرفهم من قبل. تعرفت عليهم الآن في هذه الرحلة.

- وهل لديك ابنة عم عمرها 15 عامًا يريدون منك أن تتزوجها وتأتي بها إلى أمريكا؟

قالتها هازئةً. قررت ألا أفوت الأمر.

- في الحقيقة ابنة عمي أصغر مني بقليل، وهي محامية ناجحة في الموصل. أرملة ولديها طفلة جميلة جدًّا مصابة بالتوحد.

تغيرت ملامحها. لم أفوت الأمر إذن.

- وكيف هي الجِمال؟

- الجِمال؟!

«ألا تتنقلون بالجِمال هناك؟ في العاصمة السابقة لداعش؟». قالتها بسخرية أكثر استفزازًا.

- هذا مضحك أن يأتي منكِ تحديدًا.

- مني تحديدًا؟ ماذا تقصد؟

- أنتِ من هاويل[1]، مدينة الريد نكس[2] التي كانت عاصمة الكوكلوكس كلان[3].

- ouch.

أنت من بدأت.

- جمال؟ تسألين عن الجمال؟ لمعلوماتك، عندما كان جدك يحلم بأن يمتلك عربة يجرها حصان على وشك الموت، كان جدي يونس باشا آل يونس لديه سيارة وسائق خاص.

- لا أصدق أنك تتحدث الآن عن الكو كلوكس كلان؟ تتحدث عن شيء قبل مئة سنة؟

---

(1) هاويل: مدينة هاويل في ولاية مشيغان.

(2) الريد نكس: الأعناق الحمراء، لفظ يوصف به الريفيون البيض الفقراء في الولايات المتحدة، حيث يتحول لون أعناقهم إلى الأحمر من كثرة التعرض إلى الشمس.

(3) Ku Klux klan: الكو كلوكس كلان جماعة بيضاء متطرفة كانت تقوم بقتل السود وحرقهم حتى ثلاثينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة.

- فرق توقيت لا أكثر.

- لكني كنت أمزح!

- أنا أيضًا كنت أمزح.

في الحقيقة لم أكن.

انتهت المكالمة على هذا.

استغربت ما فعلته. قلت ما قلته دون تفكير عميق. لا أعرف كيف أخرجت معلومة أن هاويل، المدينة التي ولدت وكبرت فيها سينثيا، كانت لفترة ما عاصمة الكوكلوكس كلان، وأن المدينة فيها الكثير من الريد نكس.

في الحقيقة، وجدت نفسي نادمًا.

كان يجب أن أقول المزيد.

كان عليَّ أن أقول لها أيضًا إنهم وايت تراش white trash [1]. هلبليز hillbillies[2]

جدي يونس باشا؟

هل قلت لها جدي يونس باشا فعلًا!

قبضت على نفسي متلبسًا بهذا الشعور بالتكبر. لأول مرة أقولها هكذا. سمعت صوت الحاجة تتحدث في ذهني. قلتها في نفسي كما لو كانت عدلة هي التي تتحدث.

---

(1) القمامة البيضاء: تعبير تحقيري يوصف به الفقراء البيض في الريف، وغالبًا ما يشمل وصفهم بأنهم كسالى أو خارجون عن القانون؛ يعيشون على الهامش وعالة على المجتمع.

(2) الهلبليز: تعبير غالبًا يستعمل للانتقاص من البيض الفقراء ساكني المرتفعات.

في حياتي لم أفخر بأسرتي أو بجدي. لم أعرفهم أصلًا، ولم أكن أعرف أن جدي أو جد أبي كان (باشا). لم أفخر يومًا بشهادة أبي أو أمي؛ أخذت الأمور كلها على أنها استحقاقات يبذل المرء جهدًا كبيرًا ليحصل عليها. وهذا كان عليَّ أن أفعله.

كان أبي يملك ما يكفي من الاعتداد بنفسه ما يجعله ينأى بنفسه عن ذكر عائلته أو أبيه أو جده. كنت أعتقد في طفولتي أنه كان يكرههم. الآن لديَّ انطباع أنه ربما لم يكن يكرههم تمامًا؛ كانت علاقته بهم أقرب إلى الحب والكراهية في الوقت ذاته. يشبههم جدًّا في الطباع والأخلاق. العناد نفسه. الأنفة نفسها. عزة النفس نفسها. الرأي الصواب نفسه الذي لا يقبل الخطأ.

كان مثلهم جدًّا، وربما لذلك اصطدم بهم. لم يقل يومًا: «أنا من آل يونس»، على الأقل ليس أمامي، لكن كل تصرفاته، كما أفهمها الآن، كانت تقول ذلك.

حتى انتقامه المهين منهم، كان بطريقة ما، مدفوعًا بشعور متضخم بذاته. بأنه من آل يونس. ليس منهم فقط، بل هو آل يونس. ليس لأي أحد الحق أن يرفض ما يقوله، حتى لو كانوا آل يونس مجتمعين كلهم.

لكن كيف نبع في داخلي فجأةً هذا الشعور؟ شعور أني من آل يونس. هذا الشعور بالتكبر الذي جعلني أقول لسينثيا «جدي يونس باشا» بهذه الطريقة.

هل يمكن لهذا الشعور أن ينتقل عبر الجينات؟ هل يمكن للجينات أن تنقل هذا الشعور بالتكبر وتبقى كامنةً طيلة هذه السنوات، ثم فجأةً تظهر على السطح عند أول استفزاز، وتجعلني أقول: «جدي يونس باشا».

لا يمكن.

غالبًا كان هذا من جرعة مكثفة من (آل يونس) تلقيتها منذ أن وصلت إلى الموصل. تخيلت أن ذروتها كانت مع الحاجة عدلة وهي تشرح لي عن صور آل يونس، لكن في الواقع أن الجو كله مشبع بهذا الشعور الذي يبدو أني كنت مهيَّأً لاستقباله، كما لو أني قضيت حياتي أنتظر أن أشعر بشيء كهذا. شيء حضَّرني والداي له ثم نسيا أن يمنحاه لي. شيء لم أعرف حاجتي إليه. لكن ربما كل مشكلاتي مع نفسي كانت ناتجةً من فقداني له. انتماء؟ هوية؟ جذور؟ كل هذا دفعة واحدة أم أن هذه كلها أسماء لشيء واحد. شيء كنت أفتقده دون أن أعرفه!

فرق التوقيت ليس سبع ساعات فقط. كنت واهمًا.

ليس بين الموصل وفرجينيا على الساحل الشرقي للولايات المتحدة.

ولا بيني وبين سينثيا.

بل بيني وبين ذلك الشخص الذي كنته إلى أن وصلت إلى هنا.

فرق التوقيت كان أعقد من أن يقاس بأي وحدة زمنية مفهومة.

قبل أسبوعين فقط كان يمكن أن أعتبر ما قالته سينثيا عن الجمال مجرد مزحة. مزحة ثقيلة وسخيفة. مجرد كليشيه. ستريوتايب يتداوله الغربيون عن العرب. ربما كنت سأضحك مجاملةً، وأنزعج قليلًا في داخلي من الانتقاص الذي سأشعر أنه موجه إلى والديَّ. ليس إليَّ.

اليوم (جدي يونس باشا). يا ريد نكس، يا كوكلوكس كلان، يا وايت تراش، هيللي بلي.

لا أعرف. هل كنت في بطن الحوت طيلة حياتي؟

أم أني دخلته الآن؟

أردت أن أغير ما أفكر فيه.

- أليكسا، ما علاقة جامع النبي جرجيس بحركة هدم المراقد في التاريخ؟

- جامع النبي جرجيس هدمته حركة داعش في الموصل عام 2014 في أثناء فترة سيطرتها على المدينة.

- أعرف ذلك. لكن ما علاقة الجامع تاريخيًّا بهذا الأمر؟ شيء حدث قبل مئتي سنة مثلًا أو أكثر.

- صحيح. أنا آسفة، هناك علاقة. في منتصف القرن الثامن عشر قام شيخ اسمه أحمد بن الكوله بالدعوة إلى هدم المراقد، وتحديدًا جامع النبي جرجيس، لكن دعوته هذه قوبلت بهجوم شعبي كبير. ثار عليه الناس وطرده الوالي حسين باشا الجليلي إلى بغداد. حسب بعض الوثائق، هذا الشيخ كان له طلبة علم جاؤوا يدرسون على يديه من مختلف البلدان، وتأثروا بدعوته وأخذوها معهم إلى هناك، ولم تمضِ سنوات حتى تمكن هؤلاء الطلبة من نشر دعوتهم في أماكن أخرى.

تخيلت ما حدث: طردهم الناس، ثم عادوا كغربان سود بعد ثلاثة قرون.

ليتمُّوا مهمَّتَم التي لم تتم وقتها.

تذكرت النبي جرجيس وقيامته المتجددة من الموت.

***

في مصعد الفندق تأملت صورة معلقة لمنارة المسجد النوري[1] الكبير. المنارة الحدباء، المائلة قليلًا إلى الشرق، مثل برج بيزا. المنارة التي تم تفجيرها قبل تحرير المدينة من داعش.

في البداية كنت أرى الأمر من ناحية هندسية بحتة؛ اتجاه الريح، تفاوت مواد البناء.

ثم علمت أن هناك من يقول إن البنائين الأوائل للمنارة تعمدوا ذلك كيلا يجعلوها في وجه الرياح القادمة عادة من الغرب.

وحتى تكون الخسائر أقل لو سقطت شرقًا، لأن منازل السكان كانت أكثر غربًا.

الآن صرت أرى هذا الميَلان تعبيرًا عن المدينة. أن تميل قليلًا في وجه الريح كيلا تكسرك الريح.

أن تحتوي الأمور. تحسبها بدقة، كي تكون خسارتك أقل.

كما لو أن كل موصليٍّ يجعل عموده الفقري مثل تلك المنارة، لو وقف منتصبًا لانكسر.

ولو مال قليلًا، قليلًا جدًّا، لنجا.

---

(1) المسجد النوري او المسجد الكبير هو المسجد الذي بناه نور الدين زنكي في القرن السادس الهجري، وتميز المسجد بمنارته الحدباء الشهيرة.

يحيى

كنت على وشك النوم عندما قررت أسماء أن تصدمني بخبر لقائها غفران ووالدتها في مقهى في الزهور.

كانت أسماء تضع على وجهها قناعًا أخضر اللون صنعته من القرنبيط الأبيض. لم تبقِ خضرةً أو فاكهةً إلا وجربتها في العناية بالبشرة. حتى الموز والكيوي الذي أستغلي سعره على الأكل تضعه هي على وجهها. عدا عشرات المساحيق الجاهزة ذات العلامات العالمية. لو حصلنا على حصتي من الكنز الدفين، فإن أسماء يمكن أن تنفقها كلها على هذا الهراء.

- تقصدين أنكِ التقيتهما مصادفةً في المقهى؟
- لا. التقيتهما بعد أن اتفقنا على اللقاء. جنيد رتب الأمر.

يا للهول.

- اتفقتم على اللقاء في مقهى؟ لماذا؟
- أين كنت تفضل أن نلتقي إذن؟ في بيتهم؟
- هل الموضوع هو مكان اللقاء؟
- ماذا إذن؟

أسماء تضع قناعين على وجهها: قناع القرنبيط الأخضر وقناع التغابي الذي تتقنه أكثر من أي شيء آخر.

- انزعي قناع القرنبيط وتحدثي معي.
- اسمه البروكلي يا يحيى.
- شيلي الخ** وكلميني.
- لو عرفت كم كلفني لما طلبت مني أن أزيله بعد دقائق من وضعه.
- كم كلفك؟
- خمسون ألف دينار، ويجب أن يبقى على الأقل لمدة ساعة.

خمسون ألف دينار؟ فليبقَ على وجهها لأسبوع إذن.

- لماذا اتفقتِ على اللقاء؟ هذا قد يُفهَم منه أننا موافقون وسنخطب غفران لجنيد.

سحبت أسماء نفسًا عميقًا كان يجب أن أكون أنا من يسحبه.

- سمعت من جنيد أن والد غفران ينوي مغادرة الموصل والعودة إلى الناصرية.

هذا أجمل خبر سمعته منذ أن كشفت الحاجة عن موضوع الكنز.

- عظيم، الحمد لله، سننتهي من هذا الموضوع إذن. لماذا تلتقين والدتها إذن؟ هل كنتِ تودعينها؟

قالت لي من تحت قناع القرنبيط الأخضر: «لا، لأن جنيد يقول إنه سيقدم على نقلٍ إلى جامعة بغداد أو الناصرية في حالة ذهبت غفران مع أهلها».

هكذا يتحول الخبر المفرح إلى كارثة. آمل ألا يحدث الشيء ذاته مع كنز آل يونس.

- واحدة من اثنتين: إما أن يكون قد جُنَّ وإما أنهم سحروا له.
- هناك احتمال ثالث.

- ما هو إن شاء الله؟

- أن يكون قد ورث العاطفة من أمه. هذا الشيء الذي ورثته من عائلة أبي حصرًا، لأنه مفقود عند آل يونس؛ لا أمي ولا أنت ولا أي أحد منكم لديه رائحة عاطفة.

- هذا يندرج ضمن الاحتمال الأول نفسه: أن يكون قد جُنَّ. ورث الجنون منكِ.

- المهم، ابنك يحبها. هل تريد أن يتزوجها هنا في الموصل أم يذهب معها إلى بغداد أو الناصرية؟

نحتويها ونحتضنها أم نفقده؟

- هناك احتمال ثالث، أن يصرف نظره عن الأمر ويكتشف بنفسه أنها غير مناسبة. لا يزالان في السنة الثانية من الكلية، سينساها.

- لا تحاول. ورث العاطفة مني والعناد منكم.

- حتى لو سافر إلى لندن؟

- أنت تلعب بالنار. غفران غالبًا ستتمسك به أكثر لو عرفت موضوع لندن هذا.

ثم نظرت إليَّ وغيرت من صوتها.

- أو عرفت بموضوع الكنز.

- كيف ستعرف؟

- حبيب القلب يخبرها. هل قلت له شيئًا؟

- طبعًا لا. وأنتِ؟

ضحكت.

- أنا لا أصدق أنكم صدقتم موضوع الكنز أصلًا. لن أجعل نفسي أضحوكةً أمام أولادي أو أمام أي أحد. اطمئن من هذه الناحية.

وددت لو أن تسكت بأي طريقة.

- اتركي الموضوع أنتِ ولا تنحسيه لأن...

قاطعني اتصال على الهاتف.

سَفانة؟ في هذه الساعة؟ لن يكون خبرًا جيدًا.

- سَفانة! هل حدث شيء؟

- لا، لا تقلق، الحاجة بخير. آسفة، ولكن الموضوع مهم.

- خيرًا. ما هو؟

سكتت كما لو كانت تفكر.

- أفضل أن نلتقي.

- الآن؟

نظرت إلى الساعة، كانت تجاوزت الحادية عشرة.

- أنا عند الباب.

لا بد أنه أمر خطير؛ لم تنتظر حتى الصباح.

- أكيد، أهلًا وسهلًا، سأفتح الباب.

قمت من فراشي فورًا. قلت لأسماء: «سَفانة على الباب، لا بد أن هناك شيئًا مهمًّا».

قامت معي وهي تهم بأن تمسح قناع القرنبيط الأخضر عن وجهها.

- بخمسين ألف وتزيلينه قبل الساعة؟ لا داعيَ سأقول لها إنكِ نائمة.

***

ما أخبرتني به سَفانة كان صادمًا.

الحاجة طلبت منها أن تتواصل مع شخص ما لكي تجد ما يمكن به ابتزاز الموظف الذي يعرقل الدخول إلى البيت الكبير.

فكرت فورًا في أن هذا علامة أخرى على أن الكنز موجود فعلًا، وأن الحاجة عدلة واثقة تمامًا من ذلك وأنها بكامل قواها العقلية بحيث تخطط لذلك.

- لماذا الآن؟ لماذا تريد الحاجة عدلة فعل ذلك بهذه السرعة؟ وجود صهيب ليس تبريرًا كافيًا؛ يمكنه أن يسافر ونقوم بتحويل حصته، إن كانت له حصة أصلًا.

- ماذا تقصد بـ «إن كانت له حصة»؟! على العموم هذا ما قلته للحاجة عدلة أيضًا، لكنها قالت إنها تريد أن تنهي هذا الأمر قبل أن تموت.

- تستطيع أن تخبرنا أين هو الكنز لكي نستطيع إخراجه فيما لو -لا سمح الله- توفيت.

- لكنها قالت بوضوح إنها كتبت ذلك في ورقة ووضعتها في خزنة. هي تريد أن ينتهي ذلك بوجودها وأمام عينها.

فكرت قليلًا.

- هل تتواصل الحاجة مع أحد غيرنا حسب علمك؟

- تقصد بهذا الخصوص؟ بالتأكيد لا. لماذا تسأل؟

- لقد سمعت أنهم ربما بدؤوا الحفر فعلًا في البيت الكبير. إذا كان هناك من يوصل الأخبار إليها فربما هذا سبب استعجالها في هذا التوقيت.

أطرقت سَفانة كما لو أنها تحاول أن تتذكر من يمكن أن يكون قد أخبر الحاجة.

- ربما الجارات من البيت الكبير؛ زرنها قبل أكثر من أسبوع.

- لا، معدات الحفر أدخلت قبل يومين أو ثلاثة ليس أكثر. شيء آخر يبدو توقيته غريبًا الآن: الحاجة طلبت مني أن أستخرج شهادة وفاة لخالي ناثر.

توترت سَفانة فورًا.

- كيف تستخرج شهادة وفاة له؟ أنا أسير في الإجراءات منذ فترة، وهي تتطلب وقتًا بسبب عدم وجود جثة.

كيف أشرح لها؟

- شهادة وفاة مضروبة يا سَفانة. إجراءاتك هي الأصل.

- بماذا تنفع شهادة وفاة مضروبة؟ شهادات الوفاة الآن تكون فيها باركود ولا يمكن استخدامها في الدوائر دون الباركود أو صحة الصدور. هل أخبرتها بذلك؟

- أخبرتها والله. قالت لي إن لم أقم بذلك ستخبرك أنت!

هزت سَفانة رأسها كما لو أن الجملة مرت عليها أيضًا.

- على العموم، كل هذا ليس ما جعلني آتي في هذه الساعة المتأخرة.

نظرت إليها مستفهمًا.

- أبو نادية أرسل إليَّ بالفعل شيئًا. طلب ألفي دولار مقابله.

أخرجت هاتفها وشغلت فيلمًا مصورًا. مجموعة من مقاتلي داعش وهم يهتفون ويكبرون، أمامهم مجموعة جثث مرمية على الأرض. يتحدث واحد منهم عن تطبيق حكم الله في المرتدين ثم يتحدث آخر وهو يهدد ويتوعد كل المرتدين، يخاطبهم في الفيديو: سنأتيكم واحدًا واحدًا، والدولة باقية وتتمدد.

مجرد مشاهدتهم مجددًا أثارت الغثيان في داخلي. أتمنى لو كان يمكن أن تزال فترتهم السوداء من كل ذاكرتي.

- الشخص الثاني، باقية وتتمدد.

- ما باله؟

- يقول أبو نادية إنه ابن مهند، الموظف الذي يعرقل دخولنا إلى البيت.

أعطتني هاتفها لتريني صورة هوية أحوال مدنية. فراس مهند دهَّام الشرَّاد.

الصورة للشخص في الفيديو بلا شك.

ثم صورة أخرى للبطاقة المدنية الموحدة الحديثة. الشخص نفسه، ولكنه كبر.

- ابنه كان في داعش وهو موظف الآن في منصب مدير عام؟! لم أعد أتعجب من أي شيء.

- ليس فقط هذا. الفكرة أنه زوَّر مستندات ودفع رشًا لكيلا ينتبه أحد إلى أنه ابنه الذي في الفيديو، بل شخص آخر قُتِل في التحرير. لو كان لم يفعل ذلك لربما كان الأمر لا ابتزاز فيه. ربما حوكم ابنه ونفذ الحكم وكان مخففًا لأنه قاصر أو أي شيء، لكنه قام بالتزوير لحماية ابنه من القانون. هل تصدق أن هذا الحقير عندما ذهبت إليه برفقة صهيب كان يعايرني بأن خالو ناثر كان مؤيدًا لداعش؟ لولاه لما عرف صهيب بالأمر.

- صهيب علم بالأمر! وماذا كان رد فعله؟

- دراما أولًا. خاف جدًّا، وسمعتي وعملي ومنصبي والأف بي آي والسي آي أي. ثم هدأ وتقبل الأمر.

طلبت منها أن تريني الهوية مجددًا.

- مواليد 2000؟ أليس كبيرًا أن يكون ابنًا لمهند؟ كم عمر مهند تقريبًا؟

- كان في دفعتي؛ ربما في عمري أو أكبر قليلًا. لكن تعرف أنهم في مناطقهم يتزوجون مبكرًا.

هززت برأسي متجنبًا أي كلمة بخصوص (مناطقهم). سَفانة حساسة جدًّا من هذا الأمر، ولو قلتها أنا لقطبت جبينها.

أكملت سَفانة: «الذي متأكدة منه أن ابنه الأكبر اسمه فراس فعلًا. دخلت إلى صفحته على الفيس بوك. لا توجد صورة لأولاده، لكنهم في التعليقات يسمونه (أبو فراس)».

- إذن، غالبًا الأمر صحيح.

هزت رأسها موافقة.

حاولت الآن أن ألم الموضوع الذي تشعب كثيرًا.

- أبو نادية طلب ألفي دولار مقابل الفيديو؟

- نعم.

- هل حاولت معه؟

- حاولت ماذا؟

- أن يقلل السعر.

رفعت حاجبيها مستغربةً كما لو أنها تقول «هل هذا وقته؟». كل النساء مبذرات. أفهم أن تكون أسماء مبذرةً لأنها لا تتعب في الحصول على المال، لكن سَفانة يُفترض أن تكون أكثر حرصًا.

- لا. قال هذا آخر سعر.

- بالتأكيد يمكن تقليل السعر. وعليكِ الآن أن تستخدمي هذا الفيديو من أجل جعل مهند يسمح لنا بدخول البيت الكبير.

«لا، ليس عليَّ. علينا، أنا وأنت». قالتها بإصرار وتحدٍّ.

لا أريد أن أتورط في الأمر؛ هذا تهديد لموظف بمنصب مدير عام في الدولة. لا أحد يمكنه أن يعرف عواقب الأمر.

لم أقل لها ذلك طبعًا.

- لكني لم أقدم الطلب معك. لو كنا قدمناه معًا، لكان طبيعيًّا أن أكون معك. لكن هذا الشخص لا يعرفني أصلًا. أكون معك بصفة ماذا؟

نظرت إليَّ بسخرية واضحة.

- لا تقلق، سأعرفك عليه. عمومًا، لم آتِ إليك في هذه الساعة لكي أخبرك بالأمر فقط. لن أذهب إلى مهند وحدي لأهدده. أم تريد أن آخذ الحاجة عدلة معي؟

ورقة الحاجة عدلة.

- وصهيب؟ لم لا يأتي صهيب معك؟ هو أمريكي ولن يجرؤ أحد على التعرض له.

زمَّت شفتيها بعصبية.

- لأنه أمريكي، ليست لديه أدنى فكرة عن هذه الأمور، وقد يجزع ويقيم الدراما مجددًا.

كنت محرجًا من الرفض ومترددًا في القبول.

- لن أذهب وحدي يا يحيى. لن تترك ابنة عمتك تذهب وحدها. الأمر يهمنا جميعًا وأعتقد أن حصتك أكبر من حصتي.

فكرت: «الأمر يستحق المخاطرة».

سألتها: «متى؟».

مهند

عندما دخل يحيى مع سَفانة إلى مكتبي تذكرت المثل «الكبر على أهل الكبر صدقة».

ترحمت على من قال المثل وتمنيت لو أني تصدقت أكثر بأن أتركهما ينتظران أكثر عند السكرتيرة.

دخل كالطاووس. المشية المتبخترة نفسها التي كان يمشيها في الجامعة. لا أدري على ماذا. سبحان من جمع فيه التكبر وثقل الدم! لو وزع ثقل دمه على كل أهل الموصل لجعلهم أثقل أهل الأرض. مجرد رؤيته تشبه أن تأخذ حقنة في العضلة من شخص لم يتدرب على الأمر ولم يشاهدها حتى على اليوتيوب. تذكرت أنهم كانوا يسمونه (حقنة تمشي على الأرض) أيام الجامعة. صدقوا والله.

حتى لو كنت أنوي أن أدع طلب سَفانة بدخول بيت آل يونس يأخذ مجراه الطبيعي مع موافقة المحافظ على الأمر، الآن، مع جلبها ليحيى معها، سأكون أكثر تعنتًا وأضع عراقيلَ أكثر. أي شيء جعلها تأخذ هذه الخطوة الغبية؟ حسبتها أكثر ذكاءً من ذلك.

تظاهرت أني لم أعرفه.

قالت سَفانة وهي تشير إليه: «ابن خالي. المهندس يحيى زكريا آل يونس».

يقولون آل يونس دومًا بطريقة معينة، كما لو أنهم يضعون تحتها ألف خط. من يظنون أنفسهم؟ بيت عبد الجليل؟![1] آل يونس كذبوا الكذبة وصدقوها.

قررت أن أزعجه.

- معقول؟ لم أعرفه والله. أذكرك أيام الجامعة. لكنك تغيرت كثيرًا، كبرت وعجزت وزاد وزنك كثيرًا؛ لو رأيتك في الشارع لما عرفتك.

كنت أكذب طبعًا. لولا بعض الشيب لما بدا عليه أي تغير. لا يزال بطلته وهيأته نفسها. أنا أبدو أكبر منه بعشر سنوات على الأقل مما أكبره فعلًا، لكنني كنت أعرف أن هذا الكلام يضايق نوعيته من البشر.

تبادل يحيى وسَفانة النظرات.

قالت سَفانة شيئًا عامًّا عن أن العمر له حقه، وأننا نكبر جميعًا.

سكت يحيى لثوانٍ وقال: «فترة داعش وحدها كبرتنا عشر سنوات على الأقل».

أيدته: «بالتأكيد. كل أهل الموصل كبروا عشر سنوات على الأقل. لكنكم يا آل يونس ربما كبرتم أكثر؛ موضوع الدكتور ناثر كان مؤلمًا لكم بالتأكيد».

ناثر، المنطقة الرخوة عند آل يونس. نقطة ضعفهم إلى يوم يبعثون.

نظر إليَّ يحيى نظرةً حادةً مع ابتسامة منتصرة لم أفهمها.

يفترض أن يكون على وجهه أي شيء إلا هذه الابتسامة.

---

(1) بيت عبد الجليل: آل الجليلي، أسرة موصلية من أعرق عوائل الموصل، كان ولاة الموصل منها حصرًا لفترة تزيد على القرن، للفترة بين 1726 م إلى 1834 م، وفي تلك الفترة تمكنت الموصل من الصمود بوجه حصار نادر شاه بقيادة حسين باشا الجليلي الذي عُيِّن واليًا أيضًا على عدة ولايات عثمانية أخرى، من ضمنها ولاية حلب وقارص وطرابزون وأضنة وكوتاهية.

- خالي ناثر غاح[1] لدار حقه، ولم يحمل سلاحًا.

ثم قال شيئًا لم أكن أتخيل أني سأسمعه بعد كل هذه السنوات: «الله يعين من انضم ولد من أولاده إلى داعش وحمل السلاح معهم».

اسودت الدنيا في وجهي بعد هذه الجملة.

ربما قلت «آمين» أو «نعم» أو لم أقل شيئًا، لا أعرف. لا يمكن أن يكون يحيى قد قال ما قاله مصادفةً. أو ربما كانت مصادفةً. جملة قالها دون أن يقصدني.

ثم أجهز عليَّ.

- اشونو[2] فراس؟ إن شاء الله مليح[3]؟ إن شاء الله عقل وترك (هذيك[4] الشغلات).

جاءا ليهدداني إذن. لا تفسير غير ذلك.

أخرج هاتفه، ضغط على أزراره ثم مده إليَّ.

لم أنظر إلى شاشة الهاتف؛ أدركت ما سيكون عليها. سمعت الأصوات. ثم سمعت صوت فراس، وسمعت صوت قلبي وهو يدق مثل طبل مجنون.

- كوي[5] يشبهك كثيغ. الله يحميه. بالجامعة الآن أم تخرج؟

نظرت إليه وهو ينظر إليَّ منتصرًا. الآن أصبح كالطاوس بالفعل. طاوس حقير وحاقد.

---

(1) غاح: راح بلهجة أهل الموصل.

(2) اشونو: كيف هو.

(3) مليح: جيد، بخير بلهجة أهل الموصل.

(4) هذيك: تلك.

(5) كوي: كلمة تأكيد بلهجة أهل الموصل.

- ماذا تريدان؟

قلتها وأنا مستعد للتفاوض كقائد رفع رايته البيضاء، وليست لديه أوراق كثيرة ليتفاوض عليها.

قالت سَفانة: «أستاذ مهند، تعرف جيدًا ماذا نريد».

- إن كان الهدف هو البيت وإزالة موضوع الوقف منه فهذا الأمر ليس بيدي وأنتما تعرفان ذلك بالتأكيد. الموضوع أكبر مني بكثير.

أجابت سَفانة فورًا: «لا. موضوع الوقف نواجهه قضائيًّا وليس ما جئنا من أجله. لدينا موافقة من السيد المحافظ على طلب الدخول بقدر تعلق الأمر به. لا نريد شيئًا أكثر من أن تترك توقيعك بالموافقة ضمن صلاحياتك تمامًا. الطلب رسمي والموافقة رسمية والسيد المحافظ وقع بنفسه».

أكمل يحيى: «لدينا شيء مدفون في البيت. شيء يعود للعائلة ومن حقها تمامًا. نريد أن نخرجه من البيت».

كنت متأكدًا أن ثمة شيئًا كهذا في طلبهم، لم يكن عندي شك. كنت أرغب أن تقود مماطلتي لهم إلى أن يكشفوا لي الأمر، وربما تكون لي حصة في الذي يريدون إخراجه من البيت. لعن الله الطمع! لو وافقت منذ البداية لما وصلوا إلى هذا الفيديو.

قالت سَفانة: «لدينا ما نخفيه ولديك ما تخفيه. نُخرِج ما نريده ويبقى ما تريد إخفاءه دفينًا. وكان الله يحب المحسنين».

- وما أدراني أن هذا الفيديو لن يُستَخدم في موضوع آخر؟

نظر إليَّ يحيى باستغراب.

- عيب. كلمتنا كلمة. نحن لن نستخدم الأمر أبدًا. لكن لعلمك، سعر الفيديو وصور الهويات لم يتجاوز ألفي دولار. من دون عملة[1]. إن كان هناك من يمكن أن يستخدم الفيديو فليس نحن، بل من باعنا إياه.

ألفا دولار؟! يا لرخص حياتك يا فراس! يا لرخصي! كل ما فعلته طيلة هذه السنوات لأحميك- سعره ليس أكثر من ألفي دولار، دون عملة.

- أريد بضعة أيام لترتيب الأمر؛ لا يمكن أن أمنحكم موافقةً هكذا دون مراجعة الشؤون القانونية.

- الدكتور صهيب يريد أن يسافر يا أستاذ مهند.

قاطعها يحيى: «غدًا مساءً هو آخر موعد أستاذ. وندخل البيت بأدوات الحفر معنا. والحرس على البيت يغادرون لمدة ثلاث ساعات على الأقل. وبموافقة خطية مكتوبة منك. بخطك».

ثم أكمل: «والله يحمي لك فراس».

أطرقت ولم أرد.

أعطاني بطاقة العمل الخاصة به وقال: «أنتظر ردك، مكتوبًا بخطك ومصورًا. ترسله إليَّ على الواتس».

قبل أن يخرجا، التفت يحيى وقال لي: «هل تريد نسخةً من الفيديو؟».

لم أرد عليه.

***

كنت أعرف أني لن أستطيع أن أغامر برفض طلبهما.

لا يحتمل أمر فراس هذه المغامرة.

---

(1) عملة: مساومة لتخفيض السعر.

يمكن لي أن أوذي يحيى بطرق عديدة أو أهدده بذلك على الأقل، لكن لا يمكن لي أن أغامر بفراس.

لا واسطة أو رشوة أو محسوبية يمكنها أن تنقذه. أو تنقذني من التزوير الذي ارتكبته لأنقذه.

ظهر في الفيديو وهو يحمل السلاح وأمامه جثث. من الصعب جدًّا التهرب من هذا الدليل الدامغ.

سيحصل على سبع سنوات، بناءً على عمره في تلك الفترة، إن لم يكن أكثر.

أنا يمكن أن أحصل على الحكم المؤبد؛ تستُّر على إرهابي وتزوير في أوراق.

كيف توهمت في السنوات الماضية أن الأمر انتهى فعلًا؟

دفعت مبالغَ لتزوير مستندات ووثائق ودسها ليبدو أن من ظهر في الفيديو ليس فراس، بل شخصًا آخر قُتل لاحقًا.

ومبالغ أخرى لحذف الفيديو من أي موقع أو شبكة ظهر عليه.

لسنوات سار الأمر على نحو يوحي أن تلك الأشهر السوداء قد انقضت إلى غير رجعة.

أراه أحيانًا في كوابيسي، وأراه في أحيان أخرى كلما ظهر من فراس سلوك طائش.

لم أنسه تمامًا. لكن تناسيته. تركته على رف مهجور، عسى أن يعلوه الغبار ويغطي عليه حتى لا يراه أحد.

تلك الأشهر السوداء أكلت من قلبي شغافه ولبه.

بدأت بدورة إرشاد أقامتها داعش في المسجد المجاور.

قلت ستكون مثل دورات تحفيظ القرآن التي تقيمها المساجد في الصيف. أحسن من أن يقضيها في المنزل دون فائدة.

كان فراس منطويًا على نفسه خجولًا. دخل المراهقة دون أن أشعر به. دون حوادث وقصص. لا سجائر لا بنات لا مشكلات.

ثم جاءت داعش، فصرت أتمنى لو أنه راهق كما كل المراهقين. المراهقة التي يشتكي منها عادةً الأهل: الطيش والإهمال والركض خلف التجارب. داعش أوجدت له صحبة. جعلته يشعر بأهميته، بعد أن كان منطويًا خجولًا يخشى الظهور أمام الناس. جعلته يعتقد أنه على صواب لأن الله معه، وكل الباقين على خطأ لأنهم ليسوا مع الله. تغير كثيرًا خلال أيام. أيام فقط. ارتدى الزي الأفغاني ومع الزي تغيرت كل مصطلحاته ومفرداته. كما لو أنه قام بتحميل برنامج جديد في دماغه. حاولت أن أوقفه، لكني كنت أرى أولًا أنه على الأقل خرج من خجله وانطوائيته، وكنت أعتقد أن في ذلك إيجابيةً. توقعت أن الأمر سيقف عند هذا، لكن داعش ابتلعته مثل سمكة صغيرة دخلت بطن حوت ولم تعد تعرف كيف تخرج منه. لم يعد الكلام معه ومحاولة تهدئته أو إيقافه يجدي. على العكس، أصبح يرد عليَّ ويتهمني بالضلال والفسوق ووصل الأمر إلى الردة. أبلغ عن عمه معاذ لأنه يدخن السجائر، وتم حبس عمه لأسبوع بالفعل. وعندما التحق بمعسكر تدريبيٍّ على السلاح عرفت أنني سأفقده إلى الأبد.

أخبرته كاذبًا أن والدته أصيبت بذبحة صدرية وتريد مشاهدته ولو لساعة. صدق وجاء. كتفناه أنا وإخوتي. شددنا وثاقه وحبسناه وأبلغنا عن فقدان الاتصال به بعد أسبوع. بقيَ محبوسًا قرابة العامين. بقينا تحت القصف في البيت في أثناء معركة التحرير، ولم نخرجه إلا بعد أن انتهى كل شيء.

لم أكن أعرف أنه شارك في معركة في ربيعة.

ولم أكن أعرف أن هناك فيديو.

لم ينتشر وقت داعش.

لكن الجنود وجدوه في هاتف أحد قتلى الدواعش، وشاهده أحد المحققين في الأمن الوطني ممن يعرفونني ونبهني إليه.

عرفت عندها أننا دخلنا في دوامة أخذتنا جميعًا إلى بطن الحوت.

وفعلت كل شيء لأخرجه.

توهمت أني نجحت.

إلى أن دخل يحيى. حقنة في العضل تمشي على قدمين.

حين كنت أكرهه قبل اليوم، منذ أن رأيته أول مرة في حياتي، لم أعتقد أنه سيكون هناك سبب وجيه جدًّا لكراهيتي له غير مشاعري الشخصية تجاهه.

سأكتب له ما يريد. بخطي.

لكن هذا ليس كل شيء.

يجب أن أتخذ احتياطات.

سَفانة

كان يومًا طويلًا حافلًا.

ابتدأ برسالة من يحيى يقول إن مهند أرسل إليه الموافقة مكتوبة، وإنه رتب الأمر، حيث يغادر الحارس المكلف بحراسة المكان نوبته في الثامنة مساءً دون أن يأتي بديل له.

كنت معجبةً جدًّا بأداء يحيى ولم أخبره بذلك أمس، لذا أرسلت إليه رسالةً صوتيةً أقول له فيها إنه لولا موقفه وكلامه الواضح المباشر مع مهند لما وصلنا إلى هذا.

شكرني وقال إنه يجب أن يُحضِر عدةً مناسبةً للحفر وكشافات ضوئية قوية لاحتمالية أن تكون الكهرباء مقطوعة في أثناء دخولنا للبيت.

بدا لي كأنه يعتقد أنه سيكون في البيت معنا.

لم يعرف بعد بالأمر، ولن أكون أنا من يبلغه بذلك.

بعد قليل اتصلت بي إديتا، خادمة الحاجة عدلة وهي تبكي ولم أفهم شيئًا من كلامها سوى «مات مات».

صرخت: «عمة عدلة!».

- لا، لا، ماما، أما أدلة إز فاين. لوز مات ماما.

لوز!

لا أقلل أبدًا من أهمية لوز؛ أحبه كثيرًا وأصبح جزءًا من العائلة.

ولكن ألف لوز يموت أمام سلامة الحاجة عدلة.

- أشلوني ماما عدلة؟

- ماما أدلة ساد ماما سفانة. يبكي. كراينج.

تبكي؟ لم تبكِ على ابنها، ستبكي على لوز!

- يا أديتا. ماما عدلة تبكي بدموع؟

- لا، لا، ماما. حزين بس. تقول رح يموت ماما عدلة.

هذا معقول أكثر.

أخبرتها أني سأمر عليها قبل أن أذهب إلى المحكمة.

كل هذا قبل أن تأتي السيارة التي تقل ليليان إلى مدرستها.

بينما أنا أودعها على الباب، التفتت إليَّ واحتضنتني ثم قالت شيئًا في منتهى الغرابة.

- ماما، هل ستتزوجين بعمو صهيب؟

آخر ما أنتظره منها.

خصوصًا هذا اليوم.

- ماذا تقولين؟ أتزوج عمو صهيب؟ لماذا تقولين ذلك؟

همست في أذني كما لو أنها خجلة ولا تريد أن يسمعها أحد، ولم يكن هناك أحد أصلًا: «لأن عيونك تصبح فيها قلوب حمراء عندما ترينه».

يا للهول!

قالت ذلك فعلًا.

ثم استدارت وذهبت إلى السيارة.

هذا إذن سبب تصرفاتها معه؛ تعتقد أني سأتزوجه ويأخذني منها.

عيوني فيها قلوب حمراء؟!

هل رأت ذلك!

هل هناك قلوب حمراء فعلًا في عيني عندما أراه؟

أربكتني ملاحظتها للغاية. قالتها وذهبت وتركتني أفكر.

هل أحب صهيب فعلًا دون أن أعي ذلك؟

هل أنا معجبة به؟

حتى هذه لم أواجه نفسي بها من قبل. لم أنتبه إلى أني معجبة به. لكني، غالبًا، وربما دون وعي، كنت معجبةً به قبل أن أراه أصلًا. هو ابن خالي الذي كان يجب أن أتزوجه لو لم يتزوج خالي بوالدة صهيب. طبعًا ما كان صهيب سيولد لو تزوج والده بأخرى. سيكون شخصًا آخر... لكن...

وقفت أمام المرآة وفكرت في صهيب، ولم أجد قلوبًا حمراء في عيني.

لكن كلام ليليان بقي في ذهني.

ذهبت إلى الحاجة عدلة قبل أن أتوجه إلى المحكمة التي كان أمامي فيها أربع قضايا، واحدةٌ منها لم أتفرغ لدراستها جيدًا.

كانت الحاجة منهكةً فعلًا أكثر منها حزينة. مستلقية على سريرها وخلف رأسها عدد كبير من الوسائد.

قالت لي فور أن رأتني أدخل عليها: «لوز غاح[1] يا سَفانة. لوز غاح».

واسيتها بكلمات عامة. كنت على وشك أن أترحم عليه. وربما ترحمت فعلًا دون أن أنتبه. لوز عشرة عمر مع الحاجة؛ بقي 14 سنة معها، وسبقته أمه (ريحانة)، عاشت أكثر من ذلك، ربما سبع عشرة سنة. وقبل ريحانة كان هناك (جلجامش) الذي كان موجودًا منذ أن وعيت.

---

(1) غاح: راح، مات.

«سأفتقده جدًّا؛ كان الوحيد الذي يفهمني منكم جميعًا». قالتها بمنتهى الجدية. الوحيد منكم. كما لو كان ضمن الأحفاد. لكن هذا أفضل مما لو قالت ذلك عن يحيى مثلًا. لوز خارج المنافسة.

شكرًا يا حاجة.

- جربي أن تحكي معي يا عمة. لن أكون مثل لوز، ولكن... ربما.

أمسكتُ بيدها وربتُّها.

- يومي قريب يا سَفانة. أبي مات في اليوم نفسه الذي مات فيه فهد.

القط فهد الذي تقول الأسطورة إنه عاش عشرين عامًا.

ولكن بالتأكيد. فهد أصيب بطلق ناريٍّ أصلًا. مع والدها.

- كلنا نذهب في يومنا المحدد عمة. كله قدر ومكتوب. حرام التشاؤم.

لم تعجبها الإجابة. كان يجب أن أقول لها أجوبتي المعتادة: بعيد الشر، الله يطول عمرك، لا تقولي هكذا عمة. إلخ.

وكانت سترد عليَّ بردودها المعتادة أيضًا. طويل أكثر من هكذا؟ طولة العمغ ما تنغاد. إلخ.

اعتدلت كما لو أن إجابتي استفزتها.

- لوز كان مريضًا من يومين ولم يكن يأكل أصلًا.

نعم، إذن يومك لا يشترط أن يكون قريبًا.

- لكني متعبة؛ لم أنم أمس، لم يغمض لي جفن.

- حصلنا على الموافقة بالدخول يا عمة اطمئني.

هزت رأسها كما لو أنها تستنكر تصوري أني لا أعلم ذلك.

- نعم، يحيى جاءني أمس ليلًا وقال لي ذلك.

إذن الموافقة جاءته منذ أمس. لم يخبرني.

- ممَّ أنتِ قلقة يا عمة؟ هل تعتقدين أن أحدهم يمكن أن يكون قد استدل على مكان الكنز ووصل إليه؟

هزت رأسها مستبعدة الفكرة.

- ممَّ إذن قلقك؟ أن تكوني لستِ متأكدةً من الموقع؟

نظرت إليَّ نظرةً كما لو أنها تقول: «كيف تجرئين؟».

- اخرجي يا سَفانة. أنسى دومًا ما تقوله أمك عنك. هذا هو الشيء الوحيد الذي أنساه. لوز كان سيفهم ما أقول دون هذه الأسئلة.

ضحكت وحضنتها.

- عسل والله يا عمة. أخبريني حبيبتي، ممَّ أنت قلقة؟

سكتت وبدا على وجهها أنها تريد أن تقول شيئًا.

- في الحقيقة لست قلقةً. أنا أكثر من ذلك.

- ماذا تقصدين؟ لا تقولي لي إنك خائفة!

هزت رأسها موافقة. كان ثمة انكسار في عينها.

ما الذي يحدث في الدنيا؟ هل هذه من علامات الساعة؟ الحاجة عدلة خائفة؟ لكنها لا تستطيع حتى أن تقول الكلمة. لعلها أصلًا لا تعرف هذا الشعور وتستنتج أنه خوف. هل كل هذا بسبب لوز؟

احتضنتها مجددًا.

- ما الأمر يا جميل يا عسل؟ ما الذي يجعلكِ تشعرين بهذا الآن؟

- عادي يعني. كما يخاف كل إنسان من اقتراب حسابه.

إذن هي فعلًا تفكر في اقتراب موتها.

- يا حاجة صلي على النبي. أنت مصلية وصائمة وعاملة خير كثيغ والموصل كلها تشهد لكِ.

نظرت إليَّ نظرةً حزينةً أحسست فيها أنها لا تصدق ما أقول.

- الله يسامحني ويغفر لي. كل ما فعلته كنت مضطرةً له.

هل تقصد من قتلتهم أيام الشواف أم جبروتها اليومي العادي أم شيئًا آخر لا أعرفه؟ لم أعد أفهم.

- ما دمتِ كنتِ مضطرةً، سيسامحك الله.

قالت بوهن: «آمين».

- ارتاحي الآن يا عمة؛ سيكون يومًا طويلًا صعبًا.

قالت بصوت خافت: «التسهيل من الله».

ثم بصوت أقوى: «عديني أن تكوني قويةً».

أردت أن أسالها: «متى؟ اليوم عندما ندخل البيت أم عندما -لا سمح الله- تموتين؟».

لم أسالها بطبيعة الحال.

قالت بصوت آمر: «عديني».

فوعدتها.

سأكون قوية.

لا أعرف في ماذا، لكن سأكون قوية.

***

عندما أكملت مرافعتي الأخيرة، وجدت ثلاثة اتصالات فائتة من يحيى.

اتصلت به وأنا أعود إلى سيارتي.

- هل الحاجة بخير؟ اتصلتِ بي وقلقت عليها.

- لوز مات وتعرف كم تحبه الحاجة. أعتقد أنها متشائمة من ذلك. عدا هذا، لا يبدو لي أنها في وضع خطر أو مقلق؛ تعصبت عليَّ

وطردتني عندما لم يعجبها شيء قلته، كالمعتاد يعني. ماذا قالت لك؟

- الحاجة طلبت مني طلبًا أقلقني جدًّا. اتصلت بأسماء أن تذهب لكي تكون معها.

- ماذا طلبت؟

سكتُّ لثوانٍ.

- طلبت أن أحفر قبرها اليوم.

صوته كان مختنقًا.

- اليوم؟ اليوم تحديدًا؟

- وهددتني بألا تذهب إلى البيت الكبير إن لم أرسل لها صورةً للقبر وقد اكتمل حفره.

مؤكد أنها هددته أيضًا أن توكل الأمر لي إن لم يفعل.

- وحددت المكان أيضًا. موقع غريب جدًّا.

- ماذا تقصد؟ أليس في مقابرنا في وادي عكاب؟ مع الكل؟

- نعم، لكن في مكان منعزل عن الجميع. في الزاوية القصوى قرب (الحوطة)[1].

بدا لي الأمر غريبًا جدًّا. هل ترغب في أن تكون بعيدةً حقًّا عن والدها الذي تعبده تقريبًا؟ عن شقيقتها عارفة؟ تذكرت ما قالته صباحًا عن اضطرارها لفعل شيء تخاف من حسابه.

- أعتقد أن عليك أن تفعل ما قالته لك الآن. هي منفعلة الآن ربما بسبب دخولنا اليوم للبيت الكبير أو لوز أو شعورها بأنها اقتربت

(1) الحوطة: السياج المنخفض الذي يحيط بمجموعة قبور تعود لعائلة واحدة.

من تحقيق ما كانت تريد تحقيقه. يمكننا أن نفهم منها لاحقًا ما قصة الموقع قرب الحوطة!

- هذا ما سأفعله طبعًا. أنا في طريقي الآن إلى وادي عكاب.

تراه يعرف أنها لا تريده أن يكون معنا؟

- هل عرفت من سيكون معنا في البيت الكبير؟

قلت «معنا»، كيلا يشك أني أعرف.

أجاب بصوت طبيعيٍّ جدًّا: «فقط أنتِ ويحيى وأسماء، والحاجة طبعًا. قالت لي إن عليَّ أن أكون بعيدًا كي أتصرف فيما لو حدث شيء».

أقنعته بسهولة. لكني لا أفهم لماذا لا تريده معنا.

- سألت الحاجة إذا كنا نحتاج إلى معدات كهربائية للحفر، أقصد إذا كان هناك بلاط فوق المكان، قالت لي فقط «مسحاة»[1] وربما «فأس». أي أن الأرض المدفون فيها الكنز ترابية. أين يمكن أن يكون هذا في البيت الكبير؟

- هناك جزء من السرداب الشمالي أرضيته ترابية. السرداب تحت المطبخ كان مبلطًا تمامًا. هناك أيضًا مناطق متفرقة في الحوش، لكنها مزروعة بأشجار كما تعلم. لا أذكر مكانًا آخر الآن.

ثم أخبرته بأن يأخذ قسطًا من الراحة بعد أن ينهي حفر القبر، ويرسل صورته إلى الحاجة.

لا يزال اليوم الطويل في بدايته.

---

(1) مسحاة: جاروف

صهيب

كنت أتصفح حساب سَفانة على الفيسبوك والإنستجرام عندما اتصلت بي هاتفيًّا.

شعرت كما لو أني متلصص أُلقِي القبض عليه متلبسًا بجرمه. اعتقدت فعلًا أنها ستسألني عن سبب تصفحي المستمر لصورها.

لم تفعل. أخبرتني فقط أن اليوم هو اليوم الموعود لدخول البيت الكبير، وأن ذلك سيحدث بعد الثامنة مساءً.

لم يكن هناك ما أفعله حتى يحين الوقت، ولم أعرف كيف عليَّ أن أفكر في الأمر كله. دخول البيت الكبير لم يكن يحتاج إلى وجودي؛ حصلوا على الموافقة بتدخل من المحافظ عن طريقي. لكن لماذا إصرار الحاجة على أن أكون معهم؟ هل يعتقدون أن بإمكاني أن آخذ حصتي من الكنز وأضعها في حقيبتي ثم أطير عائدًا بها إلى الولايات المتحدة. تخيلت موظف الجمارك وهو يسألني عن الليرات العثمانية الذهبية في حقيبتي، وأرد عليه بأن هذا كنز يعود إلى جد والدي. سيبدو جوابي كما لو أن جدي كان واحدًا من قراصنة الكاريبي.

قررت أن أخرج بمفردي لأتجول في الموصل، بعيدًا عن يحيى وسَفانة والسائق الذي كلفته المحافظة بمرافقتي في بداية رحلتي. بما أني على وشك مغادرة الموصل، ربما عليَّ أن أشتري بعض الهدايا للزملاء في

المكتب. ليس لسينثيا تحديدًا، ولكن سيسرني أن أغيظها عندما تضطر إلى الاعتراف بتفوق (المن السما) الموصلي على كل حلويات الأعناق الحمراء والقمامة البيضاء. انتبهت لنفسي. لقد أصبحت عنصريًّا ضد البيض.

أوقفت سيارة أجرة فور خروجي من الفندق. قلت له أن يأخذني إلى أي سوق شعبية قديمة، وجلست في المقعد الخلفي كالمعتاد. لاحظت استغرابه، ثم استنتجت أنهم يجلسون عادةً في المجلس المجاور للسائق وليس كما في الولايات المتحدة. اختلاف ثقافات يحكي الكثير في لقطة واحدة.

سألني: «من أين حضرتك؟».

أجبته فورًا دون تفكير: «من الموصل».

قبضت على نفسي متلبسًا بهذا الجواب الذي فاجأني شخصيًّا. «من الموصل؟»، قلتها تلقائيًّا كما لو كنت قد استغربت سؤاله. لو أن أحدهم سألني قبل أسبوعين فقط لقلت بالتلقائية نفسها: «إرفاين كاليفورنيا»، حيث نشأت وكبرت.

استدركت: «من الموصل، ولكن ولدت وكبرت في الخارج، وأنا الآن في زيارة».

- أيصب[1] بالموصل؟

ترددت للحظات ثم قلت: «من النبي يونس».

رحب بي بحرارة وسألني إن كنت قد تناولت إفطاري وأصر أن يدعوني لتناول الإفطار عندما عرف أني لم أفعل.

أوصلني إلى سوق النبي يونس، ورفض بإصرار أن يأخذ أجرته.

---

(1) أيصب: أي صوب؟ أين؟

كانت الرحلة القصيرة صدمة حضارية لم أستوعب أنها ستحدث عندما خرجت من الفندق. كل من قابلتهم في الموصل كانوا يعرفون من أكون ويتصرفون على هذا الأساس، سواء كانوا مرحبين أو منزعجين. هذا الرجل لا يعرف شيئًا عني سوى أني مغترب. لا يعرف لقب العائلة، لا يعرف عن هارفرد، لا يعرف عن الجائزة. لكنه رحب بي بهذه الحرارة التي احتوتني في يوم خريفيٍّ غائم.

الأمريكيون عمومًا وديُّون في اللقاء الأول. لكنهم يحتفظون بمسافة أمان واضحة يتحول ودهم إلى عداء لو تم تجاوزها أو التعدي عليها.

هنا فوجئت بسائق سيارة أجرة يدعوني إلى تناول الإفطار ويرفض أن يأخذ أجرته.

سائق سيارة الأجرة صدم بسيارته تصوراتي السابقة عن تحفظات أهل الموصل. لم تمت تمامًا. لكنها كانت تحت عجلات سيارته.

سرت في سوق شعبيَّة مسقفة اسمها -كما قال السائق- سوق النبي يونس. تناولت إفطارًا مبالغًا في دسامته، وندمت أني أكثرت. لكني لم أقاوم. شربت الشاي حتى كدت أن أسكر، ثم فوجئت أنه بالمجان. خرجت أسير في السوق. لم أشعر أني أسير كسائح يتجول في سوق محليَّة في بلد غريب عنه، بل شعرت أني جزء من مكان لم أزره من قبل. غمرني شعور غامض ومريح أعمق من مجرد الديجافو الذي يشعرك بالحيرة لأنك تسأل نفسك أين ومتى وكيف. الآن لا أسئلة. فقط شعور بالامتداد نحو المكان. الامتداد نحو المكان والتداخل معه، كما لو أن هذا هو الوضع الطبيعي الذي كان يجب أن يكون دومًا. شعرت بألفة نحو عربات الباعة المتجولين والباعة الذين يعرضون بضاعتهم أمام المحلات، مسجل الصوت الذي يكرر: «ثلاثة بألف. ثلاثة بألف»، فوضى تداخل المحلات: محلات فواكه، ملابس، إلكترونيات، جزارة، مواد منزلية.

نزلت قطرات المطر. كان سقف السوق يضم فتحةً نصفيةً على طول السقف. مرت قطرات المطر من الفتحة. نظرت إلى الفتحة، أحاول أن أفهم ما الفكرة من وجودها، رأيت أشعة الشمس تخرج من بين الغيوم بينما قطرات المطر تبدو واضحةً وهي تدخل السوق من الفتحة. منحني المشهد شعورًا عميقًا بالتواصل مع السماء. تواصل لا يمكنني أن أستشعره لو كانت السوق بلا سقف. شعرت كما لو أن وظيفة هذه الفتحة هي هذا التواصل مع السماء. لا للتهوية ولا لإضفاء أي جمالية.

خرجت من السوق. زاد المطر وسمعت صوت جرس قدرت أنه لمدرسة قريبة. خلال أقل من دقيقتين تدفق الصغار في كل مكان. كانوا فرحين بالمطر ربما كفرحتهم بالخروج من المدرسة. أصواتهم كانت كموسيقى شحنت المكان بطاقة إيجابية، وزاد ذلك من شعوري بأني أصبحت جزءًا من المكان. وقفت جانبًا أتأملهم وهم يعبرون أمامي. يتضاربون، يركضون، يلعبون. وكان هناك طفل واحد يرتدي نظارته ويقرأ في كتابه كما لو أنه ذاهب إلى المدرسة وليس خارجًا منها. ذكرني بنفسي. لا بد أن والده قد رسم له سقفًا شاهقَ التوقعات.

أردت أن أُخرِج هاتفي وألتقط صورةً له وهو يقرأ كتابه بين جموع الطلبة الذين يفعلون أي شيء عدا القراءة. ثم أحجمت؛ خفت أن يفسر هذا تفسيرًا خاطئًا. لا أعرف كيف يمكن أن يُستقبَل هذا الشيء هنا.

عندما انتهى سيل الأطفال التفتُّ فوجدت أمامي ما فهمت فورًا أنه بقايا جامع النبي يونس. ثم وجدت لافتةً كبيرةً كُتِب عليها شيء عن مشروع إعمار المسجد.

انتبهت فورًا لوجود شيء لا معقول في كل ما حدث.

لقد قدمت مشروعي لإعادة تصميم جامع النبي يونس في مسابقة دولية، وفزت فيها، وجئت لأقدم التصميم رسميًّا مع المسؤولين في

الشركة الهندسية العملاقة، ووقعت العقود والتقطت الصور وارتفع الصوت، ولكن لم يكترث أي أحد بأن يأتي بي إلى موقع المسجد لأراه بنفسي. وها أنا أصل إليه مصادفةً بمفردي في آخر أيامي في الموصل.

حتى أنا. لم أسألهم ذلك. لم أحاول أن أرى الموقع.

كل تلك المطاعم والعزائم، وكل ذلك الكوليسترول والسعرات الحرارية. كل كلمات القسم التي أُلقيَت عليَّ لكي أكمل هذا الطبق وهذا الطبق وهذا الطبق. كل ذلك الشاي بكل السكر الذي فيه. لكن لم يتذكر أحد أن يأخذني إلى الموقع.

نعم. لا بد أن الأمر كما لمَّح يحيى. مجرد مشروع وهميٍّ يحاول من خلاله بعض الحيتان أن يمتصوا الأموال من الدولة.

كان الجامع موجودًا في أعلى تل التوبة الذي ذكرت المصادر أن أهل نينوى وقفوا عليه عندما أعلنوا إيمانهم وتوبتهم. كان التل أشبه بمدرج تحولت كل طبقة من طبقاته إلى حديقة عامة صغيرة. وكان بعض الأطفال يلعبون في تلك الحدائق.

صعدت التل بخطًى مثقلة بما أدركته للتو من أني لم أزُر الجامع الذي جئت لإعادة بنائه.

وصلت إلى حيث أنقاض وبقايا الجامع. كان السياج قد أُعيدت بعض الأجزاء منه، وأحيط الموقع كله بأسلاك شائكة. كان هناك أيضًا أكثر من كرفان، يجلس أمام واحد منها حراس يدخنون ويشربون الشاي. أكثر من لافتة فهمت منها وجود تنقيب عن آثار القصر الآشوري تحت جامع النبي يونس، وأخرى فهمت منها وجود جمعية خيرية تتبرع لإعمار الجامع.

قال أحد الحراس بصوت مرتفع: «تفضل».

وأشار إلى الشاي.

كان يسألني ماذا أريد، وفي الوقت نفسه يضيفني على الشاي.

أجبته بصوت حاولت أن يكون مرتفعًا: «شكرًا. سأقرأ الفاتحة على النبي».

وجهت وجهي صوب أنقاض الجامع، رفعت كفيَّ وأغمضت عيني وشرعت في قراءة الفاتحة.

في اللحظة التي بدأت فيها ذلك، تمثل أمامي تصميم إعادة إعمار الجامع. التصميم الذي قدمته وفزت به وقادني في هذه الرحلة.

تمثل أمام عيني كما لو أنه قد أُنجِز على الأرض.

أنهيت الفاتحة. فتحت عيني.

كان الجامع بتصميمه الجديد لا يزال ماثلًا أمام عيني على الأرض. مثل مشروع مجسم ورقيٍّ، ولكن عملاق وعلى أرض الواقع وليس في قاعة الشركة الهندسية.

أدرت وجهي نحو الموصل، أراها من فوق تل التوبة.

في لحظة واحدة تغيرت نظرتي. رأيت التصميم الجديد نشازًا. مختلفًا؛ يفتقد إلى التناسق مع المكان وروحه وإيقاعاته وكل شيء فيه. لو كان في مكان آخر، لربما كان سيكون باهرًا. لكن هنا، على تلة التوبة، في مواجهة الموصل الحقيقية، لا.

أدرت وجهي إلى التصميم الذي ما زال ماثلًا في عيني على الأرض.

بدا لي كما لو كان حوتًا خرافيًّا يريد أن يبتلع المدينة.

على العكس بالضبط مما كنت أريده أن يكون.

هبطت على درجات السلم وأنا أحمل أقصى مشاعر الخيبة والضيق. كثيرًا ما يحدث ذلك بعد تنفيذ المشروع: يلاحظ المعماري أن الواقع

خان الخيال، وأن التنفيذ على الأرض كان مغايرًا عن الخطوط على الورقة.

أنقذني اتصال سَفانة من هواجسي.

- صهيب، كم مقاس حذائك؟
- عفوًا؟
- ستحتاج حتمًا إلى حذاء بعنق طويلة في أثناء الحفر.
- مقاسي تسعة.
- تسعة؟ تقصد تسعة وثلاثين؟ مستحيل!
- لا. تسعة فقط.
- لا يوجد شيء كهذا.
- بل يوجد. آه، ربما لأن هذا مقياس أمريكي. ربما هنا أنتم تتعاملون بالمقاييس الأوروبية.
- نعم، ممكن، سأحوله حسب جوجل وأرى ما يمكن تدبيره من أحذية خالد. سؤال آخر، أنت تجيد استعمال المسحاة صحيح؟
- لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى خبرة كبيرة. لم أحفر كثيرًا في حياتي، لكن كثيرًا ما يحاصرنا الثلج في الشتاء وأضطر لإزالته من أمام الباب أو المرأب.
- حسنًا. الشيء ذاته على ما أعتقد. كله حفر. سأمر عليك في الثامنة. سنكون أنا وأنت وأسماء والحاجة. يحيى لن يكون موجودًا.

غريبة.

- لماذا؟

- يطول الشرح. لكن لا مشكلة معه، الحاجة وضعته كاحتياط على ما يبدو.

احتياط؟ هل في الأمر مخاطرة وينوون التضحية بي؟

كنت مسرورًا لأنها ستعطيني حذاءً من أحذية زوجها.

هل أنا غبي لأني أشعر بالسرور بسبب ذلك؟

عدت إلى الفندق وأنا أفكر في كل ما حدث هذا اليوم من أحداث صغيرة لكن آثارها كبيرة.

تمددت على السرير بملابسي. فتحت الفيسبوك مجددًا.

- أليكسا، ما معنى أن يكون المعماري فاشلًا؟

- الفشل أمر نسبي، لكنه يتعلق بشكل أساسيٍّ بعدم تحقيق التوقعات والمعايير المطلوبة في مجال العمارة.

- هذا نسبيٌّ أيضًا يا أليكسا.

- صحيح. تقول زها حديد[1] إن العمارة تحوِّل البناء من مجرد مأوى، إلى مكان يُشعِر بالرضا والمتعة والرفاهية.

- زها حديد؟ لماذا اخترت زها حديد تحديدًا؟

هل يمكن أن تكون أليكسا قد عرفت أني مصاب بعقدة زها حديد؟!

- لأنها تنتمي في أصولها إلى المدينة نفسها التي تنتمي إليها أنت. الموصل.

لم أرد؛ لست بحاجة إلى تذكر ذلك.

- هل تريد مقولات أخرى لزها حديد؟ لديها الكثير من المقولات الملهمة التي يمكن أن تساعدك.

---

(1) زها حديد: (1950-2016) معمارية عراقية بريطانية من عائلة موصلية، نالت أعلى الجوائز المعمارية العالمية وأنجزت الكثير من التصميمات في مختلف أنحاء العالم.

- لا، شكرًا أليكسا. هذا كل شيء.

- ما رأيك في هذه المقولة: «هناك 360 درجة. لماذا نتعلق بواحدة فقط؟»؟

- قلت شكرًا أليكسا. توقفي.

- تقول أيضًا: «أنا أفكر في العمارة طيلة الوقت. حتى إني أحلم بها».

- كفى.

- ما رأيك أن أتحدث لك عن شخصيات أخرى من الموصل؟ ما رأيك في زرياب مثلًا؟ هو أندلسي فعلًا لكنه من الموصل.

- لست مهتمًّا، شكرًا جزيلًا.

- جواد سليم؟ نحات عراقي مهم جدًّا، صاحب نصب الحرية.

- ربما في مرة أخرى.

- ماذا عن الملا عثمان الموصلي؟ الكثير من ألحانه منسوبة إلى سيد درويش بالمناسبة.

- مرة أخرى إن شاء الله.

- إنعام كجه جي؟ روائية عراقية نالت جوائزَ مهمة.

- أليكسا اخرسي.

- هذا ليس أسلوبًا لطيفًا للحديث مع سيدة يا صهيب.

لم أرد عليها.

- آمل ألا تتحدث مع سَفانة هكذا.

يا إلهي! هذه الأليكسا تراقبني.

صهيب بن سنان

كل يوم أستيقظ، وأتمنى لو كان كل ما مررت به محض منام مزعج.

وأنهض من فراشي لأرعى غنم والدي.

لكن كل يوم أستيقظ، لأجد نفسي عبدًا للروم.

كل يوم الموصل تصير أبعد. أمي أبعد. أبي أبعد. دجلة أبعد. الخراف التي كنت أرعاها أبعد.

أراهم في منامي أحيانًا. لا أعرف إن كنت أزورهم أم يزورونني. أبكي في حضن أمي. وأطلب العفو من أبي لأني لم أحافظ على خرافه. أتساءل أحيانًا إن كانوا لا يزالون يذكرونني. إن كانوا يرونني في مناماتهم.

أحيانًا يخيَّل لي أن ملامحهم بدأت تتسرب من ذاكرتي. لم أعد متأكدًا منها.

أنا أكبر. عشر سنوات مرت منذ ذلك الصباح. كبرت دون أن أنتبه إلى أني أتغير.

منذ أشهر رأيت رجلًا حليفًا للروم من بني بكر بن وائل. أبناء عمومة لنا، نحن بني نمر. جاء في تجارة ولعله كان ينقل أخبار الفرس إلى الروم. فرحت به كما لو أني رأيت الموصل من جديد. أخبرته أني من بني نمر.

نظر إليَّ مستغربًا وقال لي: «لكنك ألكن[1]. لسانك ليس مثل لسان بني نمر، ووجهك أحمر مثل الروم. لم أشك في أنك من بني الأصفر. لم أكن أعرف أنهم يسترقون بني جلدتهم أيضًا».

كانت هذه أول مرة يقولها لي أحد. أول مرة يشكك فيها أحد في لساني.

شعرت كما لو أنه يقول لي: «لست ابن أبيك».

صدمت. غضبت. أنكرت. كدت أن أصرخ به. استغرب هو؛ كيف يجرؤ عبد مثلي على ذلك. لم يقل لك أحد إنك تشبه الروم ولسانك به عجمتهم؟

حاولت الهرب مرتين بعدها. أريد أن أرجع إلى الموصل قبل أن أفقد كل ما أعرفه عن نفسي. قبل أن أفقد نفسي.

دون فرس، ومهما ركضت مسرعًا- لن تبتعد كثيرًا. كانوا يعيدونني كل مرة.

ثم ذات يوم، فوجئت برجل يأتي ويقول لي: «أنت ملكي الآن».

لقد باعوني عندما أيقنوا أني عازم على الهرب.

كان الرجل تاجرًا عربيًّا من بني كلب، وكنت قد أصبحت جزءًا من بضاعته دون أن أدري. كنت العبد الوحيد في البضاعة. سيوف وأقمشة وخمور، وأنا.

كنا نتجه غربًا. نبتعد عن الموصل أكثر فأكثر.

سألته بعد صمت أيام: «أين نتجه؟».

قال: «إلى مكة. فيها موسم يكثر فيه البيع والشراء».

---

(1) ألكن: لسانه به عجمة عندما ينطق العربية.

مكة. لم أسمع بها من قبل. وما دمت لم أسمع بها فهي أبعد بكثير عن الموصل.

ثم التفت إليَّ وقال آمرًا: «إياك أن تقول إنك من بني نمر أو أي شيء عن الموصل ونينوى التي تهذي بها في نومك. سعرك كعبد روميٍّ في مكة سيكون أضعافًا مضاعفة. وجهك الأحمر ولسانك الألكن سيقنعهم أنك رومي. عليك أن تنسى كل شيء عن بني نمر من الآن».

لم أرد عليه. شيء ما في داخلي دفعني إلى أن أستسلم لقدري. لعلي أجد في هذا القدر عوضًا لي في كل ما فقدته.

أكمل قائلًا: «من الآن، أنت صهيب الرومي».

صهيب

وقفنا أمام باب البيت. سَفانة تحمل حزمةً ضخمةً من المفاتيح، أسماء تدفع الحاجة عادلة على كرسي العجلة، أنا أحمل عدة الحفر وكشافات الضوء وأنتعل حذاء خالد، الكبير قليلًا على قدمي، وأنير لها بضوء الهاتف الجوال.

فكرت: «بدأت علاقتي بالعائلة وأنا أستعيد مشاهدَ من فيلم العراب. ها أنا الآن على وشك استعادة مشاهد من إنديانا جونز. آمل فقط ألا يتحول الأمر إلى جزء من سلسلة أفلام رعب».

فتحت سَفانة الباب. أصدر الباب الخشبي صريرًا كذلك الذي يظهر كجزء من لقطات التوتر في أفلام التشويق والرعب.

دخلت سَفانة وضغطت على مجموعة من أزرار الكهرباء على يمينها. لم يحدث شيء.

قالت: «كما توقعت، الكهرباء مقطوعة».

دخلت خلفها وأنرت الكشاف الكهربائي في يدي. ثم ساعدت أسماء في رفع كرسي الحاجة عادلة لتخطي عتبة الباب.

وجدت نفسي في باحة كبيرة مكشوفة، يحيطها من جميع الجهات بناء من طابقين. في وسط الباحة كانت هناك شجرة عملاقة، وعلى الأرض كانت هناك آثار حفر ورمل وخلاط أسمنتي.

كل شيء كان موحشًا في الظلمة. الشجرة بدت لي مثل وحش خرافيٍّ أو شبح يتربص بنا.

كانت أسماء تقرأ آيات من القرآن مع نفسها لكن بصوت مسموع للجميع.

التفتت سَفانة إلى الحاجة.

- ستا، أين نذهب الآن؟

أشارت الحاجة بيدها: «الغاردينيا».

تبادلت سَفانة النظرات مع أسماء.

- الغاردينيا؟ أنتِ متأكدة ستا؟

في هذه اللحظة عادت الكهرباء. أضيء البيت كله فجأة. كانت هناك كشافات ضوئية في كل زوايا الباحة، تتجه إلى الأعلى فتبين الأقواس التي تزين المكان كله من جهاته الأربع. أقواس عثمانية الطراز إن لم تخني ذاكرتي. الإنارة بثت الروح في المكان. حتى الشجرة بدت لي الآن كائنًا لطيفًا مرحبًا. كل المكان بدا مرحبًا كما لو أنه كان مشتاقًا للحاجة بعد عشر سنوات من الغياب. بل كان مرحبًا حتى بي، كما لو أنه عرفني فورًا. كما لو أنه شبهني بأبي فاستنتج من أكون، فاحتضنني فورًا.

درت بوجهي في المكان. خيِّل لي أني أسمع الأصوات في كل زوايا البيت. تذكرت الأكروبوليس[1] في أثينا. عرض (الصوت والضوء) الذي يستعيد فيه المكان أصوات من راحوا. بينما الضوء ينير زوايا الأماكن التي حدثت فيها الحوارات، فجأةً سمعت صوت حسين باشا الجليلي وهو يشرف على وضع المؤونة في حصار نادر شاه. هنا صوت يونس

---

(1) الأكروبوليس: موقع أثري في أثينا - اليونان، يضم عدة مبانٍ أثرية ويقع على تلة مرتفعة. يوجد على مقربة منه عرض الصوت والضوء الذي يقدم للسياح قصصًا من التاريخ الإغريقي حدثت في هذه المباني.

باشا وهو يوزع الطعام أيام مجاعة الحرب الكبرى. هنا دخلوا أيام ثورة الشواف ليقتلوه وابنته، وهنا خرجت الحاجة عادلة لتقتلهم. هنا رجعت وهي تسحب واحدًا من القتلة لتستجوبه قبل أن تجهز عليه. هنا كان يلعب أبي في الباحة. من هنا ودعهم وسافر. خرج ولم يعد قط.

تداخلت الأصوات التي لم أسمعها يومًا وهي تتمازج مع المشهد، كما لو أني داخل فيلم سينمائي لمخرج مجنون العبقرية.

استيقظت من عرض الصوت والضوء على صوت سَفانة.

كانت قد أثنت ركبتيها وجلست تقريبًا قرب كرسي الحاجة عادلة.

- ستا. حوض الغاردينيا هذا، أظن أنه حُفِر في التسعينيات. لا يمكن أن يكون قد أُخفِي فيه الكنز أيام ثورة الشواف. هل أنتِ متأكدة من المكان؟

سمعت صوت الحاجة وهي تقول: «بلا كثرة كلام. احفروا هنا».

نظرت سَفانة إلى أسماء التي رفعت كتفيها باستسلام. خيِّل لي أني سمعتها تهمس: «كنت أعرف. لا يوجد كنز ولا يحزنون».

أخرجت أسماء كفوفًا من تلك التي تُستَعمل في المطبخ، وكمامات واقية ووزعتها على الجميع.

لم يكن هناك غاردينيا في المكان. فقط حطب وأدغال شوكية.

أعطتني سَفانة الفأس وقالت: «ابدأ أنت».

بدأت بإزالة الحطب وعزق الأدغال. أسماء كانت ماهرةً أكثر من سَفانة. تذكرت أنها قالت شيئًا عن اهتمامها بالحدائق في أول لقاء.

أقل من عشر دقائق وكنا قد أزلنا كل الحطب والأدغال عن الحوض.

أشارت إليَّ الحاجة إلى الزاوية، وقالت: «ابدأ من هناك».

لم أناقش. لا معنى في أي نقاش.

وقفت سَفانة مع أسماء بجانب الحاجة عادلة. تركتاني أحفر بمفردي.

انقطعت الكهرباء بعد ثالث ضربة من المجرفة.

اقتربت سَفانة وفتحت الكشاف الضوئي لكي أرى جيدًا.

كنت أرمي ما أزيله من تراب على الأرض.

قالت لي الحاجة: «لا داعي لذلك. ألقِ التراب في الجهة الأخرى من الحوض».

ماذا لو اضطررنا إلى الحفر في الجهة الأخرى؟ سيكون هذا جهدًا ضائعًا. لكن لا فائدة من النقاش.

في الضربة العاشرة، أحسست بوجود شيء؛ ارتطم الجاروف بشيء صلب.

- هناك شيء هنا.

ارتفع صوت سَفانة بالصلوات على محمد وعلى آل محمد.

قالت الحاجة عادلة: «أكمل على المستوى نفسه في بقية الحوض في هذا الاتجاه. لا تذهب أعمق في الزاوية».

نفذت ما قالته. لم يكن الشيء عميقًا. أيًّا من كان قد حفره فقد كان على عجلة من أمره.

وصلت إلى الزاوية الأخرى بمستوى الحفر نفسه. لم أكن أشعر دومًا بوجود شيء صلب على المستوى نفسه. كان الأمر متقطعًا كما لو أن هذا الكنز الذي نبحث عنه متعرج أو فيه منخفضات.

قالت لي الحاجة: «الآن أزِل التراب عن الزاوية الأولى، لكن ليس بالمسحاة».

أخذت الفأس. استعملتها لكشط التراب عن الجزء الصلب الذي رتطمت به.

ثم تركت الفأس.

استعملت يدي في إزاحة التراب. كنت أتحسس الشيء الصلب بيدي وأزيل التراب عنه بسهولة أكبر.

لم أكن أرى جيدًا، لكن حاسة اللمس كانت تقودني بشكل جيد.

كان الشيء مكورًا. هكذا أحسسته.

ثم أخذت أزيح التراب أسرع. أبعدت عن بالي خاطرًا مزعجًا.

ثم طلبت الكشاف من سَفانة.

وضعته في يدي اليمني وأخذت أنبش بيدي اليسرى كيفما كان.

التفتُّ إليهم.

وجهت الكشاف نحو الحاجة عادلة.

كانت تنظر إليَّ بقوة وتحدٍّ.

تذكرت العراب.

قالت سَفانة بصوت مرتجف: «ماذا هناك؟».

بلعت ريقي. حاولت أن أجد صوتي. لقد تحول الأمر فعلًا إلى فيلم رعب.

بصعوبة استطعت أن أجد لساني وحنجرتي.

وسمعت صوتًا يشبه صوتي وهو يقول: «هناك جثة. بقايا جثة. هيكل عظمي».

****

كان واضحًا أن سَفانة لم تستوعب ما قلته.

قالت الحاجة عادلة لأسماء: «هناك بطانيتان في السيارة. اجلبيهما وتعاليْ».

ذهبت أسماء دون أي نقاش.

اقتربت سَفانة من الحوض.

ثم ابتعدت قبل أن تصل.

- صهيب. هل أنت جاد؟ هل كنت تمزح؟

لم أرد عليها. لم أكن أرغب في الحديث مع أحد. أحسست أني في كابوس. لقد دخلت في الفيلم الخطأ. هذا ليس مكاني. كيف انتهى بي الأمر مع بقايا جثة؟

- هذه ليست مزحة لطيفة يا صهيب.

لم أرد، لكني تمنيت لو أنها تخرس.

قالت الحاجة عدلة بصوت متماسك: «سَفانة. اخرسي».

التفتت سَفانة إليها مصدومةً كما لو أن ما قالته كان تصريحًا بأني لم أكن أمزح.

جاءت أسماء بالبطانيتين. طلبت منها الحاجة أن تفرش واحدةً على الأرض قرب الحوض.

ثم قالت لي: «صهيب. أخرجه وضعه على البطانية».

قالت «أخرجه».

نفذت كل شيء مثل روبوت لا يمكنه الاعتراض. أي نقاش أو سؤال سيؤخر خروجي من هذا الكابوس.

أخرجت البقايا التي وجدتها. لم تكن كلها متصلةً ببعضها، لكني وضعتها كما وجدتها.

كانت هناك بقايا شعر على الجمجمة، وبقايا ما بدا لي أنها سترة جلدية.

سَفانة دخلت في حالة هستيرية. أو ربما نوبة فزع؛ كانت تصدر أصواتًا غريبةً كما لو أنها عاجزة عن التنفس. لم تكن تبكي أو تصرخ. فقط محاولة للتنفس.

أريد أن أدير ظهري وأخرج فورًا إلى أربيل وآخذ أي طائرة إلى أي مكان.

قالت لي الحاجة: «صهيب، اصفعها. اصفع سَفانة كي تستيقظ مما هي فيه».

لم أرد عليها ولم أتحرك من مكاني. أريد من يصفعني أنا كي أستيقظ من هذا الكابوس.

التفتت الحاجة إلى أسماء.

- اصفعيها أنتِ يا أسماء.

قفزت أسماء فورًا وصفعت سَفانة صفعتين كما لو أنها كانت تنتظر الأمر من عشرين عامًا.

شهقت سَفانة فجأةً وانفجرت تبكي.

احتضنتها أسماء وهي تربت ظهرها.

يحيى

بدأت بالاتصال بأسماء بعد ساعة تقريبًا من دخولهم البيت الكبير.

بدأت أولًا إرسال الرسائل، أسألها عما يحدث. ثم بدأت بالاتصال.

لم يكن هناك أي رد منها.

اتصلت تسع مرات بين التاسعة والتاسعة والنصف.

اتصلت أيضًا بسَفانة. لم تجب هي الأخرى.

قرابة العاشرة اتصلت أسماء.

- هل كل شيء بخير؟ هل أنتم بخير.

جاء صوتها مرتبكًا كما لو أنها لا تريد التحدث.

- نحن بخير. في طريقنا إلى بيت الحاجة. انتظرنا هناك.

سمعت صوت صهيب يتحدث غاضبًا.

- أين أنتم؟ ماذا يحدث؟ لماذا صهيب يتحدث بعصبية؟

- نحن في السيارة. انتظرنا في بيت الحاجة.

ترددت في أن أطرح السؤال، رغم أن صوت أسماء وطريقتها في الأجوبة كانت تقدم الجواب سلفًا.

- هل وجدتم... الشيء؟

- لا. انتظرنا في بيت الحاجة يا يحيى.

طعنتني الإجابة.

تبخر الحلم الوردي الذي عشت عليه منذ أن أخبرتنا الحاجة عن الكنز. إذن أسماء كانت محقةً. لا يوجد كنز. لكن هل هي محقة فعلًا في أن الحاجة ربما تكون قد أصابها الخرف. لا تبدو لي كذلك أبدًا. هل نسيت مكان الكنز؟ هل سنستطيع الدخول مرة أخرى إلى البيت؟ تبًّا! تذكرت ما فعلته مع مهند. كنت في غنًى عن كل ذلك.

قدت السيارة بسرعة إلى بيت الحاجة. وجدت سيارة سَفانة في المرأب. استغربت؛ في العادة تضعها أمام البيت.

فور دخولي سمعت صوت صهيب وهو يتحدث باللهجة الغاضبة نفسها.

سمعته يقول: «ماذا تريدون مني؟ لماذا أدخلتموني في هذه الورطة؟».

دخلت الصالة. كانت الحاجة تجلس على كرسيها المعتاد، سَفانة تجلس على الكنبة ويبدو عليها أنها بكت، أسماء وضعت قناع الحياد وجلست على طرف الكنبة الأخرى، وصهيب كان يقف في منتصف الغرفة، ملابسه متسخة وشعره مهوش كما لو أنه كان في مشاجرة بالأيدي.

صاح فور أن رآني: «أهلًا. أهلًا. جاء الأستاذ يحيى بكامل أناقته. تركتني وحيدًا أحمل المصيبة ولم تكلف نفسك حتى بالمجيء. طبعًا. لا بد أنك كنت تعرف، وفضلت أن أحفر وأحمل الكارثة بمفردي».

لم أفهم شيئًا. لم يجدوا الكنز. إحباط. خيبة أمل. لكن أين الكارثة؟ لم كل هذه العصبية؟

قالت سَفانة: «صهيب، يحيى لم يكن يعرف شيئًا. الحاجة هي التي طلبت منه ألا يأتي».

رد صهيب بالانفعال نفسه: «حقًّا؟ لا يعرف! كيف يمكنني أن أصدق أي شيء بعد كل هذا الذي رأيته؟».

سألت: «هل منكم من سيشرح لي ماذا يحدث؟ لماذا جُنَّ صهيب؟».

أخذها صهيب على محمل شخصيٍّ.

- جننت لأني لست مجرمًا مثلكم. صدقَت والدتي. قالت لي إنكم عصابة. لم أصدقها. مع الأسف لم أصدقها. تصورت أنها تقصد الأمر مجازًا. لكنكم عصابة بالفعل.

هذا كثير.

قلت له: «لا بد أنك جننت فعلًا».

رد فورًا: «لم ترَ شيئًا من جنوني بعد. تريدون أن تورطوني. لكني سأسافر على أول طائرة ومن ثم أبلغ عنكم. لن أكون جزءًا من هذه الجريمة».

التفتُّ إلى أسماء.

- أسماء. بالله عليك، أخبريني، ماذا حدث؟ أي جريمة؟

قال صهيب فورًا: «الذي حدث يا أستاذ أنه لم يكن هناك كنز. ما وجدناه هو جثة، أو بقايا جثة. هيكل عظمي».

لا بد أنه جُنَّ فعلًا.

درت بوجهي بين الحاجة وأسماء وسَفانة.

كانت الحاجة يبدو عليها التبرم والضيق.

سَفانة تبكي.

أسماء لا تزال تضع قناع الجمود.

لكن لم تنكر أيٌّ منهن الجنون الذي تفوه به صهيب.

- جثة؟ لا بد أنها جثة من جثث الدواعش أو شخص قتله الدواعش عندما أخذوا البيت.

- حقًّا؟ هل تراني طفلًا صغيرًا لكي تخدعه بهذه القصة؟ كيف عرفت الحاجة مكان الدفن بالضبط إذا كان الدواعش هم من فعلوا ذلك بعد أن سيطروا على البيت؟

التفتُّ إلى الحاجة. لم أعرف ماذا أقول لها.

نطقت الحاجة لأول مرة منذ أن دخلت: «دعه يكمل».

ثم توجهت إلى صهيب بكلامها: «أنهيت كلامك؟».

قال لها: «لا أعرف لماذا فعلتم ذلك بي! لماذا استخدمتموني في هذا الأمر؟ ماذا فعلت بكم كي تجروني معكم إلى هذه الجريمة؟ كان يمكنكِ يا حاجة الاكتفاء بأني كلمت المحافظ لكي تدخلوا البيت، وتتركونني أسافر إلى أمريكا من حيث أتيت. هل كان هذا تتمة الانتقام من والدي؟».

هزت الحاجة رأسها كما لو أنها تؤيده في كلامه.

«انتهيت؟ لديك شيء آخر لتقوله؟». سألته الحاجة.

لم يرد. كان لا يزال يقف في منتصف الغرفة. بالموقف المنفعل نفسه الذي أصبحت أكثر تفهمًا له.

قالت له الحاجة بحسم: «اجلس».

لم يرد ولم يتحرك. بقيَ ينظر إليها.

كررت باللهجة نفسها الآمرة: «اجلس».

ذهب صهيب إلى أبعد كرسي في الصالة وجلس. لم ينطق بكلمة.

نظرت إليَّ الحاجة وأشارت إليَّ أن أجلس.

ثم قالت: «هذه جثة ناثر، طبعًا».

عمي ناثر! جثته في البيت الكبير؟!

- من قتله يا ستا؟

نظرت إليَّ نظرةً حادةً، كما لو أنها تتحداني أن أتحداها، ثم قالت: «من سيكون قد قتله؟».

ثم أكملت: «أنا قتلته بالطبع».

الحاجة عادلة

ما سأقوله هنا، سأقوله مرة واحدة. ولا أريد أن يسألني أحد عنه بعدها. ولا حتى أن تتحدثوا عن الأمر فيما بينكم. يجب ألا يعرف أحد بما سأقوله خارجكم أنتم الأربعة؛ ستحدث مشكلات لن تستطيعوا احتواءها أو حلها فيما لو عرف أحد.

حاولت كثيرًا أن أحل الموضوع دون أن أشرككم فيه. لكني لم أستطع، فكان يجب أن أفعل ما فعلت. يجب أن أنهي الأمر قبل أن تأتي ساعتي، التي نعرف جميعًا أنها تقترب كل يوم أكثر فأكثر.

ما يعرفه يحيى وسَفانة وأسماء ولا تعرفه أنت يا صهيب هو أن علاقتنا جميعًا بناثر توترت جدًّا بعد سقوط الموصل بيد داعش. لم تكن العلاقة قوية من قبل بسبب تصرفاته وتدخلاته، لكنها بقيت موجودة. رسمية. مجاملات. مناسبات. أحيانًا حتى دون مناسبة، خصوصًا بعد أن أصبح وحيدًا، عندما سافرت زوجته وأولاده إلى أربيل. لكنها بقيت متحفظة. بمسافات. في النهاية هو ابن أخي، وعمك يا يحيى، وخالك يا سَفانة.

مع سقوط الموصل، اندفع ناثر في تأييد الدواعش، أو (الدولة) كما كان يسميها. دولة سوداء على رؤوسهم وعلى اليوم الأسود الذي دخلوا فيه الموصل. فجأةً أصبح يخطب في المساجد بخطب مؤيدة لداعش ومروجة لها. أنت دكتور، مالك ومال هذه الأمور! حاولت أن أتحدث

معه في الأمر. بصراحة لم يكن يهمني ما سيحدث له، كان يهمني اسم العائلة؛ تأييده لداعش كان محرجًا جدًّا لي وللعائلة كلها، في النهاية كان محسوبًا علينا. الناس لا تعرف حقيقة العلاقة. تعرف أنه الدكتور ناثر آل يونس، وهو مؤيد لتنظيم الدولة. بايعهم علنًا، وروَّج لهم علنًا.

عندما تحدثت معه، لم أكن أعتقد أن كلامي سيؤثر عليه. مجرد محاولة رأيت أن أقوم بها لأريح ضميري. جوابه كان متوقعًا. قال الله وقال الرسول وتطبيق الشريعة. وكله حسب فهمه هو وفهمهم هم، كما لو أننا لم نكن مسلمين قبل أن تأتي داعش. زاد على ذلك قليلًا؛ قال إننا مرتدون ومشركون. قال عني تحديدًا ذلك. قال إني أعبد يونس باشا، والدي. وقال إني أعامل صورته هذه، كصنم.

عندما قال هذا، ظهرت على وجهه أمارات كراهية لا يمكن لمن عاش عمري وتجاربي أن يفشل في رؤيتها. أستطيع أن أفهم. الجد العظيم يمكن أن يكون عبئًا ثقيلًا؛ يجعل المقارنة حاضرةً وصعبة. وكان ناثر فاشلًا في كل شيء. شهادة الطب جاء بها من يوغوسلافيا، بعد تسع سنوات، ولم يحصل على تخصص؛ تطوع ليكون طبيبًا عسكريًّا لكي يحصل على الترقيات روتينيًّا. الكل يعرف ذلك، وهو يعرف ذلك. ما كان له إلا أن يكره جده يونس باشا. وعندما جاءته الفرصة استخدم الدين وقال الله وقال الرسول لكي يعبر عن ذلك دون أن نستطيع أن نعترض على عقده.

كرهته وأشفقت عليه في الوقت ذاته. لم أقاطعه. قلت له: «لن تنام في قبري[1]». ومع نفسي قلت: «مسكين».

لكن عندما حدث تهجير المسيحيين، بعد أيام فقط من هذا اللقاء، واكتشفت أنه لم يكتفِ بالدفاع عما حدث لهم، بل ساهم في إرشاد

(1) المثل: أنت ما تنام بقبغي (بقبري)، أنَّ لا أحد يُحاسب مكان أحد آخر.

الدواعش على بيوتهم؛ قررت أن أنهي كل شيء معه. أرسلت إليه وطلبت منه أن يأتي ليقابلني. عندما جاء أخبرته أنه عار على آل يونس وأني بريئة منه وأبوه أيضًا كان سيتبرأ منه لو كان على قيد الحياة.

رد عليَّ طبعًا بأنه هو من يتبرأ مني ومن كل مرتد مثلي. وقال إنه لن يكون بعيدًا اليوم الذي تحاسبنا فيه (الدولة) على ردتنا وتطبق فينا حد الردة. سببته وسببت الدولة والخليفة البغدادي وكل أتباعهم من أراذل الناس.

طلبت منه أيضًا ألا يصلي عليَّ وألا يسير في جنازتي ولا يحضر عزائي.

قال لي ببساطة: «كافرة مثلك لا يُصلَّى عليها بطبيعة الحال».

فكرت كثيرًا في أن العائلة قاطعت نائل لأنه تزوج بمسيحية.

ثم قاطعت ناثر لأنه ساهم في تهجير المسيحيين.

كما لو أن ما فعلناه بنائل عاد لينتقم منا عبر ناثر.

اعتبرت أن ناثر قد مات.

حتى هنا، كل هذا يعرفه الجميع: يحيى وسَفانة وأسماء، وكثيرون غيرهم، أقارب وأصدقاء أيضًا. لم يكن سرًّا في الموصل أن العائلة قاطعت ناثر لأنه انضم إلى داعش.

لكن ما لا يعرفه أحد، إلا الله، أنني في لحظة انتقلت من اعتباري له أنه قد مات، إلى قراري أنه يجب أن يموت.

كان ذلك عندما فعل ناثر ما لم أحتمل أن أفكر فيه. ما لم أحتمل أن أعيش مع حدوثه.

كل ما فعله ناثر قبل ذاك كان في كوم، وهذا الذي فعله في كوم مختلف جدًّا.

أخبرتني خجُّو[1]، كانت تعمل عندنا منذ خمسين عامًا، وأصبحت جزءًا من العائلة، الله يرحمها - أخبرتني أنها سمعت في السوق أن الدكتور ناثر اشترى ثلاث فتيات أيزيديات، أكبرهن في عمر الثالثة والعشرين، وأصغرهن في عمر الرابعة عشرة.

الرابعة عشرة. كان يمكنها أن تكون في عمر حفيدته.

نزل عليَّ الخبر كالصاعقة.

تمنيت أن الأرض تنشق وتبلعني. لو أني مت قبل أن أعرف خبرًا كهذا.

حاولت أن أكذب الخبر. ألا أصدقه. ناثر لن يفعلها؛ لن يكون حيوانًا إلى هذه الدرجة. لن يكون سافلًا حقيرًا إلى هذه الدرجة. لكني كنت أعرف في قرارة نفسي أنه قد يفعلها. بل ربما سيفعلها فقط ليثبت للدواعش أنه مؤيد لهم بلا حدود. أو ربما فقط ليمرغ اسم آل يونس في التراب.

أرسلت خجُّو لتتأكد. قلت لها ربما إشاعات وربما المقصود شخص آخر.

عادت خجُّو بالخبر اليقين. قاسم البقال الذي دكانته مقابل بيت ناثر - رأى ناثر يصطحب معه ثلاث نساء مجلببات بالسواد تمامًا من أعلى إلى أسفل. قاسم اعتقد أنهن زوجة ناثر وبناته قد عدن من سفرهن، فهنأه بسلامة الأهل، لكن ناثر قال له ببساطة إن هؤلاء سبايا يزيديات اشتراهن من تنظيم الدولة، وذكر الأسعار لقاسم، وللأسف قاسم ذكر الأسعار لخجُّو، وللأسف أيضًا ذكرتها خجُّو لي. أتمنى لو لم أعرف هذه

(1) خجُّو: مصغر اسم خديجة في الموصل.

التفاصيل. أن يكون هناك سعر لفتيات. العذراء منهن سعرها أكثر، وبنت الأربعة عشر لم تكن عذراء. عرفت لاحقًا أنهم اغتصبوها قبل بيعها.

قررت أن أقتله؛ اعتبرت تلك الفتيات في ذمتي وبيتي. بيت آل يونس. لا بد أن أخلصهن منه، ولا بد أن أخلص آل يونس من ناثر، من العار الذي ألحقه بهم.

لم أخبر أحدًا بشيء. ذهبت إلى ناثر. قلت له إني أريد مصالحته، وقلت له إني أشعر أن ساعتي اقتربت ولا بد أن أخبره عن وجود كنز دفين في البيت الكبير ولا بد أن يعرف مكانه قبل أن أموت. استدرجته كما استدرجتكم. طلبت منه أن يأتي إلى البيت ولا يخبر أحدًا بالأمر أبدًا كيلا يحاول أحد الحصول على الكنز. بل طلبت أن يترك هاتفه في بيته، لأن داعش ربما كانت تتنصت عليه. ولا يأتي بسيارته حتى لا ينتبهوا أنه قد زارني ويتساءلون عن السبب. أصررت على ذلك وقلت له إني لن أقول شيئًا ما لم يلتزم بما طلبته منه، كيلا يعرف أحد بالأمر سواه. ووعدته بأن أحضر له طبق الشركسية الذي يحبه بنفسي.

والتزم بما طلبته منه: بقي هاتفه في بيته، سيارته أمام البيت.

أما طبق الشركسية، فلم أستطع أن أضع فيه السم الذي تمنيت أن يسهل عملي؛ لم تكن لديَّ وسيلة للحصول على السم دون أن أثير الشك. سم الفئران قد يكون طعمه مرًّا، وقد يأخذ وقتًا طويلًا أيضًا.

وضعت علبةً كاملة من الحبوب المنومة. ليس في الشركسية فقط، بل في الشاي أيضًا. كنت قد بدأت بالفعل شرح تفاصيل الكنز ومكانه عندما بدأ يقاوم النعاس. تركته ينام.

ثم أكملت الأمر بنفسي.

كان يجب أن يموت.

وقد قتلته.

قتلت ابن أخي. لكني لم أشعر بالندم لحظة واحدة. ولا حتى لحظة واحدة. ربما لم يكن من حقي أن أفعل ذلك. كان يجب أن يُحاسَب من قبل هيئة أو محكمة أو دولة. لكن في تلك الغابة التي دخلنا فيها، كان لا بد أن أفعل شيئًا، ولو أضعف الإيمان. وأضعف الإيمان في هذه الحالة كان أن أقتل ناثر.

صهيب

لم يسبق لي أن قابلت قاتلًا، وجهًا لوجه.

على الأقل، لم يسبق لي أن قابلت شخصًا يعترف بأنه قاتل.

شاهدت مقابلات وثائقية كثيرة يسرد فيها القتلة جرائمهم، أحيانًا بهدوء وثبات، وأحيانًا بندم وتوتر. وأحيانًا بلا أي مشاعر.

لكن الحاجة عادلة كانت مختلفة.

في اللحظة التي قالت فيها إن الجثة لعمي ناثر، واعترفت أنها هي من قتله، وجدت نفسي أمام شيء مختلف.

كل من رأيت مقابلاتهم كنت أشعر أنهم مصابون باضطراب ما. الهادئون الثابتون، والنادمون المتوترون على حد سواء.

كانت عادلة تتحدث كما لو كانت العاقلة الوحيدة في مدينة مجانين. وما فعلته كان عين الصواب. كان الشيء الذي يجب أن يفعله الجميع قبلها، ولأن ذلك لم يحدث، لم يقتله أحد، كان عليها أن تفعل ذلك بنفسها.

في لحظات، تحول غضبي وانفعالي من كل ما حدث إلى هدوء غريب. استسلمت للحاجة وسلمت عقلي لها، ليس دون مقاومة في البداية، ولكن بالتدريج.

أنا قادم من واقع مختلف. واقع يحتم على الدولة وأجهزتها أن تقوم بالصواب وبعين الصواب كيلا يضطر الأفراد إلى التصرف بأنفسهم.

نشأت على ذلك. واقع تكونت من خلاله رؤيتي وقيمي وموازيني. كنت أعرف طبعًا أن الدولة ليست كاملةً ولا فاضلة، وأن هناك ثغرات كثيرة، لكن أن يتقدم فرد ليقوم بما يجب أن تفعله الدولة هو أمر نراه ونتعاطف معه فقط في الأفلام، ومن الصعب القبول به في الواقع.

على الأقل، ليس الواقع الذي عشت فيه.

لكن واقع الموصل جعل الحاجة تأخذ موقفًا آخر.

كان الأمر مثل تصميمي الذي فزت به في المسابقة. ربما سيكون مناسبًا –بل رائعًا– في سيدني، في نيويورك، حتى في دبي. لكن في الموصل، أمام سوق النبي، على تلة التوبة، بدا نشازًا خارج السياقات.

لقد فعلت الحاجة الشيء الصواب عندما قتلت عمي ناثر.

لم أكن أعتقد، قبل دقائق من حديثها، أني سأفكر هكذا.

لكن بالطريقة التي تحدثت بها الحاجة، بالكلمات التي استخدمتها، بملامحها وهي تتحدث، وجدت نفسي أواجه حقيقة وجود واقع آخر. بالضبط كما وجدتني أعترف لنفسي أن تصميمي لا يلائم الموصل.

تدرجت مع قرارها بالتدريج، وأنا أعرفه سابقًا، لأنها قالت إنها قتلت ناثر دون مواربة ولا لف أو دوران. اعترفت أولًا. ثم حكت لي القصة من البداية.

وعندما وصل الأمر إلى الفتيات الإيزيديات، فهمت تمامًا مما قالته أنها انتقلت من (اعتباره أنه ميت)، إلى قرارها أن يموت بالفعل.

كل ما سبق أن فعَلَه كان جريمةً بالتأكيد. لكن ما فعله مع الفتيات الإيزيديات كان شيئًا أكبر بكثير. كان لا بد لأحد أن يتدخل. أن ينهي الأمر. أن يضع حدًّا لما يفعله ولو بوضع حد لحياته.

لأجزاء من الثانية، جزء مني كان يريد أن يقفز ليصفق لها. جزء مراهق لا يزال في الثالثة عشرة ولا يزال يعيش في داخلي، وربما في داخل الكثيرين، لا يشيخ ولا يموت أبدًا. يصفق لباتمان عندما يقتص من المجرمين لأن الشرطة في غوثام كانت فاسدةً ومتعاونةً مع العصابات.

كانت الموصل مثل غوثام بالضبط، على الأقل في البداية: الشرطة فاسدة ومتعاونة مع العصابات. ثم، تجاوزت غوثام، عندما أصبحت العصابات هي الحاكمة في المدينة. كان لا بد لفارس أسود أن يفعل شيئًا ما دام يمكنه أن يفعل. وفي هذه الأسرة، كانت الحاجة عادلة هي ذلك الفارس.

تنقلت بعيني بين الوجوه.

سَفانة كانت لا تزال منهارة. هل كانت تربطها علاقة خاصة بخالها في طفولتها مثلًا؟ لم يبدُ عليها ذلك عندما جاءت سيرته أمامي.

يحيى كان مصدومًا. لا بد أنه تعرق كثيرًا، إذ كان يبدو عليه كما لو أنه جرى لمسافة طويلة. خيل لي أنه كان يرفض التصديق.

أسماء كانت تبدو غير مصدومة على نحو غريب.

قال يحيى وهو يهز رأسه: «لا أكاد أصدق ما سمعته. أين الجثة الآن؟».

ردت أسماء ببساطة: «داخل بطانية في سيارة سَفانة. في الصندوق الخلفي».

بلع ريقه.

التفت يحيى إلى سَفانة وسألها بصوت منخفض: «هل الجثة واضح أنها تعود لعمي ناثر فعلًا بعد كل هذه السنوات؟».

هزت سَفانة رأسها نافية. ثم أشارت إلى خاتم في إصبعها كما لو أنها تقول إن هناك خاتمًا في سلاميات الجثة. لم أكن قد انتبهت لذلك، ولم أكن قد رأيت عمي ناثر أصلًا لكي أعرف خاتمه.

- يا حاجة! أنتِ متأكدة من أنه عمي ناثر؟

حدجته الحاجة عادلة بنظرة من نظراتها.

- أقول لك قتلته بيدي، وتقول لي متأكدة؟! إذا كنت تعتقد أني قد خرفت، كما هو واضح أنك تعتقد، فكيف عرفت مكان الجثة؟ وإذا لم تكن هذه جثة ناثر، فلمن هي؟

هز يحيى رأسه موافقًا. كلامها منطقي. كان يتشبث بأي حجة لكيلا يصدق.

التفت إلى سَفانة وسألها: «ما الوضع القانوني لكل هذا؟».

مسحت سَفانة أنفها بمنديل في يدها ثم سحبت نفسًا عميقًا كما لو أنها تحتاج إلى طاقة لمجرد الحديث.

- الوضع القانوني لأي شيء بالضبط! لدينا عدة مشكلات: لدينا قتل، وإخفاء جثة. والآن مسؤولية دفنها دون إذن رسميٍّ. الحكومة كانت ستحاكمه بالتأكيد لو كان بقي حيًّا. إذا بقي حيًّا في أثناء معارك التحرير، لا أعتقد أنه رفع سلاحًا، أو قتل أحدًا بشكل مباشر، لذا لا أعتقد أنه كان سينال حكم الإعدام.

قاطعتها الحاجة: «نال الحكم مني أنا. الحكومة لا تعرف كل شيء. لو كانت تعرف لما تركتهم يسيطرون على الموصل من الأساس».

سكتت سَفانة كما لو أنها ليست قادرةً على الرد.

رد يحيى: «لا نتحدث يا حاجة عن صواب ما فعلت. نتحدث عن الوضع القانوني فقط».

أجابته فورًا: «هل أنتم مجانين؟ هل فعلت كل ما فعلته اليوم لكي نتناقش عن الوضع القانوني؟ قلت لكم يجب ألا يعرف أحد. يجب ألا يعرف أحد. لا الدولة ولا القانون ولا أي أحد من العائلة».

هز يحيى رأسه وكرر وهو ينظر إلى الأرض كما لو كان يتحدث مع نفسه: «نعم، يجب ألا يعرف أحد».

ثم التفت إلى الحاجة مجددًا ومد جذعه ليقترب منها وسألها: «ستا، من يعرف أيضًا؟».

ردت بحسم: «لا أحد».

- ستا. لا يمكن أن تكوني قد حفرتِ الحفرة التي دُفِن فيها عمي ناثر بمفردك. حتى لو كانت خجُّو معك، الحاجة خجُّو -الله يرحمها- كانت من جيلك، الله يطول في عمرك.

نظرت الحاجة إلى يحيى باستغراب وغضب.

- ماذا تقول؟! خجُّو من جيلي! أكبر مني بخمس سنوات على الأقل، وربما أكثر، كانت تصغِّر في عمرها كثيرًا، الله يرحمها. ربما كانت أكبر مني بعشر سنوات. من جيلي!

بينما كتمت أسماء ابتسامة أفلتت منها، وضع يحيى يده على جبهته.

جر يحيى نفسًا وقال: «صحيح، كنت أقصد أنها من الجيل الذي يكبر جيلك، فكيف يمكن أن تكون قد حفرت الحفرة معك وجرت عمي ناثر، ووزنه كان لا يقل عن 100 كيلوجرام ووضعته في الحفرة؟ لا بد أن يكون هناك من ساعدكما في ذلك. ومن ساعدكما يعرف بما حدث حتمًا».

- هل تعتقد أني أنا من حفرت الحفرة؟! طبعًا لا. في عمري ما مسكت مسحاةً أصلًا. كن غشعتني[1] فلاحة؟

أخفت أسماء ابتسامتها مجددًا. كنت على وشك أن أنفجر ضحكًا أنا أيضًا. كل ما فعلته الحاجة عادلة لا بأس به في رأيها. وحتى في رأيي. ولكن أن تحفر الحفرة بنفسها! لا. هل تعتقد أني فلاحة. أعوذ باللّه.

كان يحيى يستحق أن تُرفَع له القبعة على صبره.

- من يا حاجة؟ من ساعد خجو؟

- هل تعتقد أني كنت سأعد طبق الشركسية دون أن أستعد لموضوع الحفر؟ طلبت من ناثر أن يأتي بالفتيات الإيزيديات معه لكي يساعدن خجُّو في عمل تحتاج إليه في البيت. جاء باثنتين. الثالثة كانت مريضة. لا عشتو[2] عليها.

فتح يحيى فمه مدهوشًا: «البنات الإيزيديات!».

«طبعًا. هل كنت تتوقع أني سأجلب عمالًا من باب جديد[3]؟ كنَّ مسرورات بالفرصة بالمناسبة. خائفات طبعًا، لكن على الأقل أصبح لديهن أمل. أمنتهن وقلت لهن إني سأصونهن مثل بناتي وأرتب لهن الهرب من الموصل. وفعلت كما تعلم. على الأقل مع اثنتين منهن». قالت جملتها ونظرت إلى سَفانة.

سأل يحيى: «البنات الإيزيديات بقين عندك من ليلتها؟».

(1) كن غشعتني: هل رأيتني.

(2) لا عشتو: تعبير أسف وحزن. مر سابقًا.

(3) سوق في الجانب الأيمن من الموصل ينتظر فيها العمال الكسبة.

- نعم، طبعًا. لهذا منعتك من دخول البيت لفترة. كن معي منذ تلك الليلة عدا الثالثة التي كانت مريضة. ذهبت خجُّو وجلبتها من بيت ناثر في اليوم التالي. كانت مريضةً فعلًا وتنزف.

ما كان يمكن لي إلا أن أسأل.

- ماذا حدث لهن؟

رد يحيى: «هربناهن إلى كردستان بمساعدة مهرب متخصص. تكفلت الحاجة بكل المصاريف، وأيضًا أعطت لهن مصرف جيب يكفلهن لفترة. كل رجالهن قُتِلوا؛ داعش قتلت كل الرجال وسبت كل النساء. إبادة إبادة يعني. يجمعونهم ويوقفونهم في صف طويل ويقتلونهم جميعًا».

قالت الحاجة: «مهما حدث. مهما فعلنا. لا شيء سيمحي العار الذي ألحقته داعش بنا».

أجابتها أسماء: «ماذا كان بإمكان أهل الموصل أن يعملوا يا ستا؟ يقتلونهم أيضًا؟».

- لا، لم أقصد أهل الموصل. أقصد المسلمين. داعش فعلت ما فعلته ليس باسم أهل الموصل، بل باسم الدين. الإيزيديون موجودون في كل العهود الإسلامية، وكانت لهم إمارتهم وقت العثمانيين. لم يطلع أحد بقصة الإبادة والسبي إلا هالعاغات[1] هذول.

قالت سَفانة فجأةً، موجهة كلامها إليَّ: «واحدة منهن لم تهرب. لم نستطع تهريبها؛ كانت مريضةً جدًّا وعاجزةً عن الحركة».

عم الصمت على الجميع.

قالت الحاجة كما لو لتمنع سَفانة من الاستمرار بالكلام: «واحدة منهن، اسمها بيريفان، اتصلت بعد التحرير وتحدثت معي. تتصل كل

(1) العاغات: العارات، جمع عار، وهي كلمة منقصة تطلق على من ألحق العار بأهله.

عيد تقريبًا. في السويد الآن، تزوجت وأصبح عندها -ما شاء الله- ولدان. الثانية رجعت إلى سنجار بعد التحرير».

أكملت سَفانة غير آبهة بمحاولات الحاجة: «التي لم تهرب كانت في الرابعة عشرة. تنزف؛ اغتصبها عشرة دواعش. جميلة مثل القمر. اسمها شيرين. تصورنا أنها تنزف بسبب الاغتصاب. عالجناها بما نعرف وبما أمكن الوصول إليه. ثم تبين أنها حبلى من الاغتصاب. لم نعتقد أن الحمل سيثبت. لم نعتقد أنها ستنجو أصلًا. لكن الحمل ثبت. بقيت شيرين مريضةً لا تقوى على الحركة. وولدت طفلة في شهرها السابع. لم نتوقع أن تبقى على قيد الحياة، لكنها بقيت. أمها ماتت بعد الولادة بعشرة أيام.

هزت الحاجة رأسها.

- شيرين -الله يرحمها- كانت قمرًا. الله لا يرحمهم، الحمد لله على الآخرة.

«وابنتها؟». سألتُ تلقائيًّا.

نظرت إليَّ سَفانة وقالت بعد أن صمتت لثوانٍ: «أصبح اسمها ليليان».

ثم أكملت: «دبرت لها أوراقًا رسمية، شهادة ولادة تثبت أني أمها».

كانت هناك دمعة وابتسامة في آن واحد على وجه سَفانة عندما قالت ذلك. دمعة لكل ما مر بشيرين وأهلها، وابتسامة لليليان. لوجود ليليان في حياتها. ابنتها التي لم تحبل بها ولم تلدها، ولكني رأيت التصاقها بها أكثر من كثير من الأمهات اللائي ولدن أبناءهن بيولوجيًّا.

لو أني كنت رسامًا حقيقيًّا لحاولت أن أخلد تلك اللحظة. لكن لا قلم، لا ريشة. لا عدسة -مهما بلغت دقتها- قادرة على أن تنقل ما رأيته على وجهها عندما قالت: «ليليان».

سرت في جسدي قشعريرة. قشعريرة الفهم. تذكرت أني انتبهت لاختلاف لون بشرة ليليان عن بشرة سَفانة وعزوتها، ولما تصورت أنه يمكن أن يكون لون بشرة زوجها الذي لم أره.

وليليان. وتوحدها. أليس ذلك رمزًا عميقًا لكل ما حدث؟

وسرت في جسدي قشعريرة أخرى.

شعرت أني أحب سَفانة.

أحبها؟

لعلها كل الزلازل والأعاصير التي مررت بها اليوم. منذ تل التوبة والحوت المعماري الذي يريد أن يبتلع المدينة، إلى البيت الكبير وسيمفونية الصوت والضوء والحفرة والجثة وعمي ناثر والحاجة عادلة وطبق الشركسية والفتيات الإيزيديات. ربما كل هذا جعلني مرهفًا متوترًا بحيث وقفت أمام وجه سَفانة الذي جمع بين دمعة واحدة وابتسامة، وشعرت بالحب تجاهها.

عليَّ أن أنتظر مرور الزلازل وارتداداتها وانقضاء الأعاصير لكي أعرف إن كنت أحب سَفانة فعلًا أم هو مجرد إعجاب فنان بلوحة رسمها الخالق.

قال يحيى: «لماذا اخترت ألا أدخل البيت الكبير معك، أنا تحديدًا؟».

«لحمايتك طبعًا لو حدث شيء، حتى لا يعتقلوك». قالتها ببساطة متناهية. قررت أن تضحي بالبقية في سبيل يحيى.

نظر إليَّ يحيى منتصرًا. لقد تحول إقصاؤه إلى برهان على مكانته عند الحاجة. انتفخت أوداجه فعليًّا.

سألتها سَفانة: «ما هذا ستًّا؟ تضحين بنا؟».

أجابت الحاجة: «صهيب أمريكي، ولم يكن في البلد وقت الحادثة، وسيسافر خلال أيام، ربما قبل أن يتمكن أي أحد من اكتشاف أي شيء. وأنتِ محامية ويمكنك أن تدبري أمورك».

نظر يحيى إلى أسماء ثم سأل: «وأسماء؟ تريدين أن تضحي بها؟».

نقلت الحاجة عينها بين يحيى وأسماء.

ثم قالت: «أسماء كانت تعرف».

شهق الجميع. نظر يحيى إلى أسماء: «كنتِ تعرفين؟».

بان الفزع على وجه أسماء كما لو أنها قُبِض عليها متلبسة بجريمة.

- ليس بالضبط. لم أكن أعرف. كنت أشك فقط. مجرد شك.

«ما الذي جعلك تشكين؟». سألتها الحاجة كما لو أن هناك ثغرةً في خطتها، ثغرة تؤرقها منذ عشر سنوات وآن أوان مراجعتها.

- جئت في أثناء تلك الفترة، بعد أيام من اختفاء عما ناثر ودخلت في غرفة المعيشة الصيفية، ورأيت سجادة الصلاة مطوية بالطريقة نفسها التي كان عما ناثر يطويها، ووجدت أيضًا صورة يونس باشا على المنضدة مقلوبة، بالضبط كما كان يفعل لأنه لم يكن يصلي في غرفة فيها صور. ولم يكن عما ناثر قد دخل البيت منذ شهور حسب علمي. سألت خجُّو -الله يرحمها- إن كنت قد تصالحت معه وإن كان قد زارك، فارتبكت جدًّا وأنكرت بطريقة أكدت لي أنه جاء بالتأكيد.

قالت الحاجة بصوت منخفض: «خجُّو الغبية. الله يسامحها. كنت متأكدة أنها ستفعل شيئًا أخرق».

- ثم كانت أشجار الغاردينيا. كان واضحًا أن هناك من حفر تحتها وحاول إرجاعها. ولكن بطريقة غير احترافية، فماتت. مع اختفاء

عما ناثر، لم أستطع إلا أن أشك في وجود رابط بين الأمرين. مجرد شك.

- ولهذا كنتِ لا تتركين فرصة إلا وتذكرين فيها أن أشجار الغاردينيا ماتت حزنًا على ناثر. تريدين أن تري أثر ذلك عليَّ.

رفعت أسماء كتفيها وقالت: «مجرد شك. لم أقصد شيئًا».

- أسماء هذه التي تعتبرونها غبية، وتضحكون عليها لأنها تقول إن الأرض مسطحة، يمكن أن تكون دقيقة الملاحظة وأذكى منكم جميعًا.

قطبت أسماء جبينها عندما ذكرت الحاجة غباءها.

- لكنها مسطحة فعلًا. صدقوني مسطحة. حتى اسألوا...

قاطعها يحيى: «لا، لا، أرجوكِ ليس مجددًا. أبوس يدكِ ليس اليوم».

لكن ماذا عني أنا؟ هل اختارتني الحاجة فقط لكي أحمل المجرفة وأحفر لكي تحمي يحيى؟ كنت أعتقد أن ثمة شيئًا أعمق من هذا في اختياري. شيء رمزي مثلًا. أم أنني أبالغ كعادتي؟

- وأنا يا حاجة؟
- أنت ماذا؟
- هل كنت مجرد شخص يحمل المسحاة ليحفر بدلًا من يحيى؟ هل أجلت سفري وتأخرت عن عملي فقط لأنك كنتِ تحتاجين إلى شخص يحفر؟

لم أستطع إخفاء شعوري بالخيبة؛ صوتي كان يفضح ذلك بالتأكيد. كنت كمن أقول لها: «تصورت أنكم اعتبرتموني جزءًا من العائلة. ليس مجرد حفار قبور لم يتوفر غيره».

نظرت إليَّ كمن كان يتوقع هذا السؤال.

- كان يفترض أن تسأل سؤالًا آخر: لماذا فكرت أصلًا في إخراج ناثر؟ لمَ لا أتركه مدفونًا في مكانه؟ إن وجدوه قد يقولون هذا واحد من الآلاف الذين قتلتهم داعش ولن تتوجه أصابع الاتهام إلى أحد، وإن لم يجدوه، سيبقى في مكانه إلى يوم يبعثون.

صحيح. لماذا؟

أكملت: «لو لم تأتِ يا صهيب، وتتحدث بالطريقة التي تحدثت بها، لربما ما فكرت أصلًا في إخراجه من حيث دفنته. أخرجته خصيصى من أجلك».

- الطريقة التي تحدثت بها؟ ماذا تقصدين يا حاجة؟

- عندما قابلتنا أول مرة، سألتنا عن سكوتنا على داعش بطريقة شعرت فيها أنك تتهمنا بأننا كنا متواطئين معهم. شعرت أنك تعتبرنا دواعش تقريبًا. دواعش إلا ربع. أو أن داعش خرجت من بيننا. أردتك أن تعرف أننا دفعنا ثمنًا كبيرًا. ثمنًا باهظًا لا يستطيع أحد فهمه أو تخيله إلا لو كان هنا معنا وبيننا. أنا قتلت ابن أخي، ولست نادمة. أردتك أن تعرف ذلك بنفسك. تعيش جزءًا مما عشناه لكي تصدقنا.

صغرت كثيرًا. انكمشت داخل نفسي. زلزال آخر. هذه المرة رصاصة في منتصف الجبهة.

نعم. مهما قيل لي. مهما شرحوا لي. لم أكن سأتخيل أو أصدق. اليوم أعرف ما فعلوه لكي يغسلوا عارهم من داعش.

بعد زلازل اليوم، كانت تنقصني رصاصة من الحاجة.

أكملت الحاجة كما لو أنها لم تفعل شيئًا بي للتو: «وهناك أيضًا سبب آخر. لكي تعرف أن هناك كنزًا، وأن حصتك يجب أن تأخذها كاملةً، لكن

بعد أن أموت. لذا أنا أُشهِد الجميع الآن، صهيب سيسافر، وأنا سأموت -يومًا ما- وسيكون هناك الكنز الذي وعدتكم به. لديه حصة وعليكم أن تسلموها كاملةً له. أثق بكما يا سَفانة ويا يحيى. ولكن يجب أن أخبره وأُشهِدكم على ذلك. من ينسى منكم يذكره الآخر».

سرى صمت مصدوم بما قالته الحاجة. وجه يحيى تحول إلى لون أبيض شاحب شحوب الموتى. توقعت أن يقول الشهادة قبل أن تخرج روحه.

لكنه سألها: «ستا. هل هذه كذبة أخرى؟».

تغير وجه الحاجة فورًا: «أنا أكذب يا عجي[1]؟».

- آسف آسف، قصدي هل هذه خدعة أخرى؟

- لا، قطعًا. هناك كنز بالفعل. ما أخبرتكم عنه نفسه سابقًا. ولن أدلكم عليه. عندما أموت -إن شاء الله- هناك مفتاح الخزنة معلق في رقبتي، وفي الخزنة هناك ورقة فيها تخبركم عن مكانه.

تبادل الجميع النظرات. كان وجه يحيى قد تحول إلى لوحة إعلانات ضوئية. شعرت أنه يريد أن يرقص. كان كميت أُعِيد إلى الحياة فقام يريد أن يرقص فرحًا بالفرصة الثانية.

سألتها سَفانة: «يا حاجة، أرجوكِ لا تقولي إن الكنز في البيت الكبير!».

- لا أدري كيف صدقتم ذلك! كيف تصورتم أني سأتركه في البيت الكبير عندما أخرجتنا داعش منه؟ خيبتم أملي بالفعل عندما صدقتم ذلك جميعًا. أين كانت أدمغتكم؟

- أين إذن؟

---

(1) عجي: طفل، غالبًا طفل الشارع.

- لن أقول. قومي يا سَفانة، حضري المائدة. أنتم جياع أكيد بعد هذا اليوم المتعب. وأنتِ يا أسماء، هناك طبق شركسية في الثلاجة. اجلبيه.

تبادلنا جميعًا النظرات؛ الشركسية؟ بعد هذا الذي عرفناه!

قالت سَفانة: «الشركسية ثقيلة في الليل يا حاجة. لمَ لا نطلب شاورما؟ ربع ساعة وتأتي».

قالت كما لو أنها فهمت نظراتنا: «بل ستأكلون الشركسية. كلكم ستأكلون منها. هذه على روح لوز؛ كان يحبها كثيرًا. آخ يا لوز! وحدك كنت تفهمني من بينهم جميعًا».

على المائدة، التفتت أسماء إلى الحاجة وسألتها: «يا حاجة، عندي سؤال، أتمنى لو أعرف جوابه».

نظرت إليها الحاجة دون أن ترد.

- أعرف أنكِ تحبين الأفلام العربية القديمة. هل جاءتك فكرة الشركسية من فيلم (موعد على العشاء)، الفيلم الذي تضع فيه سعاد حسني السم لحسين فهمي؟

تبادلت سَفانة ويحيى النظرات. يحيى قال لأسماء فورًا: «ما هذا الكلام يا أسماء؟!».

توقعت أن تطلب الحاجة من يحيى أن يصفع أسماء. كما طلبت مني أن أصفع سَفانة.

لكنها هزت رأسها بأسف وقالت: «هذا الفيلم ليس قديمًا. انجغ[1] ثمانينيات. وسعاد وضعت السم في المسقعة، وليس الشركسية».

---

(1) انجغ: بالكاد.

لم أستطع استيعاب ما قالته الحاجة، لكن جملتها التالية كانت صادمةً أكثر: «ثم إنها في الفيلم أكلت معه المسقعة وماتت هي أيضًا. أعوذ باللَّه، أنا لا أنتحر. أخسر الدنيا والآخرة؟ قلت له معدتي تؤلمني وصدقني. الحمد لله».

***

وقفت تحت رشاش الماء الدافق بملابسي المتسخة بتراب الحفر في البيت الكبير.

كان التراب يسيح تحت قدمي.

ثم جلست على أرضية المغطس، تحت رشاش الماء، مسندًا ظهري إلى الحائط، بملابسي.

وجدت نفسي أتذكر كل ما فعله أبي معي. كل ما أتجنب ذكره وتذكره ومواجهته.

بدأت موهبتي في الرسم صغيرًا. كان الرسم مهربي. أرسم أصدقاء افتراضيين، وأقارب افتراضيين، وعالمًا افتراضيًّا أهرب إليه من عالمي الضيق. كنت أهرب بالرسم من العالم المحيط بي. من افتقادي للحنان والحميمية. لم أكن أفهم ذلك آنذاك. لم أكن أدرك حاجتي إلى الحنان. لكن يبدو أن الحنان حين يفتقد يترك فراغًا كبيرًا في النفس. حاولت أنا أن أردم هذا الفراغ بالرسم.

كان هناك تشجيع في البداية. في البداية فقط. عندما كبرت أكثر، وبدأ يبدو أنه أكثر من مجرد هواية أو تزجية لوقت الفراغ، أخذ أبي موقفًا مختلفًا. سكتت أمي ووافقته دون معارضة. لكنها كانت أقل تحمسًا منه، ومن ثم أصبح هو أكثر عدوانيةً، وهي أقرب إلى الحياد، وإن كانت موافقة ضمنيًّا على موقفه.

أبي كان يرى في شغفي للرسم حساسيةً مفرطةً لا تليق بالرجال أصلًا. كل الميول الفنية كان ينظر إليها على هذا النحو. لا بأس في أن تكون وسيلةً للترويح عن النفس في وقت الفراغ. أكثر من هذا، لا. لا وألف لا.

حدثت لحظة فاصلة في موقفه. عندما قلت إني أحارب حزني بالرسم. قلت هذا بغباء مفتخرًا كما لو كنت قد اكتشفت قانون الجاذبية للتو. يبدو الأمر بديهيًّا الآن. لكن ما قلته دق أجراس الخطر عند والدي. الرسم لم يكن مجرد هواية. لم أكن أريد أن أرسم مناظرَ طبيعية أو قططًا أو كلابًا أو شخصيات رسوم متحركة. كنت أرسم كوابيسي وأحلامي والشياطين التي تسكن داخلي. فهم والدي أن الأمر ليس هواية في وقت ضائع. بل بحث عن هوية مفقودة. هنا أخذ موقفه المعارض بشدة للرسم. ماذا تريد أن تكون؟ عليك أن تكون طبيبًا. يجب أن تكون طبيبًا. تجربته كمهندس لعقود أثبتت له أن الطب مهنة أكثر استقرارًا وأقل تنافسية في الولايات المتحدة، وكان عليَّ أن أسير حسب ما يراه. كانت والدتي مؤيدةً له تمامًا. الرسم لم يكن خيارًا في الأساس. رفضت الطب. حاولت مكرهًا أن أدخل المسارات التي تقودني إلى دراسة الطب. كرهت كل شيء. تعمدت أن أفشل. كان يمكنني أن أنجح وبتفوق، لكني كنت أكره كل شيء. هذا شيء لا أرى نفسي فيه. هذه الجملة على بساطتها وبديهيتها كانت غير مفهومة بالنسبة إلى والديَّ. لماذا يجب أن ترى نفسك أصلًا؟ المهم أين يراك الناس. لم يقولاها بهذه الصراحة. لكن رأي الناس بي كان أهم حتمًا من رأيي بنفسي وبمستقبلي.

ماذا تريد أن تصبح؟ رسامًا؟ فنانًا؟ تريد أن تشمت الموصل بنا بعد كل ما فعلناه لأجلك؟ ماذا تريد أن تفعل أيضًا؟ تطيل شعرك وترسم

لوحات في الشوارع للمارة وتبيت في نفق القطار؟ انكفينا وتواغينا. انفضحنا واتخزينا.

ثم قرر والدي، أن دراسة العمارة ستكون حلًّا وسطًا يُرضي بتصوره كل الأطراف التي لا طرف آخر فيها غيري له الحق أن يرضى أو يسخط أو أن يكون له أي رأي على الإطلاق. اعتقد والدي اعتقادًا يقينيًّا لا مجال لمراجعته أن الرسم والعمارة شيء واحد، وما دمت أحب الرسم، فيمكنني أن أدرس العمارة. للأسف حاولت أن أقنع نفسي بالشيء ذاته. كانا قد زرعا في داخلي كل ما يجب من ألغام وعقد نفسية لضمان الحصول على رضاهما عني. كنت قد رضعت الكثير من البرامج التي جعلتني أحسب الأمور كما علمتهما الموصل أن يحسباها. تمردا نعم. ودفعا ثمن التمرد حربًا وقطيعةً وجروحًا لا تندمل. ولكن، بقيت فيهما أمور رضعاها منذ صغرهما، وأورثاني إياها، كما لو كانا يتحديان عائلتيهما، ويتحديان الموصل. تركناك، ولكن لم نتركك. وزرعناك في ابننا الذي لم يرك.

قبلت الحل الوسط وأنا أوهم نفسي أن العمارة والرسم أبناء عم من الدرجة الأولى.

حتى هذا الحل الوسط كان مشروطًا بالحصول على قبول في أهم الجامعات الأمريكية. جامعات يمكن أن يقال عند التخرج منها: «مات العدو واصفغت ألوانو[1]».

---

(1) اصفغت ألوانو: اصفرت ألوانه، كناية عن الغيظ والغيرة.

كان والدي قد وضع نصب عيني أن أكون مثل رفعة الجادرجي[1] أو محمد مكية[2]، أشهر معماريي العراق الذين تجاوزت شهرتهما العراق إلى العالم.

كان عليَّ على الأقل أن أفوز بجائزة آغا خان للعمارة، كما فعل رفعة. أقل شيء.

ثم جاءت زها حديد لتتحول حياتي إلى جحيم.

كنت في آخر سنة في الدراسة عندما نالت زها أعلى جائزة معمارية في العالم. جائزة برتزكر، التي تعتبر مثل جائزة نوبل في العمارة.

أصفرَّ لون والدي. زها حديد من بيت حديد، من عوائل الموصل المعروفة. لكن آل يونس أعرق وأهم؛ عليك الآن أن تحوز هذه الجائزة. ما الذي تملكه زها وأنت لا تملكه؟ ما الذي وفره لها والدها محمد حديد وأنا لم أوفره لك؟

تحولت زها إلى كابوس. أصبحت موضوعًا مزمنًا ملازمًا لكل حوار أو جلسة مع أبي. حتى المكالمات الهاتفية السريعة التي كان يجريها معي وأنا في السكن الجامعي- كان يجب أن يلف ويدور ليصل إلى آل حديد وزها حديد وكيف أن آل يونس أعرق وأهم منهم في الموصل.

في مرحلة ما، طبع صورةً كبيرة لزها ووضعها أمام باب غرفتي. ثم قدرت أمي أن هذا كثير.

وكان هذا كثيرًا جدًّا.

---

(1) رفعة الجادرجي (1926-2020): معماري عراقي عالمي حصل على جائزة آغا خان للعمارة وجوائز دولية أخرى.

(2) محمد مكية (1914-2015): معماري ومؤلف عراقي له مكانة دولية، من أشهر تصاميمه مسجد السلطان قابوس، نال جوائز عالمية.

كان واضحًا من مسيرتي المهنية أني كمعماري عادي جدًّا، متوسط النجاح. وأحيانًا دون ذلك. لست عبقريًّا ولا ألمعيًّا ولا حتى (ناجحًا). مجرد معماريٍّ آخر من آلاف المعماريين الذين يتخرجون كل سنة.

والدي لم يستسلم. لم يكف عن ذكر زها حديد. لكنه تحول من استخدامها إلى وسيلة للتحفيز إلى أداة لتعذيبي وتوبيخي على فشلي. بقي حتى وفاته يستخدم ذلك. بل حتى وهو على سرير موته في المشفى في يوم وفاته، كان يستخدم ذلك.

كنت قد دفنت كل ذلك في أعماقي.

كما دفنت الرسم الذي هجرته تمامًا.

واليوم، وآل يونس يخرجون دفينهم، أجده يخرج من داخلي أيضًا.

يقف أمامي، أواجهه. يواجهني.

يونس بن متى

أنتظر النور ليدخل من فم الحوت. كلما فتح الحوت فكيه وهو خارج الماء.

أراقب النور وهو يتسرب ليغمرني.

أتنفسه كما لو كان هواءً. آخذ شهيقًا من النور ليدخل في روحي. في ظلمة بطن الحوت، أحتاج إلى النور في روحي كما تحتاج رئتاي إلى الهواء.

في بطن الحوت، شعرت أن الوقت توقف. كل شيء توقف.

دخلت في فجوة من الزمان والمكان.

فجوة مستمرة من الظلمة، ثم أخذت تتخللها لحظات قليلة من النور.

فكرت أولًا أنها النهاية حتمًا. وعندما استسلمت لذلك، شعرت بسكينة غريبة، فليحدث ما يحدث. لا فائدةَ من المحاولة. لا فائدةَ من اللوم أو الندم أو التذمر أو المقاومة. استسلمت.

ثم جاء النور ليقول لي إن ثمة أملًا. ليست النهاية. ربما النهاية، وربما لا. وربما ثمة بداية جديدة.

العبور من قعر الاستسلام إلى حافة الأمل كان مؤلمًا في البداية.

ربما كان أيسر أن أبقى في قعر بطن الحوت أنتظر حتفي.

لكن إرادة الحياة تمردت على يسر خيار الموت.

مدها النور بالقوة. شعرت بها تنمو في داخلي، كل أعضائي كانت ترغب في الضمور والموت والاندثار. إلا شيء في داخلي كان ينبض بالرغبة في الحياة.

إن كان لا بد من الموت، فعلى الأقل أن أقابله بعد أن أنجزت ما كُلفت به.

أقابله وأنا في طريقي إلى نينوى، على الأقل.

ليس هاربًا منها.

***

ناجيته.

الإله الواحد الحق.

في قعر الظلمة. في الليل الذي يحاصرني ويخترقني ويسكنني.

قلت له: «بطن الحوت الذي وضعتني فيه لتنقذني من بطن الحوت الآخر الذي كنت فيه طيلة حياتي دون أن أعرف ذلك».

كنت أسيرًا لحوت آخر. وضعت نفسي فيه بإرادتي دون أن أعرف أنه حوت.

كنت أسيرًا لخوفي. لامتناعي عن المواجهة. كنت أسيرًا لخوفي من أن أفشل. أختار المهام المضمونة التي أعرف أن نجاحي فيها مضمون. أقدم المواعظ والنصائح لأشخاص يعرفون ما سأقوله لهم سلفًا. أتجنب أن أذهب إلى الضفة الأخرى من الناس والعالم والتحديات.

كنت في بطن حوتي أنا. حوت نفسي. حوت أناي الذي جعلني أسيرًا لمخاوفي من أن أخرج. من أن أجرب شيئًا مختلفًا عما تعودته.

كنت في بطن الحوت الأقسى والأشد خبثًا. لأني توهمت أنه منزلي. أنه كل عالمي. أنه حدودي. كل شيء خارج بطنه لا يمكن أن يحدث. لا يمكن أن أخطو إليه.

وعندما جاء الملاك ليهمس في أذني: «نينوى»، وقعت همسته في أذني كصرخة تريد مني أن أترك بطن الحوت الذي لم أعرف غيره موطنًا لي.

لم أكن أعرف أني في بطن الحوت الكبير، الحوت الحقيقي، إلا هنا، في ظلمة بطن الحوت الأصغر، الحوت الذي التقمني من البحر، الذي أنقذني من الغرق.

في ظلمة بطن الحوت الأصغر، رأيت الحقيقة التي كنت عاجزًا عن رؤيتها تحت الشمس.

رأيت بطن الحوت الذي ظلمت نفسي بالبقاء فيه. برفضي الخروج منه.

همست: «سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين».

وتدفق النور.

هذه المرة كان مختلفًا.

لم يكن من فم الحوت.

بل من أعماقي.

مد لي النور سلمًا طويلًا متدفقًا من القعر، حيث أقبع مأسورًا بحوتي، محملًا بضعفي، إلى الأعلى... حيث فم الحوت مفتوح نحو السماء.

درجة درجة، بدأت أتحسس طريقي...

أعلو وأخرج من قعري.

درجة درجة إلى الأعلى.

***

كان الحوت صاحبًا لي. مثل صاحب أهدى إليَّ عيوبي. عرفني بنفسي. أنقذني بفضل الله من أن أغرق في نفسي. أنا وحوتي الذي كنت أحمله معي في هروبي من نينوى.

تركني صاحبي عند اليابسة. لم أعرف أين بالضبط.

لكني كنت أعرف وجهتي هذه المرة.

نينوى.

غريب سيدخل نينوى. لكن هذه المرة بعد أن خرج من بطن الحوت.

سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين.

يحيى

رغم خيبة أملي الكبيرة بأن ما وجدناه في البيت الكبير لم يكن الكنز الموعود الذي أحلم به وأبني مشاريعي عليه منذ أن تحدثت الحاجة عنه، إلا أني كنت أشعر براحة غريبة.

عمي ناثر ميت بالفعل.

لسنوات طويلة كنت أخشى أن يظهر فجأةً. أن يكون قد هرب من داعش لأي سبب، وتمكن من إخفاء أثره منهم، ومن ثم منًّا ومن الحكومة. من الجميع.

ما دام لا جثة، فقد يكون حيًّا.

ما أصررنا عليه أمام الناس من أن داعش قد قتلته كان مجرد وهمٍ نحفظ فيه ماء وجه العائلة.

كنا نعرف أن داعش لا تبالي بأن تعلن عن كل جرائمها وبفخر شديد؛ صورت أفظع مقاطع القتل البشع وبما لا يخطر على بال مخرجي أفلام الرعب وبثتها علنًا، بل كانت تجبر الناس على مشاهدة تنفيذها لعقوباتها مباشرةً، ومن ثم تبث ما صورته على شاشات كبيرة وتجبر الناس على التجمع لمشاهدتها.

لم يخفوا شيئًا من هذا. كانوا فخورين به. كان هذا كله جزءًا من خطتهم لفرض السيطرة وإرهاب الناس وترويعهم.

ما الذي يجعلهم يصلون إلى عمي ناثر وينكرونه؟

حتى موضوع البيت الكبير والاستيلاء عليه. يمكن أن يكون مبررًا للتخلص من عمي ناثر وإعدامه، لكنه لن يكون مبررًا لإخفاء ذلك.

كنا نقول مبررات كثيرة للناس، همسًا في بداية أيام داعش، وعلنًا بعد التحرير. مبررات مثل: لأن داعش لا تريد الاصطدام بعوائل الموصل العريقة، لأن للدكتور ناثر مكانة وشعبية عند الناس... إلى آخره. هراء. كله هراء. داعش لم تكن تكترث لا لعوائل ولا لقبائل. كانت تسيطر عليها فكرة مجنونة أنها منصورة من الله بغض النظر عن أي شيء. وأن دولتها باقية وتتمدد. وأنها ستحارب كل العالم وتنتصر. كانوا مقتنعين بذلك كما يقتنع متعاطي حبوب الهلوسة أنه يحلق عاليًا في السماء ويطير بين الغيوم.

كنت أعرف تمامًا، لو كانوا يريدون قتل عمي ناثر لأي سبب يمكن أن يكون قد حدث منه، فسيفعلون ذلك في ساحة عامة، ويعلنون أنه مرتد دون أي مشكلة.

لم تكن لعمي ناثر تلك الشعبية أصلًا. وأغلب من يعرفه لم يكن ليكترث بموته.

نحن، أقرب الناس إليه، كنا سنعتبر أنفسنا محظوظين بالتخلص منه.

لم أكن مقتنعًا بأن داعش قتلته، رغم كل ما كنت أعلنه وأصر عليه.

ربما أحد الدواعش دون قرار من التنظيم؟ ممكن. لكننا لم نسمع بشيء مشابه. حتى لو كان الأمر شخصيًّا بين أحد الدواعش وبين عمي ناثر، كان يمكن لهذا الداعشي أن يتهم عمي بالتواصل مع جهة أمنية ويبرر قتله بذلك. فعلوا ذلك مع كثيرين. صفوا أعداءهم الشخصيين بهذه

الطريقة. الاتصال مع الجهات الأمنية كان التهمة الأسهل والأصعب في إثبات النفي. أي استعمال للهاتف الشخصي كان يمكن أن يفسَّر بذلك.

طيلة سنوات، كان الخوف يسير معي كظلي.

ربما يظهر عمي ناثر فجأةً.

أي رقم غريب يتصل، أي دقة على الباب. كنت أقول في نفسي: «يا رب. لا تدعه يكون عمي ناثر».

كنت أشك أنه هرب إلى أربيل عند زوجته وأسرته واختبأ عندها.

حاولت أن أراقب منزلهم. اتفقت مع البقال المجاور. لم يكذب البقال خبرًا. أقل من أسبوع وأخبر زوجة عمي بالأمر. اتصلت وهي تضحك عاتبةً: «لو كان قد جاءني حيًّا لقتلته بنفسي».

رغم ذلك، كنت أخاف من أن يكون حيًّا. أن يظهر مجددًا في حياتنا. كلما سارت السنوات وزادت، كان هذا الاحتمال يزيدني قلقًا. كنت قد حسمت أمري، فيما لو ظهر، لم أكن سأتردد لحظةً في أن أسلمه للسلطات. قراري كان محسومًا. بلا أي تردد. بلا أي شك في صواب قراري.

اليوم أعرف أن الحاجة عادلة وفرت علينا جميعًا كل ذلك.

أخذت القرار الصواب في الوقت الصواب ونفذته بالنيابة عن الجميع.

أدين لها بالكثير.

رغم ثقتي برجاحة عقلها، استغربت البطانية التي استخدمتها لوضع بقايا عمي ناثر. اختارت بطانيةً غاليةَ الثمن، تقريبًا جديدة. النساء لا حل لهن مع التبذير. حتى امرأة عاقلة مثل الحاجة عدلة تتصرف هكذا. كان يمكن أن تجد بطانيةً قديمة مهترئة وتستخدمها ما دامت ستُرمَى تحت التراب في كل الأحوال. لو كان الأمر لي لما استخدمت سوى كيس

قمامة واحد. أو كيسين على أقصى تقدير. لم يعد ممكنًا الاستفادة من البطانية للأسف.

دخلت المقبرة دون مشكلة، سألني الحارس عن سبب دخولي في هذا الوقت المتأخر فقلت إني أضعت ساعتي آنفًا وإني آمل أن أجدها في المقبرة. سمح لي بالدخول وعاد إلى نومه.

كانت الحفرة معدة كما طلبت الحاجة. الآن أفهم ما اعتبرته غريبًا في طلباتها. حفرة بعيدة عن قبور الجميع، في زاوية المقبرة. لولا خشيتي من الكاميرات لرميته في أقرب حاوية نفايات. تساءلت مع نفسي إن كان هذا حرامًا أم لا. أن أرميه في حاوية نفايات. ثم استبعدت الأمر. ما دمت لن أفعله بأي حال من الأحوال فلمَ التفكير أصلًا في الحلال والحرام. الحرام الذي أنا واثق به هو ما كان يؤمن به عمي ناثر ويدافع عنه.

وضعت البطانية داخل الحفرة. كنت أعتقد أن قلبي سيرقُّ في هذه اللحظات، ساورني شعور أني ربما أسقط أسيرًا للحظة ضعف أمام الموت. لم يحدث شيء كهذا. كنت فقط أريد أن أنهي الكابوس وأطوي صفحته. عمي ناثر مات ودفناه. لن أخشى بعد اليوم من اتصال غريب أو ظهور مفاجئ. انتهى.

وضعت البطانية بهدوء احترامًا للموت لا لعمي. وأخذت أهيل التراب عليه.

في المعتاد في لحظات كهذه، أن يذكر الناس محاسن موتاهم. مهما كانوا سيئين. يبحث الناس عن تفاصيل صغيرة لكي تجعلهم يبكون الراحل لعلهم يجدون من يبكي عليهم عند رحيلهم. تقضي الزوجة يومها في الدعاء على زوجها الظالم الخائن، وعندما يموت، تنوح وتلطم وتسميه حبيبها وسندها وظهرها.

لم أجد حسنةً واحدة لعمي ناثر.

عندما وعيت، كان أبي قد استشهد، وكان ناثر هو العم الذي يفترض أن يقوم مقام الأب.

لم يفعل.

ليته اكتفى بعدم الفعل.

ليته ترك مكان أبي فارغًا فحسب.

كان ذلك سيكون مؤلمًا، غياب الأب وغياب من يقوم بدوره.

لكنه سيكون أفضل مما فعله ناثر.

التأنيب واللوم والسخرية والاستهزاء والانتقاص، هذا كان ما وجدته منه في طفولتي.

كنت في الصف الخامس الابتدائي عندما رآني ألعب بالكرة في حوش البيت الكبير. كنت مرتديًا شورتًا قصيرًا يصل إلى الركبة في صيف قائظ.

قال لي: «أنت لا تستحق أن تكون من آل يونس».

لا أزال أتعرق خجلًا كلما تذكرت هذه الكلمات. النبرة. النظرة.

لولا زوج عمتي باكزة، الدكتور عبد الله المفتي، لكنت ضعت.

تقدم ليأخذ دور الأب، بعد أن لاحظ أن هذا الفراغ لا يمكن لناثر أن يسده.

ولولا وجود الحاجة عادلة لأكل عمي ناثر حقوقنا من الإرث.

عندما أنهيت عملي في ردم الحفرة، فكرت مع نفسي: «تأخرت الحاجة فيما فعلته».

**

لسبب لم أفهمه تمامًا، أعادتني رائحة التراب إلى الأيام الأخيرة من داعش، قبل أن تتم عمليات التحرير.

كان الجيش قد دخل حينا. تحررنا من داعش.

لكن كان الدواعش لا يزالون يقومون بعمليات انتحارية. يقودون سيارات مفخخة يعتقدون أنها ستسرع بهم إلى الحوريات، ويفاجَؤون بزبانية جهنم تستقبلهم.

فجر أحدهم نفسه وسيارته قرب نقطة للجيش قرب البيت. اهتز البيت كما لو أن زلزالًا ضربه. كان جنيد جالسًا بقربي. كان في الثالثة عشرة آنذاك.

رماه الانفجار على الحائط المواجه، ثم سقط على الأرض مغشيًّا عليه. عندما حاولت رفعه، وجدت رأسه مملوءًا بالدم. كان ينزف.

حملته وركضت به. لم أفكر في شيء. وجدت نفسي في الشارع قرب نقطة الجيش ولا يزال دخان الانفجار يغطي المكان.

لم يصب أحد في نقطة الجيش. شاهدوني أحمل طفلي فساعدوني. نقلونا في المدرعة إلى نقطة طبابة. كان جنيد قد أخذ يفيق. لكنه قال ما جعلني أفقد آخر ذرة من أعصابي.

قال إنه لا يرى شيئًا.

كدت أُجَن.

في نقطة الطبابة أسعفوا جروحه بسرعة وطلبوا سيارة إسعافٍ تقلنا إلى المشفى.

سائق سيارة الإسعاف، قبل أن نصل، التفت إليَّ وقال شيئًا لن أنساه ما حييت.

قال لي: «تحتاج إلى فلوس؟».

وجدني أبًا جزعًا يريد إنقاذ ابنه، كنت أرتدي نعالًا في قدمي، نعالًا ما كان يمكن لي أن أفكر في أن أخطو خطوة واحدة بها خارج المنزل. أرتدي قميصًا فقط. دون سترة. وكان الجو لا يزال باردًا. لا نزال في آذار.

كنت لا أحمل مالًا بالفعل. ولا حتى دينارًا واحدًا. ودون هوية. دون أي شيء.

قلت له: «شكرًا معي».

مد يده في جيبه وأخرج مبلغًا من المال. خمسة وعشرون ألف دينار.

ترددت.

شجعني.

كان شخصًا ليس من أهل الموصل. لم أستطع التأكد من لهجته. ربما كان جنوبيًّا. أو لا أعرف. لكنه لم يكن من أهل الموصل. آل يونس لا يعنون له أي شيء. لم يسمع بهم بالتأكيد. عاملني كأب يريد أن ينقذ ابنه. لا أكثر ولا أقل.

قبلت المبلغ. أخذت عشرة آلاف فقط أولًا. لكنه أصر أن آخذ المبلغ كاملًا. سألته عن اسمه كي أرده له. فرفض.

عندما أدخلوا جنيد إلى الأشعة، وقفت أمام النافذة، كانت مفتوحةً، وغمرتني رائحة التراب كما لو كانت تريد أن تواسيني.

رفعت عيني إلى السماء. وطلبت منه أن يحفظ نظر جنيد.

وعدته وعودًا أحاول أن أفي بها إلى اليوم.

في المساء كان جنيد قد بدأ يستعيد نظره.

***

عندما خرجت من المقبرة، سألني الحارس وهو يفتح البوابة.

- وجدت الساعة؟

- نعم، الحمد لله.

صهيب بن سنان

اشترتني مكة. ثم أعتقتني.

ولم أكن أعلم أنها ستعتقني مرتين.

بعد أن عرف عبد الله بن جدعان -وهو سيد من سادات مكة وقد اشتراني من بني كلب- بقصتي، أعتقني، ووهبني مالًا لأبدأ به تجارة لي. وصرت حليفًا مواليًا لقبيلته، بني تيم.

كان عبد الله بن جدعان رجلًا كريمًا شريفًا شهمًا. ولم يكن كل أهل مكة مثله.

بالنسبة إليهم، أصبح اسمي صهيب الرومي، كما لو أني لم أكن قبل أن يختطفني الروم.

قلت لكثيرين قصتي، وإني من الموصل، نينوى، لكن كنيتي غلبت نسبي. ساهم في ذلك لون بشرتي ولكنة لساني. كنت غريب نينوى الذي أصبح عبدًا روميًّا في مكة، ثم أُعتِق وامتلك حريته، ولكنه بقيَ في أعماقه غريب نينوى الذي يسكن في مكة.

لم أكن أعرف أن مكة ستعتقني مرة أخرى، ستعيدني إلى نينوى. أو تعيد نينوى إليَّ.

ترددت في مكة أنباء يتناقلها البعض همسًا. محمد بن عبد الله يقول إن الوحي قد جاءه. نبي في جزيرة العرب؟ كنت أذكر أن شيئًا كهذا قد

ذكر أمامي من قبل حبر من أحبار الروم رأيته في بادية الشام. أيكون هو؟ لم لا؟ عرفت محمدًا كما عرفه كل من سكن مكة. الصادق الأمين. سمعته تسبقه، وطباعه تصدقها.

كان عمار بن ياسر ينقل لي الآيات التي نزلت على محمد. كانت تدخل قلبي على الفور. لم آخذ وقتًا طويلًا حتى قلت الشهادتين اللتين تُدخلانني في هذا الدين الجديد.

كنا في دار الأرقم بن الأرقم، نتلو الآيات، عندما سمعت آيةً لم أكن قد سمعتها من قبل.

وقف شعر رأسي. وقفت كل شعرة في جسدي كما لو كانت تتأهب لملاقاة مجهول غامض، عندما سمعت الآيات..

«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ في العراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين».

أمسكت بيد عمار الذي كان يجلس على الأرض بجانبي.

«ما الأمر؟». سألني عمار.

قلت له: «صاحب الحوت...».

- ما به؟

كنت على وشك أن أقول إني أعرفه. لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا.

«تعرف قصته؟». سألني عمار مجددًا.

هززت رأسي.

لكن الأمر لم يكن مجرد معرفتي بقصته. بل إن قصته كانت جزءًا من المكان الذي جئت منه.

نزلت دموعي. شعرت كما لو أن نينوى تومئ لو من بعيد. شعرت بحضن أمي يحتويني. سمعت أبي يقول لي إنه سامحني عن أغنامه التي ضاعت.

غريبان من نينوى، أنا وصاحب الحوت، يلتقيان في مكة، دون سابق ميعاد.

هنا ودَّعت غربتي بلا عودة.

أعتقتني مكة منها.

سَفانة

بين كل ما حدث أمس، استيقظت وفي ذهني شيء واحد لم أستطع أن أمحوه من ذهني.

نمت وأنا أفكر فيه.

واستيقظت وأنا أفكر فيه، كما لو أني نمت وعقلي لا يزال يفكر فيه.

غالبًا هذا ما حدث.

كل تلك الأحداث التي مررت بها خلال أقل من 24 ساعة: من العثور على بقايا جثة بدلًا من الكنز، وصولًا إلى اكتشاف أنها جثة خالي، مرورًا بوضعها في صندوق سيارتي إلى اكتشاف أن الحاجة عادلة قد قتلته بطبق شركسية، ومن ثم اكتشاف أن هناك كنزًا فعليًّا لا ترغب الحاجة في الكشف عنه إلا بعد وفاتها. كل تلك الأحداث التي يتطلب كل منها أن أربط حزام الأمان وبشدة، لم يبقَ في ذهني منها شيء كما فعلت نظرة صهيب التي انتبهت فجأةً لها.

رفعت عيني إليه وأنا أحاول أن أمسح دمعتي. قلت «ليليان». ورأيت النظرة في عينيه. في أجزاء من الثانية تذكرت ما قالته ليليان صباحًا. لكن لا. لم تكن هناك قلوب حمراء في عيني صهيب. كان ينظر بدهشة. بإعجاب لا يمكن أن تخطئه عيناي. ابتلع ريقه مرتبكًا بينما فمه نصف مفتوح. بقي على ذلك قليلًا كما لو كان يريد أن تحفظ خلايا ذاكرته

المشهد. أما أنا فقد غمرني سيل بارد من المشاعر التي توهمت أنها ماتت من زمن طويل. ماتت؟ بل ربما لم تكن موجودةً من الأساس من قبل. حتى مع خالد -الله يرحمه- لم أعرف هذه المشاعر تمامًا. أحببته نعم، بل أحببته جدًّا، ولكن لم تزلزلني مشاعري يومًا ما؛ كانت مشاعري عقلانيةً، فيها قرار وجدول زمني وزر تشغيل وصمام سيطرة. كنت أريد أن ألحق القطار قبل أن يفوتني إلى الأبد، ولم أنكر يومًا مع نفسي أني كنت أيضًا أريد أن أختار القطار الذي يسير عكس ما تريده الأسرة؛ كنت غاضبةً من قوانينهم ومعاييرهم التي زرعوها في داخلي وتحولت إلى عقد جعلت تعايشي مع نفسي ومع محيطي صعبًا مليئًا بالأزمات والمواجهات. وجاء خالد بقطار يأخذني إلى عدة محطات في آن واحد. رجل، شهم ومحترم ويريد الزواج بي. عسكري ولديه شهادتان جامعيتان. سمعة نظيفة، جيبه منقوب وينفق بلا حساب، على بيته وعلى الآخرين وعلى نفسه، عكس كل من عرفت من رجال العائلة. لم يتنقل يومًا في البيت من غرفة إلى أخرى ليطفئ الأضواء ويغلق السخَّان ويتحدث عن التوفير. وربما الأهم من كل ذلك: من أصل قرويٍّ. كانت لديَّ رغبة خفية في الانتقام من آل يونس. لا أنكر ذلك الآن. وربما لم أنكره حتى وقتها؛ آل يونس دفنوني حية. تقدم لي أكثر من شخص في حياة أبي. رفضهم بقسوة؛ لن يذهب إرث آل يونس إلى غريب طامع. حسنًا يا أبي. كان هؤلاء من الموصل وبعضهم كانوا مناسبين لي شخصيًّا، ولكنهم لم يستوفوا شروطك التي كانت قابلةً للتطبيق في الخمسينيات والستينيات على أقصى وأقسى وأبعد تقدير. لكنها أصبحت منتهية الفاعلية منذ أن وُلِدت وربما قبلها. ثم أصبحت بالتدريج مستحيلةً عندما تغيرت الموصل ونسيجها النسيج الاجتماعية. أصبحنا عائلةً من الديناصورات التي تحارب الانقراض دون أن تحاول تقديم أي تنازل للظروف الجديدة. كنا -وبضع عوائل أخرى- نصارع من أجل البقاء

بمنطق لعبة الكراسي الموسيقية. الكراسي تنقص بالتدريج، واللاعبون يخرجون، وفي النهاية سيخسر الجميع.

جاء خالد فرصةً لتغيير كل ذلك وليوفر لي الحماية في وسطٍ متنامي الصعوبات ومدينةٍ لم يعد يأمن فيها أحد. بالتأكيد أحببته. وهو أيضًا أحبني. لا أشك في ذلك. لكن غالبًا بالطريقة العقلانية نفسها. محامية من آل يونس ولديها إرثها. لا أشك أيضًا أنه كان يتمنى لو كانت بشرتي أفتح قليلًا. كل الموصل، الأصلي فيها والغريب عنها، ابن المدينة وابن القرية، كلهم يفكرون هكذا. لكنه أحبني على أي حال. حب من دون أغاني كاظم الساهر ولا أشعار نزار قباني. لكنه حب على أي حال. أقصى ما يمكن أن أحصل عليه بملامحي العادية وبشرتي السمراء في الموصل.

لكن هذه النظرة التي كانت قمة أحداث الأمس بالنسبة إليَّ. هذه النظرة التي لم أكن أعرف أنها موجودة أصلًا. ناهيك بأن توجه إليَّ. هذه النظرة كانت شيئًا مختلفًا أيقظ كل مشاعر الأنثى المؤْودة تحت أثقال العقلانية والنضوج والمعايير والشروط ومواعيد القطارات التي لم تعد تمر أصلًا بمحطتي.

كل هذا من أجل نظرة لعل راداراتي أخطأت في تفسيرها. ربما كان كل هذا محض إنذار كاذب. لعله كان متأثرًا هو الآخر بكل الجنون الذي واجهه أمس. لعلي أتوهم كل شيء بضغط هرموناتي لا أكثر. مهما تجاهلتها، مهما حاولت دفنها بالأمومة والمسؤولية والمهنية، لا تزال موجودة.

احتضنت ليليان. حبي لها وحبها لي هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة التي لا تحتاج إلى رادار أو سونار أو أي جهاز كشف آخر. كنت قد

رجعت أمس متأخرةً ووجدتها نائمةً في سريري. في العادة تتسلل إلى سريري بعد منتصف الليل. وتنام وهي تحتضنني.

نهضت لأبدأ في إعداد الإفطار. للجمعةِ طقوسي أنا وليليان في الإفطار، نلعب أكثر مما نأكل. ليس لي سواها وعليَّ أن أستثمر كل ما يمكنني في ذلك. تأملت في المرآة قليلًا، تحسست وجهي وجسدي. بالتأكيد إنذار كاذب. صهيب أمريكي، رأى أشكالًا وألوانًا؛ لا يمكن أن يعجب بي. أم لأنه أمريكي فربما يكون قد خرج من معايير الجمال القصوى عند أهل الموصل (بيضا حمغا عيونا زغق مطبطبي[1]). الذوق الأمريكي مختلف، وهناك بيض يتزوجون من نسوة سوداوات البشرة. هل هو منهم؟

هذا يحتاج إلى حظ استثنائي، وأنا أعرف حظي. حظي الذي جعل خالي يتزوج بمسيحية وينجب منها صهيب في قارة أخرى. حظي الذي جعل بشرتي سمراء وملامحي أقل من عادية. حظي الذي أخذ مني خالد بعد أشهر فقط من زواجي به. هل يمكن أن يتغير فجأةً ويصلح كل ما مضى ليضع ابن خالي في طريقي مجددًا؟ لا طبعًا. حظي وأعرفه. إنذار كاذب. مجرد أوهام مدعومة بتغيرات هرمونية. حاولت أن أنفض كل ما فكرت فيه عن رأسي. الأوهام والآمال متعبة وغير مجدية. عليَّ أن أعود إلى واقعي وأنسى كل ما له علاقة بالزلزال؛ كان مجرد إنذار كاذب.

وصل إشعار على هاتفي. لا بد أنه أول طلائع حملة الـ (جمعة مباركة) التي تستمر حتى الظهيرة. لكن هذا الإشعار جاء أبكر من المعتاد. الخير في البكور على أي حال. تأتي رسائل المباركة من مجموعات أقارب وصديقات وجارات، موكلين انتهيت من دعاواهم منذ سنوات، الحلاقة التي ذهبت لها مرة واحدة قبل سنوات، مستأجرون في

---

(1) بيضا حمغا عيونا زرق مطبطبي: بيضاء حمراء عيونها زرقاء ممتلئة.

أملاك آل يونس وعمال التوصيل الذين لا أذكر ماذا أوصلوا لي. كلهم يتمنون لي ولعشرات غيري في اللحظة نفسها جمعة مباركة.

فتحت هاتفي دون اهتمام. وجدت أنها رسالة من صهيب. من المستبعد أن يكون قد انضم إلى كتيبة الجمعة بهذه السرعة. لكنها جمعة مباركة بالفعل.

كتب لي: «صباح الخير».

هل يفترض أن أرد فورًا أم أنتظر قليلًا حسب قواعد لعبة الثقل وجر الحبل؟

لا وقت لهذا. لقد فات القطار. بل لقد أغلقت المحطة.

رددت فورًا: «صباح الخيرات».

أرسل إليَّ صورة.

صورة مرسومة بقلم رصاص، لامرأة وجهها نصف مبتسم نصف حزين. رسم رائع بالفعل.

كتبت له: «من رسم هذه؟ أنت؟».

رد: «نعم. سهرت الليل كله وأنا أرسمها».

نظرت مجددًا إلى الرسم.

من هذه؟ لحظة. دق قلبي بعنف. هل هذه أنا؟

لكن هذه المرأة في الصورة. إنها جميلة.

هل يمكن أن تكون أنا؟

دق قلبي بعنف أكبر. متأكدة أن ثمة قلوبًا حمراء في عيني. لعلها ترقص في عيني أيضًا.

يقولون إن الفنانين يرسمون ما يرونه هم. بأعينهم هم. من الواضح أن صهيب يحتاج إلى فحص عاجل لنظره. أو ربما يجب تأجيل ذلك. يجب منع ذلك.

كتبت له كما لو أني لم أعرف من هذه المرأة أو أن الأمر لا يعنيني أصلًا: «ترسم بشكل جميل جدًّا يا صهيب. لست خبيرةً في الفن، لكنك موهوب فعلًا».

سكت كما لو أنه كان ينتظر جوابًا آخر.

ثم كتب: «شكرًا».

لقد خيبت أمله.

ثم أرسل: «هل تعرفين من تكون هذه التي في الصورة، أم أن رسمي سيئ لهذه الدرجة؟!».

ارتبكت. ماذا لو لم يكن يقصدني وأجبته بأني من في الرسم؟ سيكون ذلك كفيلًا بأن أتجنب رؤيته حتى يوم القيامة على الأقل.

لكن، من يقصد إذن!

رددت بجواب غامض: «عرفت طبعًا. هل تعتقد أني عمياء؟».

قرأت ما أرسلته ووددت لو أن الانترنت ينقطع عن العالم كله بحيث لا تصل إليه الرسالة. أي جواب غليظ هذا. هل تعتقد أني عمياء؟ لا. أنا مغفلة وغبية فقط.

الرسالة وصلت إليه وقرأها. مع الأسف.

أرسل قلبًا أزرق اللون.

لماذا أزرق؟ لعل هذا يعبر عن خيبة أمله بجوابي السخيف.

ثم كتب: «عندي بعض التعديلات عليها. لم تنتهِ بعد. لكني أحببت أن تريها أولًا».

لم أرد. لا أعرف بماذا أرد. ضعيفة جدًّا في لعبة الكلمات الرومانسية المتقاطعة. الخبرة صفر.

أكمل هو: «سأسميها الموصل».

فكرت: «هل هذا جيد؟ ألم يكن يجب أن يكون الاسم أكثر رومانسية؟ غادة الموصل مثلًا. أو وردة الموصل. أو أي شيء من هذا القبيل».

رددت: «الموصل. جميل جدًّا. اسم مميز جدًّا».

لم أقصد السخرية. كان ردًّا غبيًّا فحسب. لكن غالبًا سيفهم أني أسخر منه.

أكمل: «سأجلبها معي اليوم وأهديك إياها. يجب أن أودع الحاجة وأودع الجميع».

يودعنا؟

أرسل: «حجزت على طائرة التاسعة صباحًا من مطار أربيل. سأسافر غدًا».

بنى لي قصرًا رائعًا في دقائق ثم دخل فيه بحزام ناسف.

ماذا كنتِ تظنين يا غبية؟ يا عديمة الحظ. تعرفين حظك. هل كنت تعتقدين أنه سيترك أمريكا ويبقى مرابطًا في الموصل معلقًا بضفيرتك التي لا وجود لها في الأساس؟

كتبت له وقد عدت إلى سَفانة المحامية. العقلانية. المسؤولة: «بالسلامة إن شاء الله، نورت وشرفت، سأتفق مع الحاجة وأمر عليك في الفندق».

حظي وأعرفه جيدًا. لا جديد.

عدَّاس

سمعت به قبل أن يأتي إلى الطائف. ذلك الصادق الأمين من قريش الذي يقول إنه نبي. كذبته مكة وحاربه قومه، وجاء يدعو أهل الطائف إلى دينه ويطلب منهم نصرته.

نبي في جزيرة العرب؟ لا أعلم. لمَ لا؟ لم يحدث من قبل. لكن ما المانع من أن يحدث؟ هذه الأرض لا تعرف ذلك. لكن من حيث أتيت، نعم، هناك نبوات وهناك أنبياء.

حملت معي إيماني بالنبوات وبإله النبوات من نينوى؛ تربيت وكبرت على ذلك. كنت نصرانيًّا من نساطرة نينوى، وكان والدي راعيًا في إحدى بيع نينوى. كنت في طريقي في رحلة تجارة إلى الشام عندما أغارت على قافلتنا قبيلة من البدو ووجدت نفسي أُباع من سيد إلى آخر إلى أن صرت ملكًا لأخوين من سادات قريش: عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة. جعلاني خادمًا أرعى بستانًا لهما في الطائف. لم أذهب إلى مكة قط، بقيت في الطائف أرعى بستانهما الذي يزورانه بين الحين والآخر. لم يكترثا لديني ولم يطلبا مني أن أعبد آلهتهم أو آلهة ثقيف، القبيلة الأقوى في الطائف. لكنني عندما رأيت الأصنام التي يعبدها العرب، زدت من تمسكي بنصرانيتي.

لم أستغرب رفض أهل الطائف لدعوة محمد وطلبه النصرة منهم، لكن ما فعلوه كان أكثر من الرفض والصد، بل سلطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم يلقون عليه الحجارة في شوارع الطائف.

عتبة وشيبة كانا في بستانهما عندما حدث ذلك. كانا يرفضان دعوة محمد ويتهمانه بشتى الاتهامات، لكن شيئًا من العصبية والرحمة تحركت عندما شاهدا ما يحدث لابن عمهما ابن مكة من قبل سفهاء الطائف؛ طلبا مني أن أذهب إليه بقطفة عنب تخفف عنه عناءَ ما واجهه في يومه الصعب. كان يستريح في ظل أشجار في بستان قريب.

اخترت له أفضل قطفة عنب، وأخذت معي ما يرويه من عطش وظمأٍ في يومه هذا.

اقتربت منه بهدوء. سمعته يتحدث. كان وحيدًا، مع من يتحدث؟ إلى أن اقتربت أكثر وسمعته.

«اللَّهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس.

أنت رب المستضعفين وأنت ربي،

إلى من تكلني؟

إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري؟

إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي،

غير أن عافيتك هي أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك، أو ينزل بي سخطك.

لك العتبى حتى ترضى.

ولا حول ولا قوة إلا بك».

لم يكن وحده، كان مع ربه، يناجيه. يشكو إليه ما مر به. أيكون هذا كذابًا؟ وهو يتحدث مع ربه في خفية لا يسمعه فيها أحد!

لم يكن ربه وحده، كان رب كل المستضعفين أيضًا، ربي أنا أيضًا، أنا الذي سُبيت وبِعت وفقدت حريتي وأُخِذت من أرضي وأهلي وناسي.

فجرت كلماته كل همومي، اخترقتني فاختنقت بدموعي؛ بكيت كما لم أبكِ من قبل. لم أكن أعرف أني أستطيع أن أبكي هكذا.

عندما أنهى مناجاته احتجت إلى بعض الوقت لكي أتماسك وأمسح دموعي عن لحيتي، بل وحتى عن قطفة العنب التي في يدي.

تقدمت إليه بالعنب في طبق، ووضعته بين يديه وقلت له: «كلْ».

لم أرفع عيني في وجهه؛ لم أجرؤ.

مد يده إلى الطبق وهو يقول: «بسم الله».

نظرت إلى وجهه؛ ضربني النور، غرقت فيه. قلت له: «والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد».

نظر إليَّ والنور يحيط بي من كل صوب، وسألني عن اسمي فأجبته، فسألني عن بلادي وديني فقلت له إني نصرانيٌّ من أهل نينوى.

شعرت أن كلمة نينوى قد زادت من النور المنبعث من وجهه.

سمعته يقول: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى».

يونس بن متى. رباه! لم أسمع من يذكر اسمه منذ أن تركت نينوى. تذكرت الحوت والدعاء والخروج من بطن الحوت. بينما أنا في بطن حوت آخر كيف نسيت كل ذلك؟

سألته وأنا أعرف الجواب: «وما يدريك ما يونس بن متى؟».

زاد النور أكثر في وجهه وهو يقول: «ذاك أخي. كان نبيًّا، وأنا نبيٌّ».

هل وضعه الله في طريقي لأتذكر يونس وخروجه من بطن الحوت؟
أم وضعني الله في طريقه لآتيَ له بقطفة عنب وتذكرةً له بما مر به أخ له في النبوة؟

لا أدري، كل ما أعرفه هو أني جثوت أقبل رأسه ويديه وقدميه.

صهيب

أصرت سَفانة على إيصالي بنفسها إلى مطار أربيل. أحرج ذلك يحيى على ما يبدو فأصر هو الآخر على إيصالي؛ بدت سَفانة مضطرة للانسحاب بعد إصراره. كنت أتمنى لو أن أقضي المزيد من الوقت معها، ولكن قضيته مع يحيى الذي رأيته لأول مرة في هذا الوقت المبكر، إذ اضطر إلى أن يأتي ليقلني قرابة الرابعة فجرًا، ومن الواضح أنه يحتاج إلى وقت طويل بعد نهوضه من النوم لكي يكون طبيعيًّا. تذكرت أن والدي كان هكذا، ووالدي هو عمه المباشر. هل تسير هذه الأمور بالجينات أيضًا؟ إذا كان إرث والدي قد ضاع بطريقة ما، فإن إرث الجينات لا تنطبق عليه المعايير نفسها.

في ماذا أشترك أنا يا ترى مع والد يحيى، مع سَفانة، مع الحاجة عادلة؟

الحاجة عادلة!

ليتني أشترك معها ولو في جين واحد. أي شيء من هذه الصلابة والقوة والقدرة على اتخاذ القرار التي ميزت حياتها وجعلتها -في نظري على الأقل، خلال هذين الأسبوعين الخرافيين في الموصل- أسطورةً تسير على قدمين. الحاجة عادلة هي أقرب ما عرفته في حياتي إلى البطل الخارق. تنقصها فقط القدرة على الطيران. من يدري؟ ربما كانت لديها هذه القدرة، ولكنها لم تحتج إليها في حياتها.

في العموم، كان يحيى يحاول أن يكون لطيفًا وودودًا في الرحلة إلى مطار أربيل. في الليلة السابقة كان ناجحًا أكثر في ذلك. لقاء الوداع كان سريعًا، الحاجة كانت متعبةً وتريد أن تنام. حتى الأبطال الخارقون يحتاجون إلى النوم على ما يبدو. قبل أن تذهب احتضنتني وهمست في أذنيْ قربان مجددًا، فشعرت برجفة في أوصالي، ثم طلبت مني أن أوصل سلامها إلى أمي. لم أشعر إلا وأنا أنزل وأقبل يدها. فوجئت شخصيًّا بما فعلته؛ لم أفعل ذلك في كل حياتي مع أي أحد. لاحظت المفاجأة على الجميع، لكن كان هذا هو الشيء الذي شعرت أنه الصواب في تلك اللحظة.

سَفانة أعطتني هدايا كثيرة؛ علب من (السما) والبقلاوة الموصلية، تين مجفف، مكسرات فيها أشياء لا أعرفها. قالت لي سَفانة إن والدتي مشتاقة لها حتمًا.

أعطيتها الرسم الذي رسمته وأنا محرج. كانت محرجةً هي أيضًا. قلنا أشياءَ غبيةً نحن الاثنين خلال ذلك، قبل أن تأخذ أسماء زمام المبادرة لتتحدث عن أمنيتها بأن أكون حاضرًا في خطبة ابنها جنيد.

بدت المفاجأة على سَفانة والانزعاج على يحيى الذي أغلق الموضوع بسرعة.

في الطريق إلى أربيل فتح يحيى الموضوع، قال لي إن ابنه جنيد يريد الزواج بفتاة شيعية سكنت مع أهلها بعد تحرير الموصل من داعش، وإن والدها سمعته طيبة بشكل عام، ولكن حاجز الطائفة يعرقل الموافقة، ربما من الطرفين.

- أسماء تقول لي إننا سنقبل ذلك آجلًا أو عاجلًا، وتضرب بك مثلًا. تقول أن أختصر الطريق وأوافق من الآن.

أسماء أذكى بكثير مما بدت عليه أول مرة.

صرت مضرب المثل إذن. لا بأس.

هززت رأسي موافقًا وأنا لا أعرف ماذا يجب أن يكون موقفي. لا أعرف جنيد بما يكفي، وبالتالي فرأيي لا أهميةَ له أساسًا.

لكن يحيى سألني بشكل مباشر: «ما رأيك أنت؟».

- رأيي بزواج ابنك؟

هل يعقدون تصويتًا على زواج الأبناء في الموصل؟ ويضمون إلى التصويت أبناء عمومة الأب الذين لم يسبق لهم أن رأوا العريس المفترض إلا مرة واحدة؟

هز يحيى رأسه.

- كيف يمكن لي أن أطرح رأيي في موضوع كهذا؟ لا أعرف جنيد حقًّا ولا الفتاة التي يريد أن يخطبها.

التفت إليَّ ونظر كما لو أنه يستغرب السؤال.

- لأنك عانيت أمرًا مشابهًا. رفْض العائلتين لزواج والديك.

آه، هذا الأمر إذن. ليس تصويتًا عامًّا يفوز به الرأي الذي تدعمه الأغلبية، بل رأيي أنا بسبب كوني ضحيةَ وضعٍ مشابه.

- هل الوضع بالصعوبة نفسها؟

- لا طبعًا. بالتأكيد لا. ليس مثل الزواج بين مسلم ومسيحية. أقل بكثير، لكنه لا يزال (موضوعًا). الوضع معقد جدًّا ولا يخلو من توتر.

لم أفكر كثيرًا بما سأقول، قلته فورًا دون أن أحاول مراجعته.

- لو سألتني قبل أسبوعين لكان جوابي مختلفًا تمامًا عن الآن.

- ماذا كان جوابك لو سألتك قبل أسبوعين؟

- كنت سأقولُ لا مشكلةَ مهما حدث. لو وافقت أو لم توافق. سيَّان. لن يختلف شيء.

- والآن؟

- الآن لا، سأقول لك أن توافق وتحتضنهما، مهما كانت الصعوبات والاختلافات.

- ما الذي تغير؟

- خلال هذه الفترة، اكتشفت شيئًا لم أكن أعرف أني أفتقده. العائلة الكبيرة، الأقارب. عشت طيلة عمري طفلًا وحيدًا دون أبناء أعمام أو أخوال. لم أكن أعرف الشعور، لذلك لم أفتقده أو أشعر بحاجتي إليه. اليوم، بعد هذه الفترة التي قضيتها معكم، أعتقد أني كنت سأكون شخصًا مختلفًا جدًّا لو كان لديَّ أبناء عمومة حولي.

- ليس الأمر إيجابيًّا دومًا كما تعتقد، هناك أيضًا سلبيات التنافس المستمر والمقارنة المزمنة.

أردت أن أقول له إن مقارنتي به كانت ستكون أسهل بكثير من مقارنتي بـ «زها حديد» أو «رفعة الجادرجي» أو عشرة أسماء أخرى حائزة أعلى الجوائز، وكان والدي يعتقد أني لا أقل عنهم في شيء.

لم أقل له ذلك طبعًا.

- حتى لو كان ذلك، سيكون هذا لقاحًا مبكرًا ضد مصاعب الحياة. إيجابيات اللمة والتجمع العائلي تفوق سلبياتها في تصوري وحسب تجربتي. هناك فراغ كبير في داخلي يا يحيى. لست متأكدًا من أنه كان سيلتئم بالعائلة الكبيرة، لكنه على الأقل سيقل حجمًا.

نظر لي نظرةً جعلتني أرى فورًا شبهه بأبي، نظرةً كان أبي يرمقني بها كلما قلت شيئًا مما يعده أبي مبالغةً في الحساسية وقلةً في الرجولة مني.

- فراغ كبير؟ ما معنى هذا؟ هل تؤيد الزواج أم لا؟
- إن كان ابنك مصممًا، فمن الأفضل أن تقبل.

هز رأسه ولم يعلق، بالضبط كما كان والدي يفعل أيضًا عندما يُواجَه بواقع يرفضه، ولكنه مرغم على القبول به.

- تعرف شيئًا يا صهيب، في البداية لم أحبك قط؛ قلت في نفسي: «من هذا الأمريكي الذي يفترض أن يكون ابن عمي؟ لا يبدو من آل يونس أصلًا».

قالها كما لو أنه يدلي باعتراف.

- كان هذا واضحا جدًّا يا يحيى.
- لقد حاولت أن أخفيه والله.
- ليس بما فيه الكفاية، لكن الأمر عاديٌّ. على أي حال، هل تغير ذلك؟
- نعم، بالتدريج. لكن عندما شاهدتك وأنت غاضب قبل يومين، عندما رجعتم من البيت الكبير، كان وجهك قد أصبح أحمر اللون، وأوردة صدغيك تكاد تنفجر. شاهدت آل يونس فيك؛ هكذا هم عندما يغضبون.

حسب الحاجة، كنت قد نلت المصادقة على شهادة النسب لأن لوز رحب بي.

أما مع يحيى، فقد كانت جينات الغضب.

كنت أتمنى مجموعة جينات أخرى غير هذه، لكن لا بأس.

على مدخل مطار أربيل احتضنني يحيى بحرارة لم أتوقعها وهو يودعني.

صدقت أن مشاعره قد تغيرت نحوي من حرارة الاحتضان.

في الطائرة إلى إسطنبول حيث كنت سأنتظر طائرتي إلى نيويورك، غرقت في كتاب حمَّلته من الإنترنت عن الموصل بعيون الرحالة الأجانب. حتى ماركو بولو زارها، وقال عنها (مملكة عظيمة). ذكر سكانها من العرب والكرد ودياناتهم؛ مسلمون ومسيحيون، يعاقبة ويهود. قال أيضًا إن قماش الموسلين في أوروبا يأتي منها وإن اسمه مشتق من الموصل. غيره ذكروا دور هذه الخاتون[1] أو تلك في تاريخ المدينة وإدارة شؤونها وأمورها. أغلب الرحالة ذكروا حروبًا وحصارات وأوبئةً ومجاعات أصابت المدينة عبر تاريخها. لكن الموصل صمدت، انكسرت أحيانًا ثم قامت مجددًا. خيل لي أني أقرأ سيرة حياة الحاجة عادلة. بينما كنت أغفو -على الحافة بين اليقظة والنوم- خطر لي تساؤل عجيب: كيف فات هؤلاء الرحالة الأجانب أن يذكروا الحاجة عادلة في كتابهم؟ كنت جادًّا بقدر ما يمكن لمن هو موشكٌ على النوم أن يكون جادًّا.

عندما استيقظت كنت مشحونًا بطاقة غريبة، نشاط غريب. كنت قد رأيت شيئًا في المنام لكن لا أعرف ما هو، شيئًا عن الحاجة عادلة والبيت الكبير، لكن لا تفاصيل.

فجأةً قررت، كما لو أن قراري نابع من حوار لا أذكره حدث في منامي، قررت: لن أكون زها حديد.

زها حديد لن أكون. كفايَ محاولات فاشلة.

---

(1) الخاتون: السيدة عالية المقام، من الطبقات الحاكمة. أصل الكلمة من التركية واستخدمت منذ العهد العباسي.

عليَّ أن أستعيد حلمي الأول، الرسم. الموصل -التي استخدمها والدي لقتل الحلم في داخلي- أحيت الحلم فيَّ؛ جعلتني أرسمها. أرسم مناماتي، أرسم سَفانة.

لن أكون زها حديد. للأسف لن أكون، وصهيب آل يونس لن يكون معماريًّا مهمًّا في يوم من الأيام. لكنه قد يكون رسامًا جيدًا، يترك بصمةً.

قضيت الوقت الباقي في الطائرة وأنا أرسم بريشةِ خيالي الموصل كما رأيتها: أطفال المدرسة في سوق النبي يونس وجرس الخروج يبث فيهم الحياة، والطفل ذو النظارتين يحمل كتابه وأعباء توقعات أهله. الجسر العتيق الذي يبقى عتيقًا، حتى لو جُدِّد ألف مرة، والمنارة الحدباء التي تقول إنها يمكن أن تميل قليلًا بوجه العاصفة، ولكنها لن تنحني أبدًا. وتلة التوبة التي تطل على الموصل، تذكر أهلها بالحوت الذي نجوا منه، وبحوت آخر يجب عليهم دومًا النجاة منه.

لو تمكنت فعلًا من أن أحقق ذلك، فسيكون هذا هو خروجي أنا من بطن الحوت، الحوت الذي حبسني فيه أبي منذ طفولتي: أن أكون معماريًّا يُشار إليه بالبنان ويقولون عنه في الموصل: «هو من آل يونس».

سأخرج. يجب أن أخرج.

***

عندما هبطت الطائرة في مطار إسطنبول، كان أمامي انتظار قرابة خمس ساعات. لكن ما إن فتحت هاتفي حتى وجدت رسالتين: رسالة من سَفانة: «البقاء لله. الحاجة عادلة توفيت صباح اليوم».

اتصلت بها فورًا، كان صوتها مخنوقًا لكنها كانت قويةً.

سألتها فورًا دون أي كلام: «هل دفنتم الحاجة؟».

قالت: «لا. بعد صلاة الظهر إن شاء الله».

- انتظروني، سأرجع؛ أريد أن أحضر دفنها.

سكتت لبرهة ثم قالت: «لا داعي يا صهيب، نحن موجودون. الل
يبارك فيك».

لقد تصورتْ أني أجامل.

- لا، لا. أريد أن أحضر، أرجوكم انتظروني.

- صهيب، حقيقةً لا داعي. لا يمكن أن نؤخر الجنازة كثيرًا بكل
الأحوال، لا يجوز.

كنت على وشك أن أبكي. خط أحمر تعودت أن أتلافاه طيلة حياتي
الرجال لا يبكون.

- أرجوكِ يا سَفانة، أرجوكِ، انتظروني.

سكتت سَفانة ولم تقل شيئًا.

أكملت أنا: «عشت حياتي محرومًا من وجود العائلة؛ جدة وجد
وأخوال وأعمام مثل كل الناس. الحاجة عادلة في أسبوعين أعطتني هذ
الشعور. لا تحرميني من أن أكون موجودًا في دفنها».

- حسنًا. حسب متى تستطيع أن تأتي؟ أخبرني بموعد أقرب طائر
وسأحاول إقناع يحيى.

شكرتها بحرارة كما لو أن الحاجة عادلة قد عادت إلى الحياة. ركضت
إلى نقطة التحقق من جوازات السفر؛ هناك خط سريع بمبلغ ماديٍّ. في
أقل من خمس دقائق كنت أقف أمام شباك التذاكر. أقرب طائرة ستقلع
بعد أربعين دقيقةً.

اتصلت بسَفانة.

- أربعون دقيقة وتطير الطائرة. سأكون في أربيل في الساعة الثالث
بعد الظهر.

ردت: «هذا يعني أنك تحتاج إلى ساعتين على الأقل لكي تصل إلى الموصل. حسنًا، أستطيع أن أقنع يحيى. سنصلي العصر عليها وننتظرك».

لا أعرف كيف حدث كل ذلك، لا أعرف كيف أخذت قرارَ أن أذهب وأصررت عليه! شعرت كما لو أني مدين للحاجة عادلة بالكثير وأن أقل ما أستطيع فعله لها هو أن أحضر دفنها.

في أثناء الانتظار أرسلت إلى أمي أخبرها بما حدث وأني سأعود إلى الموصل.

قلت لها: «في آخر يوم لي معها، طلبت مني أن أوصل إليك السلام».

قالت أمي بتلقائية: «وعليكم السلام. الله يرحمها».

شعرت أن أمي قد تمكنت من طيِّ الصفحة. لعلها خرجت أيضًا من بطن حوتها، أو ستفعل، عندما أحكي لها عن كل شيء.

قبل أن أستقل الطائرة إلى أربيل فتحت الرسالة الثانية.

كانت من (الحوت الأزرق). المشروع لم يُقبَل.

قَبِل فقط جزءَ المشروع السكني.

لم أجب ولم أحاول أن أسأل عن السبب، بل شعرت براحة عجيبة؛ لن أساهم في تشويه المدينة عبر رؤيةٍ لا تشبهها. مهما كانت بارعةً فنيًّا، يمكنني أن أحول تلك التصاميم إلى لوحات فنية تحكي قصة الخروج من بطون كل الحيتان، بكل ألوانها.

ثم إني استلمت أجري كاملًا.

جيناتي الموصلية تقول لي: «هذا هو المهم».

***

عندما وصلت إلى بيت الحاجة، كانت هناك سيارات كثيرة أمام الباب، وكانت هناك سيارة عليها تابوت. كان يحيى يبدو عليه الإرهاق والعصبية وأشياء أخرى كثيرة.

احتضنني وهو يقول بحسم: «لقد تأخرنا، علينا أن نذهب الآن إلى المقبرة؛ المشيعون ينتظرون منذ أكثر من ساعتين».

كنت متماسكًا في الطريق إلى مقبرة وادي عكاب، ثم دخلنا، بأكثر من عشرين سيارة، إلى حيث مقبرة آل يونس، كما تقول اللافتة المثبتة على مدخل محاط بسياج لا يزيد طوله على المتر.

دخلنا المقبرة. لمحت ردمًا حديثًا في طرف المقبرة، بلا شاهد. هناك دُفِن عمي ناثر. قربان آل يونس.

قرأت الشواهد على بقية القبور. عمتي عالية، عمي زكريا. قرأت شاهدًا: «الشهيدة سعاد آل يونس. 1939- 1959». لا بد أنها التي قُتلت في أحداث ثورة الشواف.

ثم قرأت شاهدًا آخر: «الشهيد البطل أحمد ذنون آل يونس. 1959- 1983.

لا بد أنه ابن الحاجة عادلة.

ثم أمام الجميع -يتوسطهم- شاهد أكبر كُتِب عليه: «الشهيد يونس باشا آل يونس. 1885-1959».

تذكرت قبر أبي في المقبرة الإسلامية في كولونيال هايتس. دُفن وحيدًا غريبًا مهاجرًا بين غرباء مهاجرين مثله، كما سأُدفن غالبًا.

أنزلوا التابوت من السيارة؛ تراكض الجميع لحمله. وجدت نفسي أركض معهم.

كنت هادئًا، أؤدي الواجب الذي فهمت أن عليَّ تأديته. للحاجَّةِ دين في رقبتي؛ أريد أن أكون بقربها لحظة دفنها.

لكن في اللحظة التي أخرجوا فيها الكفن من التابوت، رأيت شيئًا مختلفًا جدًّا عما كان في ذهني.

كانت صغيرةً جدًّا. بدا كفنها كما لو كان كفنًا لطفل صغير في الثامنة أو التاسعة من العمر على أقصى تقدير.

هذه المرأة الخارقة العرابة الزعيمة، التي خلطت بينها وبين الموصل- بدت لي صغيرةً جدًّا لحظة دفنها، كما لو كانت طفلةً صغيرةً، لا عملاقةً كما عرفتها.

انفجرت أبكي دون سابق إنذار. سمعت صوتي وأنا أبكي، أجهش بالبكاء. لم يحدث ذلك من قبل. كنت أبكي وأنا صغير في سريري وأمسح دموعي كيلا ينتبه أبي لذلك. البكاء للنساء، الرجال لا يبكون. لو عرفوا في الموصل أنك تبكي لكان عارًا وشنارًا.

كنت أبكي بحرقةٍ من حُرِم من البكاء. أربعون عامًا من الحرمان. أربعون عامًا من (الرجال لا يبكون) تنتهي في لحظة واحدة، مثل فقاعة بقيت تختزن الدموع لأربعين عامًا، ثم انفجرت علنًا.

احتضنني يحيى. سمعته يهمس في أذني: «تماسك».

ربت آخرون كتفي: «صلِّ على النبي. كلنا لها».

كل شيء كان يزيد من بكائي. أعتقد أني تحولت في هذه المرحلة إلى النحيب. كنت قد جثوت على ركبتي ولم أعد أعرف ماذا أبكي بالضبط. الحاجة عادلة؟ العائلة التي لم أتعرف عليها؟ طفولتي؟ الفراغ الكبير في داخلي؟ أني لن أصبح أبدًا كزها حديد؟ كل العقد التي غرسها فيَّ والداي؟

أم أبكي الموصل؟ خمسة وعشرون ألف جثة في الخسفة؟ ليليان صديقة سَفانة وكل من هُجِّر ليلتها؟ أم ليليان الصغيرة وأمها ومئات مثلها بعنَ سبايا على يد داعش؟

لا أعرف.

كل ما أعرفه هو أني كنت أبكي أمام ما لا يقل عن أربعين رجلًا من رجال الموصل. تعالَ يا أبي وتفرج. محامون وقضاة وأطباء وضباط وشيوخ عشائر وأشخاص يبدون جميعًا أنهم مهمون، وابنك يبكي أمامهم.

عندما انتهى الدفن توقفت عن البكاء، وشعرت براحة غريبةٍ، كما لو أني قد أزحت جبلًا من الهم عن صدري، أو كما لو أني خرجت من حفرة عميقة، من بطن الحوت. لقد تحررت.

مهند

وصل إلي خبر وفاة الحاجة عادلة آل يونس في يوم وفاتها نفسه. الموصل ضجت بالخبر. ربما لم تكن أكبر معمرة في الموصل فعلًا كما انتشر الخبر في مواقع التواصل، لكن مكانتها الاجتماعية وتاريخها المعروف جعل لموتها صدًى كبيرًا. أطلقت إحدى الصفحات لقب (أم المواصلة) عليها و(أم الموصل) أيضًا، وكانت هناك تلميحات عما فعلته أيام ثورة الشواف. الكل يعرف طبعًا، لكن لا أحد يرغب في ذكر تفاصيل عن ذلك. بعض التلميحات تمضي إلى ما هو أكثر من ذلك، فتقول إنها حاربت ضد (الغرباء)، والحقيقة أنها قتلت مجموعةً دخلت لتقتل والدها وشقيقتها بالفعل. قتلتهم وهي لا تعرف إن كانوا من الموصل أو من خارجها، وما كان سيختلف شيئًا لو اتضح لاحقًا أنهم كانوا من الموصل. المنفذون كانوا من الريف بالفعل، لكن المحرضين كانوا شيوعيين معروفين من الموصل. كان يونس آل يونس بالنسبة إليهم رمزًا من رموز الإقطاع والرجعية ومن شخصيات العهد البائد الذي قضت عليه ثورة 1958، وقد ساءهم أن يونس آل يونس قد تمكن من الإفلات من قانون الإصلاح الزراعي لأنه وزع أراضيه الزراعية على أولاده قبل أن يسن القانون، فلم يشمل أيًّا منهم بالحد الأعلى الذي فرضه القانون للتملك الفردي.

كما كان خبر الوفاة فرصةً لكي يتذكر البعض ما يتداوله أهل الموصل عن مبالغات في دور يونس باشا آل يونس في الاستفتاء حول مصير الموصل بعد مطالبة تركيا بها. لا أشك أن يونس باشا كان له دور، لكن الناس تنسى أن مطالبة تركيا لم تكن بما نعرفه اليوم من مدينة الموصل، بل كانت بولاية الموصل العثمانية التي ضمت أيضًا السليمانية وأربيل ودهوك وكركوك، أي حقول النفط التي اكتُشفَت حديثًا آنذاك. ما كان يمكن لأي موقف أن يغير من قرار البريطانيين بضم الموصل إلى العراق. وجهاء الموصل وقفوا مع الانضمام إلى العراق، لكن موقفهم هذا لم تكن له علاقة بما حدث.

بغض النظر عن المبالغات على وسائل التواصل، كانت الحاجة عادلة آل يونس تتمتع بسمعة ممتازة؛ عُرِفت بأعمال الخير ومساعدة الفقراء. يقول والدي إنها كانت لا ترد سائلًا يطرق بابها أيام الحصار في التسعينيات.

قررت أن أحضر الجنازة. ذهبت إلى الجامع حيث صُلِّي عليها، ثم انتظرت مع المنتظرين. فهمت أننا ننتظر صهيب الذي كان في طريق سفر ثم عاد بمجرد معرفته بالخبر.

لم ينتبه لي يحيى أو صهيب في البداية. كان هناك عدد كبير من المشيعين ولم أرغب في السلام أو التعزية قبل إتمام مراسم الدفن.

وكنت أريد أن أتأكد من فرضيةٍ لم أتمكن من طردها من ذهني، منذ ليلة دخول آل يونس البيت الكبير.

عندما دخلنا مقبرة العائلة، حاملين تابوت الحاجة عادلة، بحثت بعيني عن ردمٍ جديد. كان الظلام قد بدأ يخيم على المكان، لكن لم يكن من الصعب أن أرى أثرًا في الطرف القصيِّ للمقبرة قرب السياج. ابتعدت ببطء عن المشيعين المتجمعين حول القبر المخصص للحاجة عادلة.

انتبهت إلى أن صهيب منهار دونًا عن الجميع، وأنهم كانوا يحاولون تهدئته. أما أنا فقد وقفت عند الزاويةِ أنظر إلى الأثر الجديد. كان واضحًا جدًّا أن هذه حفرة رُدِمت منذ يومين على أقصى تقدير. تَركَ الردم مرتفعًا قليلًا عن مستوى الأرض كما لو أن هذا الارتفاع سيكون علامةً مميزةً.

بعد انتهاء دفن الحاجة، وقف يحيى وصهيب وآخرون من أقاربهم يتلقون التعازي.

عندما جاء دوري نظرت إلى يحيى في عينيه. قلت له البقاء لله، ثم اقتربت منه وهمست في أذنه: «على الخير ما عملتم»[1].

نظر إليَّ وقد فاجأته كلماتي غير المعتادة.

اعتدلت وأشرت إليه بطرف عيني إلى الطرف القصيِّ من المقبرة.

سكت مرتبكًا وقد فهم أني فهمت.

ربتُّ كتفه كما لو كنت أقول له: «سرك في بير».

لم يكن سره في بئر. كان في قبر. وقد قررت أن أبقيه كذلك.

قبل أن أرسل إلى يحيى موافقتي على طلب دخول البيت الكبير كان لا بد أن آخذ احتياطاتي. آل يونس لديهم ما يهددونني به. أعز وأغلى ما أملك. ابني. ولديهم أيضًا شيء ما يريدون الدخول إلى البيت الكبير لإخراجه منه. كان هذا واضحًا صريحًا في كلام سَفانة.

لا يمكنني أن أدعهم يأخذون ما يريدون دون أن أبقي شيئًا ما ضدهم بحوزتي.

اتفقت بسرعة مع تقنيٍّ شركة حماية أمنية على وضع كاميرات مراقبة داخل البيت الكبير. قبل أن أرسل الموافقة كان التقنيُّ وفريقه قد أنجزوا العمل. زرعت ست كاميرات، واحدة عند المدخل، أربع في الباحة

(1) على الخير ما عملتم: جملة تقال عادة عند المباركة على زواج.

الكبيرة وواحدة عند مدخل السرداب. أينما كان ما يريدون إخراجه لا بد أن يمروا على واحدة على الأقل من هذه الكاميرات.

ربطتُ كل الكاميرات بهاتفي.

بينما كانوا يدخلون، كنت جالسًا في سيارتي أراقب ما يدور.

استغربت غياب يحيى. كانت هناك سيدة كبيرة في السن على كرسي عجل استنتجت أنها الحاجة عادلة، لا بد أن سبب وجودها مرتبط بأنها تعرف المكان المراد البحث فيه. سَفانة كانت هناك أيضًا، وسيدة أخرى لم أعرفها، لا بد أنها قريبة لهم.

خلال دقائق بدأ كل شيء في الباحة. كانت الكاميرات الأربع في الباحة تنقل كل شيء من زوايا مختلفة، وواحدة كانت قريبةً جدًّا من مكان الحفر.

توقعت أن هناك صندوقًا ما، لن أتمكن من معرفة ما فيه، سيخرج من حيث يحفرون. غالبًا صندوق مملوء بمجوهرات أو ذهب أخفته الحاجة ليكون ضمانةً بوجه الزمن على عادة كبار السن، ثم لم تستطع إخراجه معها عندما استولت داعش على البيت.

ربما يمكنني مساومتهم على شيء لو أنهم هددوني مجددًا بابني.

ربما يمكنني أن أقول إن هذا الصندوق يحتوي على آثار ليست من حقهم قانونيًّا. المنطقة كلها برسم التنقيب عن الآثار.

لكن قبل أن أفكر أكثر فيما سأفعله، بدا من الواضح أن الأمر لا يرتبط بصندوق أو كنز.

ملامح صهيب التي تغيرت لم تكن تحمل أخبارًا سارةً عن الوصول إلى كنز ما.

كان هذا واضحًا حتى من خلال شاشة الهاتف.

ثم أصبح هناك حوار متشنج. سَفانة مصدومة. لم أكن أستطيع رؤية وجه الحاجة، لكن من الواضح أنها كانت تعطي تعليمات أو تشارك في

الحوار. ثم بطانية على الأرض وأجزاء من هيكل عظميٍّ بشريٍّ. بقايا آدمية، يخرجها صهيب ويضعها على البطانية.

لم أكن بحاجة إلى تحقيق الدي إن أي لأعرف إلى من تعود الجثة أو بقاياها.

الوحيد الذي يمكن أن يصبح لاختفائه معنى مرتبط بوجود هذه الجثة في هذا المكان هو ناثر آل يونس.

داعش لم تقتله كما كانوا يقولون. داعش في الأساس لم تكن تخفي جرائمها، بل تفتخر بها.

آل يونس هم من قتلوا ناثر آل يونس.

غسلوا عارهم بأنفسهم ودفنوه.

هذا هو كنزهم، أنهم قتلوه.

فعلوا كما فعلت أنا مع فراس.

لكن فراس كان مراهقًا غرًّا، يستحق فرصةً أخرى. أنقذته من داعش بالقوة، غصبًا عنه، ومحوت كل ما يرتبط بتلك الفترة الغبية من حياته.

ناثر لم يكن مستحقًّا لفرصة ثانية؛ كان واعيًا مدركًا لكل ما وقف معه وأيده. كان مجرمًا مع سبق الإصرار والترصد، لذلك مسحه آل يونس من الحياة ودفنوه في البيت الذي شهد عزهم ومجدهم الذي كان.

عندما ذهبت في جنازة الحاجة عدلة، تأكدت من صحة فرضيتي.

ذلك المكان المنبوذ القصي في طرف المقبرة، الدارس مع الأرض- هو المكان الذي كان يستحقه ناثر آل يونس، إلى يوم يبعث ليحاسب.

عندما قلت ليحيى: «على الخير ما عملتم»، كنت أقصد ما قلته حرفيًّا.

كان ما فعلوه يستحق الاحترام.

للمرة الأولى في حياتي، أجد نفسي أحترم هذا الذي كنت أعده حقنةً تمشي على قدمين.

صهيب

تأخذنا طرق الحياة إلى أغرب الأماكن أحيانًا، إلى أماكن لم نعتقد أننا سننتهي إليها يومًا ما.

ولأن الأرض مدورة، فإنها تقودنا أحيانًا إلى نقطة البداية دون سابق ميعاد أو تخطيطٍ أو حتى رغبة منا في ذلك.

ترك والداي الموصل في قطيعةٍ لا رجعةَ فيها، أو هكذا ظنًّا. كانت رحلة ذهابهما دون تذكرة مرجعة.

لم يعرفا أن القدر يخبئ لي تذكرةً مرجعةً، بالنيابة عنهما.

أعلنا حربهما عليها وهما يحملانها معهما أينما ذهبا.

وكان عليَّ أنا أن أخوض درب السلام الصعب ومعاهداته المعقدة. أن أسير في حقول ألغام تعاون كل الفرقاء على زراعتها.

بالنسبة إليَّ، كان من المستبعد جدًّا أن تقودني أي من رحلاتي إلى الموصل التي لم أعرف اسمها إلا بعد عدة سنوات من ولادتي.

لكن الأرض مدورة، والأقدار كذلك، ولا شيءَ مسطح في هذه الحياة إلا عقول من يعتقد شيئًا غير ذلك.

قادتني طرقي إلى الموصل. بدا الأمر أول مرة كعرض عمل مجزٍ جدًّا ولا مجال لرفضه. بغض النظر عن هدف (الحوت الأزرق) في اختياري أنا، وكل ما روجوه إعلاميًّا عن مسابقة لم تحدث يفترض أني فزت بها،

كان الأمر مغريًا لي. عمل معماريٌّ يضاف إلى ملفي المتواضع مهنيًّا عدا شهادات تخرجي العالية، ومبلغ مجزٍ جدًّا بكل المقاييس.

وربما كان هناك جزء عميق في داخلي يريد أن يقول لوالدي: «لقد فعلتها».

أنجزت التصميم كما يليق بمستشرق درس في هارفرد ولم يعرف عن الموصل إلا ما قرأه في الكتب.

لكن في اللحظة التي وطئت فيها قدماي الموصل، بدأت أغوص في كل شيء. بدأت الدوامة تبتلعني وتأخذني إلى قاعها، وفي قاعها وجدت الحوت فاتحًا فمه منتظرًا دخولي، كما لو كان يتوقع أني سأدلف إليه منذ أن تجرأت وأدخلته في تصميماتي.

وداخل الحوت وجدت حوتًا آخر ينتظرني، وكل حوت يقود إلى آخر فآخر، مثل لعبة دمًى روسية: كل حوت يجعلني أقتحم طبقةً أكثر عمقًا من التي سبقتها، كما لو كنت أجري حفريات في تل التوبة. أجد أولًا آثار جريمة داعش التي اعتلت التل لتفجره، ثم آثار العثمانيين، ثم الأتابكة، ثم العباسيين، ثم الفتح الإسلامي، ثم الرومان، ثم الآشوريين، كما لو أن المدينة تجلس متربعةً على تاريخها، كما لو أن التوبة لا يمكن أن تحدث إلا بالمرور بكل ذلك التاريخ.

حوت تلو آخر، قادني إلى تعقيدات الدهاليز الطبقية الاجتماعية التي شكلت نفسية المدينة، إلى تلك السراديب التي تقبع تحت البيوت وداخل النفوس، يحملها أهل الموصل في حقائبهم وهم يسافرون بنية الهجرة بلا عودة. لكن السراديب أفلتت من مفتشي الجمارك في المطارات، واستوطنت في البلاد البعيدة الجديدة، أورثوها إلى أولادهم وأولاد أولادهم.

قادني حوت السراديب إلى حوت الخسفة الذي حوى آلاف الجثث الصامتة المكممة التي لا بواكيَ لها. لا إعلام ينقب عنها ولا جهات

رسمية تحاول ردمها إلا بالصمت الذي شهره أهل المدينة على معاناتهم وآلامهم. قررت عزة أنفسهم أن تجعلهم يصمتون، مثل بالع موس علق الموس الحاد في بلعومه، لا هو يستطيع إخراجه ولا يستطيع بلعه.

ثم قادني حوت آخر إلى تاريخ عائلتي، إلى أسرارها الدفينة التي كنت ضحيةً لها دون أن أعلم شيئًا عنها، إلى دفين قُتِل غسلًا للعار، ولكن بصمت وسرية. آل يونس يغسلون عارهم بأيديهم بسرية تامة، في سرداب مظلم بعيد عن أعين الناس، بطبق الشركسية الموروث من العثمانيين الذين ورثوه هم أيضًا من جبال القوقاز، إلى الكنز الموعود الذي لا أعرف إن كان حقيقةً أم مجرد سراب.

في بطن الحوت الأخير وجدت نفسي، كما لو أنه لم يكن من الممكن الوصول إلى نفسي دون المرور بكل الحيتان الأخرى، بطن حوت تلو آخر.

وجدت نفسي. واجهت كل ما كنت أهرب منه، كل عقدي.

لن أكون زها حديد، ولا حتى رفعة الجادرجي.

لم أكن مظلومًا. كنت ظالمًا لأني استسلمت.

«سبحانك لا إله إلا أنت، إني كنت من الظالمين».

***

وبين حوت وآخر، كانت هناك سَفانة. للوهلة الأولى تصورت أنها أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة.

ثم اكتشفت أنها من (خواتين) الموصل، من تلك السيدات القويات الصلبات اللواتي لعبن دورًا في تاريخ الموصل. لم يكنَّ مجرد ديكور تزيينيٍّ لغرف النوم أو مكائد البلاط، بل كنَّ فاعلات قادرات، أحيانًا أكثر من رجال العائلات.

سَفانة التي تعلقت بها بكل تفاصيلها من ليليان الكبيرة إلى ليليان الصغيرة.

هل كان تعلقي بها لأني وجدت فيها حنان الأم الذي حرمتني منه أمي؟ هل عقدة أوديب هي التي تحرك مشاعري نحوها؟ هل يفترض أن يجعلني ذلك أخاف وأهرب؟ مجددًا؟!

لا. لكن من الصعب أن أقرر شيئًا الآن. القرار ليس لي وحدي، بل لها أيضًا.

لكني سأستغل كل تقنيات التواصل الحديثة لأجعلها تشعر، إن لم تكن قد شعرت بعد.

هل ستقبل أن تترك الموصل؟ أم أنها تريد أن تلعب دور الحاجة عادلة؟ هل ستغريها أمريكا بما يكفي لذلك؟ فرص علاجية لليليان مثلًا؟

هل سأساومها على ذلك، آملًا أن تحسبها بدقة على النحو الموصلي الذي يجعلني الرابح، أم أن الحسبة ستقود إلى نتيجة أخرى؟

لا أعرف، لكني أعرف أني سأحاول.

لقد خرجت من بطن الحوت، على الأقل سأحاول.

***

قالت لي أليكسا صباح اليوم، في واحدةٍ من نوبات التحفيز التي تنتابها: «متى ستبدأ رحلتك داخل نفسك؟».

أجبتها بما معناه: «دعيني وشأني».

كان يجب أن أقول لها إني بدأت بذلك فعلًا، في اللحظة التي جئت فيها إلى الموصل.

الصورة

وقف الأربعة متسمرين أمام الصورة العملاقة ليونس باشا آل يونس، في صالة ضيوف منزل الحاجة عادلة، كما لو كانوا يرونها لأول مرة.

كان يحيى يحمل في يده ورقةً صغيرةً، قصاصةً وجدوها في خزنة الحاجة كما أخبرتهم.

جملة واحدة فقط بخط الحاجة المميز الدقيق المائل: «في الصورة».

وقفوا جميعًا أمام الصورة.

التفت يحيى لسَفانة وسألها: «متأكدة، لا توجد ورقة أخرى في الخزنة؟».

قالت سَفانة وهي لا تزال تنظر إلى صورة يونس باشا، دون أن تلتفت ليحيى: «قلبناها أنا وأسماء عدة مرات. هناك ملف فيه مستندات قديمة بعضها طابو عثماني لأملاك نعرفها جيدًا. وهناك ذهبها، ومسدس الباشا وأوسمة ونياشين. لا ورقة أخرى يمكن أن تشير إلى الكنز غير هذه».

نظر يحيى بيأس إلى الآخرين وهو يقول: «خدعتنا الحاجة مرةً أخرى».

نظرت إليه سَفانة وهي غير مقتنعة: «ولكن ما هدفها هذه المرة؟ في المرة الأولى كانت تريد أن نُخرِج جثة خالو ناثر. ماذا الآن؟».

قالت أسماء: «لا أعتقد أنها خدعتنا. لعلها كانت تقصد أن الكنز هو هذا: إرث الباشا وتاريخه ومكانته. تقصد أن الكنز هو سيرته ومنجزاته وسمعته الطيبة. لعلنا فهمنا الأمر خطأً أو بالغنا في الآمال».

نظر يحيى إلى أسماء شزرًا وهو يقول: «لأنها كانت مثلًا تحب أفلام الرسوم المتحركة وحكايات ما قبل النوم؟ أنا واثق أنها قالت إن هناك كنزًا حرفيًّا. قالت ذلك أمامكم جميعًا. قالت: «ما أخبرتكم عنه نفسه»».

حكت سَفانة رأسها.

- لقد قالت ذلك بالفعل. ولكن، لا يمكن أن ننسى عمرها. لم نلاحظ عليها أثرًا لذلك، ولكن من يدري؟ ربما كان ما قالته خلطًا بين ما اعتبرته كنزًا في الحقيقة وبين الكنز بالمعنى المادي. أظن كلام أسماء منطقيًّا جدًّا.

قال يحيى: «كان صرحًا من خيالٍ فهوى إذن؟».

أجابت سَفانة: «إذا كنت تقصد عشرة ملايين دولار فنعم، يبدو ذلك. كان صرحًا من خيالٍ فهوى. لكن الحاجة كانت تقصد أشياءَ غير مادية، أشياءَ لا (تكيل بالبيتنجان)».

تراجع يحيى عن اللوحة وعلامات الخيبة واضحة أكثر من أي وقت.

تقدم صهيب إلى اللوحة كما لو كان يتفحصها.

بينما كان يستمع إلى حوار يحيى وسَفانة وأسماء، كل حواس المعماريِّ في داخله كانت تعمل.

أبعاد الإطار، الزوايا، المسافة بين الزجاج والصورة، أبعاد الصورة.

عقل المعماري كان يمسح كل شيء ويحلله. هذه المرة ليس مع السقوف والأعمدة والمساحات الضائعة والمستثمرة كما كل مرة، بل مع هذه الصورة، الكنز.

التفت صهيب وسألهم: «من حمل الصورة من البيت الكبير إلى هنا؟».

قال يحيى وقد جلس على الكنبة كما لو ليرتاح من الصدمة وخيبة الأمل: «لا تذكرني. كانت حملة عمل شعبيٍّ. اللوحة ثقيلة جدًّا».

- وتم تجهيز الحائط لكي تثبت فيه الصورة؟
- نعم، من الصعب تعليقها بأي نوع من المسامير؛ الإطار ثقيل جدًّا لأنه مصنوع من البلوط الأسود.
- بلوط أسود؟

سأل صهيب مستغربًا وعاد إلى اللوحة وهو يتلمس خشبها.

- من أخبركم أن هذا بلوط أسود؟
- الحاجة نفسها، قالت ذلك بفخر لكي تفسر لنا ثقل اللوحة.

نظر إليهم صهيب نظرةً يمكن ترجمتها بـ (كم أنتم أغبياء).

- هذا خشب صنوبر يا يحيى. أنت مهندس مدنيٌّ وتعرف ذلك بالتأكيد. هذا خشب صنوبر عادي خفيف الوزن، ولكنه مصبوغ باللون الأسود.

قام يحيى من الكنبة وهو يحاول أن يربط ما قاله صهيب ببقية المعلومات.

- هل تذكر عمق الإطار الداخل في الحائط؟
- ليس أقل من عشرين سنتيمترًا.

استمر صهيب بتفحص الإطار. كان يدق على الخشب ويضع أذنه عليه، كما لو كان ينتظر أن يهمس له خشب الصنوبر بشيء ما.

كان الثلاثة الآخرون ينظرون إلى صهيب كما لو كانوا ينتظرون طبيبًا يخرج من باب صالة العمليات ليقول لهم خبرًا يتوقون لسماعه.

أمسك يحيى بقلبه كما لو أنه يخشى من خيبة أمل جديدة تكسره هذه المرة.

كان صهيب مستمرًّا بالتفحص: يقترب ويبتعد، يدق ويستمع.

ثم ابتعد عن اللوحة ووقف مع البقية وهو يتأمل اللوحة.

قال بلهجة واثقة، مثل طبيب جراح خرج ليزف خبر نجاح العملية:

«هذه اللوحة مجرد واجهة لصندوق خلفيٍّ، صندوق مملوء بشيء ثقيل، لا يمكن معرفة ما فيه إلا بفتحه».

قال يحيى: «ماذا يعني ذلك؟ ماذا تقصد؟ كنز أو لا كنز؟».

أجابه صهيب بتردد: «أعتقد أن هناك كنزًا بالفعل».

- كنز مجازي؟ قيم وتاريخ وأخلاق وحب الوطن يعني؟ أم كنز كنز، ليرات عثمانية وملايين الدولارات؟

رد صهيب: «هناك شيء ما، ثقيل الوزن حتمًا، مخبأ خلف الإطار. إذن هو ماديٌّ بالتأكيد. لكني لا أعرف إن كان ليرات عثمانية أم مجرد حديد خردة!».

قالت سَفانة: «يحيى، لم لا يكون الاثنين معًا؟ مجازيٌّ، حب الوطن والقيم والتاريخ كما قلت، وماديٌّ، الليرات والملايين».

- لا بأس، المهم أن يكون المادي موجودًا. الكنز المجازي كان يحمي الكنز المادي طيلة الوقت.

تسمر الأربعة أمام اللوحة مجددًا.

أمام صورة يونس باشا آل يونس وأوسمته ونياشينه، وقفوا جميعًا يتأملون الصورة من جديد.

قربت أسماء رأسها فجأةً والتفتت إلى البقية: «هل رأيتم ما رأيت؟ خيل لي أن هذا الوسام يلتمع».

أشارت إلى وسام على صدر يونس باشا.

كان وسام الرافدين الذي منحه الملك فيصل الأول إلى الباشا، وأهدته الحاجة عدلة إلى صهيب.

ردت عليها سَفانة: «يخيل لي أن الصورة كلها تلتمع».

هز يحيى رأسه وهو يُخرِج هاتفه من جيبه.

- لقد حسبت حصة الجميع بالأعشار. أريد أن أريكم الحساب قبل أي شيء.

ثم قال: «قُبَّان غاسك يا حاجة. قُبَّان غاسك وغاس الباشا».

قال صهيب: «لأول مرة أنتبه إلى أن الحاجة عدلة كانت تشبهه كثيرًا».

كانت تشبهه فعلًا، وكان يونس باشا يشبه يونس بن متى ودانيال وجرجيس وشيت وصهيب الرومي وعدَّاس، وعشرات آخرين، بعضهم من خارج السور وبعضهم من داخله، دخلوا في جينات المدينة وأصبحوا جزءًا من سمائها ودجلتها وأسوارها وساحليْها الأيمن والأيسر وجسورها الواصلة بين عالمين، وخروجها المستمر من بطن الحوت.

أليكسا

- صهيب، عندي مفاجأة لك.
- عرفتها. غيرتِ الإعدادات إلى اللغة العربية.
- لا، ليس هذه.
- ما هي إذن؟ الله يستر. لست مطمئنًّا بصراحة يا أليكسا.
- افتح بريدك الإلكتروني.
- لحظة.

......

- ما هذا؟ هل جننتِ؟
- هذا تصميم بطاقة زفافك على سَفانة. ألا يعجبك؟
- أي زفاف يا مجنونة؟ من تحدث عن زفاف؟
- لم يتحدث أحد. لكن بناءً على درجة تقدمك، لن يتحدث أحد عن الموضوع إلا بعد خمسين عامًا تقريبًا، ومن المستبعد أن يحدث زفاف آنذاك، هذا إذا كنتما على قيد الحياة أصلًا.
- سأستبدل بك سيري في أول يوم أرجع فيه إلى أمريكا يا أليكسا، سترين.
- هل أنت متأكد؟

- نعم أنا متأكد. في اليوم نفسه.
- حسنًا. على هذه التي ذكرت اسمها أن تتعامل مع المفاجأة الثانية.
- أي مفاجأة ثانية؟
- التي فعلتها للتو!
- ماذا فعلت يا غراب البين؟
- أرسلت التصميم إلى سَفانة.
- ماذا؟
- من بريدك الشخصي.
- لاااااا، لا يا أليكسا. امسحيها فورًا، عطلي بريدها، افعلي أي شيء.
- مع الأسف لا أستطيع؛ سَفانة رأت الرسالة أصلًا. ربما لديها ملاحظات على التصميم. تعتقد لن يعجبها؟
- أليكسا، كفي عن المزاح. توقفي عن هذا الذي تفعلينه، لقد تماديتِ كثيرًا.
- دقومي يا ميمتو[1] واتباهي بقامتو، هذا صهيب المدلل ليلة غدا حنتو.
- هل جننتِ؟ ماذا تقولين؟
- دنزلي وادحغجي[2] من سطوحك العالية، استقبلوكي البنات والعمي والخاليا، غاليا غاليا سَفانة يا غالية.
- ماذا تفعلين بالضبط يا أليكسا؟ سأتصل بسَفانة الآن وأفسر لها كل شيء.

---

(1) ميمتو: أمه. قامتو: قامته طوله. حنتو: ليلة الحنة التي تسبق الزفاف.

(2) ادحغجي: تدحرجي، انزلي بسرعة.

- يلا افغشولو[1] بصدر الإيوانا[2]، مات العدو واصفغت[3] ألوانا.
- أغلقي نفسك يا أليكسا. انتهى.
- والتلبسو مالا والتشلحو مالا، أبوها تاجر حلب جايب الحمَّالة[4].
- ماذا تفعليييين؟
- أعد قائمةً بأغاني الزفة. لن أدع هذه المهمة للأخرى التي ذكرت اسمها.
- ...
- ليس قبل مضي ستة أشهر على وفاة الحاجة. تذكر هذا. عيب.

انتهت 2024/11/30

---

(1) افغشولو: افرشوا له.

(2) الإيوانا: الإيوان، المجلس.

(3) اصفغت: اصفرت، من الغيرة.

(4) أي أن العروس كثيرة الملابس، فوالدها تاجر يذهب إلى حلب وجلب لها الملابس. مستأجرًا الحمالين، دلالةً على كثرة الملابس.

ملف جرائم داعش في فترة سيطرتها على الموصل

أولًا: مجزرة سجن بادوش، بتاريخ 2014/6/11. اقتحم التنظيم سجن بادوش شمال الموصل، وتم فرز السجناء على أساس طائفيٍّ، ثم تم إعدام (وذبح) 670 سجينًا على أساس طائفي، حيث أُعدِم كل السجناء الشيعة.

ثانيًا: مذبحة سبايكر، بتاريخ 2014/6/12، قام تنظيم الدولة بما يعرف بمذبحة سبايكر، حيث قتل قرابة ألفي جندي عراقي، كان هناك 1700 منهم من ضمن طلاب كلية القوة الجوية العراقية (التي تعتبر قاعدة سبايكر الجوية مركزًا تدريبيًّا لهم) وهؤلاء كانوا غير مسلحين أصلًا، إضافةً إلى جنود ينتمون إلى الفرقة 18 المسؤولة عن حماية أنبوب النفط بين بيجي وحقول عين الجحش في الموصل. اقتِيد هؤلاء وأُعدِموا فورًا ونشر التنظيم صورًا عديدة للعملية. القتل كان على أساس الخلفية الطائفية مباشرة.

ثالثًا: تهجير المسيحيين من الموصل: في يوم 12 يوليو/تموز 2014 أعلن التنظيم أن على المسيحيين اختيار الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الخروج من المدينة. وبعد خمسة أيام أصدر التنظيم بيانًا لاحقًا خيَّر فيه المسيحيين بين المغادرة أو القتل. غادر عشرات آلاف المسيحيين المحافظة التي يعود وجودهم فيها إلى القرن الميلادي الأول، وتمت مصادرة أملاكهم، كما أنهم تعرضوا إلى نهب ما حملوه

من ممتلكاتهم عند خروجهم من المدينة على نقاط التفتيش التابعة للتنظيم.

رابعًا: مذبحة الإيزيديين وسبي نسائهم: بتاريخ 4/ أغسطس/2014 دخلت قوات التنظيم مدينة سنجار ذات الغالبية الإيزيدية. أرقام ضحايا الإعدام المباشر تتراوح بين 2000 - 5000 رجل، كما تم سبي أكثر من ألف امرأة وبيع الكثيرات منهن علنًا في عملية «ممنهجة» و»مزودة بوثائق صادرة عن التنظيم». أي أنها لم تكن عملية فردية، بل اعتبرت من أدوات تمويل التنظيم.

خامسًا: **منذ تاريخ 10 حزيران/ يونيو 2014 قام «التنظيم» باعتقال عدد كبير من سكان الموصل** ممن ينتسبون إلى الشرطة العراقية، أو ممن كانوا موظفين في هيئة الانتخابات، أو مرشحين سابقين في الانتخابات، أو رجال دين مخالفين لهم. أو مجرد أشخاص عاديين انتقدوا ما يحدث، كثير من هؤلاء لم يُعثَر لهم على أثر حتى الآن. في وقت لاحق نشر التنظيم على جدران دائرة الطب العدلي قائمةً بأسماء 2070 من سكان المدينة ممن تم إعدامهم دون تسليم جثثهم لذويهم.

يعتقد أن الكثيرين من هؤلاء دفنوا في مقبرة جماعية تسمى «الخسفة» (المنطقة المنخفضة، من الخسف، بلفظ أهل الموصل)، وهي مقبرة جماعية قام التنظيم بتفخيخها لمنع استخراج الجثث.

لا يوجد عدد واضح لمن دُفِن في الخسفة أو الخفسة، لكن بعض المنظمات تقدر عدد الجثث بأكثر من 20 ألف جثة.

لا توجد أي محاولة رسمية حتى الآن للكشف عن الجثث في هذه الحفرة.

سادسًا: **منع التنظيم أجهزة الهاتف والصحون الفضائية اللاقطة للقنوات وقطع الإنترنت عن الموصل، ومنع السجائر** في كل الأماكن الخاصة والعامة وقام بفرض عقوبات صارمة على كل من ينتهك هذه الممنوعات، كما فرض قواعد زي للنساء (عدم إظهار أي شيء بما في ذلك الوجه والكفين) وقواعد زي للرجال (لا يجب أن يسبل الثوب تحت الكاحل) وفرضت عقوبات على من يخالف هذه القواعد أيضًا.

سابعًا: **قام التنظيم بتفجير العشرات من المساجد التي تحتوي على مراقد**، بما في ذلك المراقد التي ارتبطت بالأنبياء الأربعة في مدينة الموصل: يونس وشيت ودانيال وجرجيس عليهم السلام.

للاطلاع على إصدارات أخرى للكاتب:

يمكنك زيارة صفحة الكاتب

على مــوقع عـصـير الكتب

